
الرئاسة العامة لشؤون المسجد الحرام والمسجد النبوي
مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي
المجموعة الكاملة لمؤلفات
سماحة الشيخ العلامة محمد بن عبد الله السبيل رحمه الله
١٠
من منهج التربية الإسلامية
ويليه كتاب:
رعاية الحرمين الشريفين
منذ صدر الإسلام حتى العهد السعودي
تأليف
سماحة الشيخ العلامة
محمد بن عبد الله السبيل رحمه الله
إمام وخطيب المسجد الحرام وعضو هيئة كبار العلماء وعضو المجمع الفقهي الإسلامي
(١٣٤٥ - ١٤٣٤هـ)


منهج
التربية الإسلامية

ح مدار الوطن للنشر، ١٤٣٦ هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
السبيل، محمد عبد الله
المجموعة الكاملة لمؤلفات سماحة الشيخ محمد عبد الله السبيل.
من منبر المسجد الحرام (من منهج التربية الإسلامية، رعاية الحرمين منذ صدر الإسلام حتى المهد السعودي) ـ الجزء ١٠/
محمد عبد الله السبيل ـ الرياض، ١٤٣٦هـ.
...ص؛ ... سم.
ردمك: ١ ـ ٢٧ ـ ٨١٧١ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨
١ ـ السبيل، محمد بن عبد الله بن محمد ـ المؤلفات الكاملة ٢ ـ الإسلام مجموعات أ ـ العنوان
ديوي: ٢١٠،٨ ١٤٣٦/٧٦٢٠هـ

إدَارة المطبُوعَات وَالنّشرْ بالرِئاسةُ العَامةُ لشُؤُون المسجدِ الحَرامِ والمسجِد النّبوِيّ

رقم الإيداع: ١٤٣٦/٧٦٢٠ هـ
ردمك: ١ ـ ٢٧ ـ ٨١٧١ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨

الطبعة الأولى
١٤٣٦ هـ ـ ٢٠١٥م

المملكة العربية السعودية
الرئاسة العامة لشؤون المسجد الحرام والمسجد النبوي
إدارة المطبوعات والنشر



مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي

المجموعة الكاملة لمؤلفات سماحة الشيخ العلامة محمد بن عبد الله السبيل رحمه الله

١٠

من منهج التربية الإسلامية

ويليه كتاب:

رعاية الحرمين الشريفين
منذ صدر الإسلام حتى العهد السعودي

تأليف
سماحة الشيخ العلامة
محمد بن عبد الله السبيل رحمه الله
إمام وخطيب المسجد الحرام وعضو هيئة كبار العلماء وعضو المجمع الفقهي الإسلامي
(١٣٤٥ - ١٤٣٤هـ)


بسم الله الرحمن الرحیم

مقدمة الناشر

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ، وبعد:

فهذا كتاب «من منهج التربية الإسلامية» لمؤلفه العالم الرباني الإمام والخطيب بالمسجد الحرام ، الشيخ محمد بن عبد الله السبيل رحمه الله .

تناول فيه الشيخ -رحمه الله- الآداب الشرعية ، والمناهج التربوية التي جاءت بها النصوص القرآنية ، وحث عليها المصطفى ﷺ ، وكانت نبراسًا يحتذى للعالمين .

لقد كتب الشيخ -رحمه الله- هذه الأحاديث منذ أربعين عامًا تقريبًا ، وألقاها بصوته الشجي في برنامج يحمل اسم هذا الكتاب، وبث عبر إذاعة القرآن الكريم، فكانت أحاديث العالم المربي لجلسائه، والناصح لإخوانه، وحديث الأب لأبنائه ، والمعلم لتلاميذه.

كتب الشيخ هذه الأحاديث بلغة الفقيه الأديب ، يستمتع بها العالم ، وينتفع بها المتعلم ، ويُسرُّ بها المربي والمعلم .

وإننا نشرف بطباعة هذا الكتاب لأول مرة ، ونسأل الله أن ينفع بهذا الكتاب الآباء والمعلمين وطلاب العلم وسائر المسلمين .

رحم الله الشيخ ، وأسكنه فسيح جناته ، وكتب له الأجر والمثوبة لما قدم لإخوانه المسلمين .

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

الناشر

(١)

وجوب الاستقامة

يقول الله عز وجل مخاطبا أفضل المرسلين ، ومصطفى رب العالمين ، وخير الخلق أجمعين : ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ﴾ [هود:١١٢].

في هذه الآية يأمر الله نبيه ﷺ بالاستقامة وهي استقامة على طاعة ربه، وامتثال أوامره ، وتبليغ رسالاته ، وفي الآية الأخرى: ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ [الحجر:٩٩] المعنى : اعبد ربك حتى يأتيك الموت، وأنت على ذلك .

والنبي ﷺ قد امتثل أمر الله ، واستمر في عبادة ربه ، يبلغ أمر الله ، ويدعو إلى سبيله بالحكمة والموعظة الحسنة ، ويبين للناس أمر دينهم ، ويرسم الطريق المؤدية إلى مرضاة الله ، ومحبته ، والموصلة إلى مغفرته ، ورضوانه ، ويجاهد أعداء الله بلسانه وماله ويده ، يغزوا أعداء الله ، ويقاتل في سبيل الله ، ويبعث السرايا ، ويدير الجيوش ، كل حياته ﷺ في جهاد مع المنافقين ، ومع اليهود ، ومع الكفار المعلنين للعداء ، يجاهد بعضًا بالحجة والبيان ، وبعضا باليد والسنان ، يجاهد ويخرج في سبيل الله في كل وقت ، في شدة البرد وشدة الحر ، في حال اليسر والعسر، في المنشط والمكره .

لقد استقام كما أمره ربه ، واستقام أصحابه معه ، ومن بعده .

لقد حقق ﷺ ما أمره الله به في قوله : ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [هود:١١٢] .

حققها بكل ما تشتمل عليه من معنى الاستقامة ، وتحمل ما تفرضه عليه من مشقة وعناء ، وكان يهتم بتكميل أمر الاستقامة ، وكانت شغله الشاغل.

ولهذا لما قيل له : شبت يا رسول الله ، قال : «شيبتني هود وأخواتها» رواه أبو يعلى والترمذي في الشمائل[1] .

قال بعض السلف : يشير ﷺ إلى آية هود التي يقول الله له فيها : ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ﴾ .

فكان ﷺ يهتم بأداء هذا الواجب كثيرًا ، ويحث أصحابه على الاستقامة على طاعة الله ، ويحذرهم من التساهل ، أو التكاسل في أداء الواجبات .

فكان ﷺ يقول : « أفضل الأعمال الصلاة في أول وقتها » رواه أبو داود والترمذي[2] .

وكان يقول ﷺ : « أحب العمل إلى الله أدومه » رواه مسلم[3] .

---

(١) مسند أبي يعلى ، رقم (٨٨٠) ؛ الشمائل المحمدية للترمذي ، رقم (٥٨) .

(٢) سنن أبي داود ، رقم (٤٢٦) ؛ سنن الترمذي ، رقم (١٧٠) .

(٣) صحيح مسلم ، رقم (٧٨٦) .

وكان ﷺ إذا عمل عملا أحب أن يداوم عليه .

ولقد حذرنا القرآن الكريم من الغفلة ، وفساد القلب ، وأمرنا أن نراقب الله عز وجل ، وأن تخشع قلوبنا لذكره ، وما أنزله على رسوله من الوعد والوعيد ، والحكم والأحكام ، والمواعظ والتذكير ، فقد قال سبحانه وتعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ [الحديد:١٦] .

فهكذا يأمرنا سبحانه وتعالى بخشيته ويحذرنا من الغفلة المنافية للاستقامة ، ويحذرنا من التشبه بأهل الكتاب الذين ضعفت عزائمهم عن تحمل الأمانة ، وعن مواصلة السير إلى الله ، وإلى مرضاته ، ووهت قواهم أمام شهواتهم ولذاتهم ، ولم يستطيعوا الاستقامة على طاعة الله ، ولم يصبروا على التكاليف الإلهية ، فانقطعوا في أثناء السير ، ولم يكن لديهم عقول حصيفة ، تكبح جماح نفوسهم الأمارة بالسوء ، ولم يكن لهم آراء سديدة ، تفرق بين الضار والنافع ، ولا بين ما يزول وما ينبغي ، ولا بين المتاع القليل الفاني والمتاع الواسع الباقي ، ما أشبه هؤلاء بالبهائم التي لا تفرق بين الضار والنافع ، فصدق الله العظيم ﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان:٤٤] .

إن نبينا الكريم عليه من الله أفضل الصلاة والتسليم لما جاء أحد

أصحابه الكرام متعطشًا إلى وصية من وصايا الناصح الكامل في النصح ﷺ فقال : يا رسول الله ، قل لي في الإسلام قولاً ، لا أسأل عنه أحدًا بعدك . قال له ﷺ : « قل آمنت بالله ثم استقم » رواه مسلم[(١)] .

لقد خص الله نبيه ﷺ بجوامع الكلم كما خصه بالنبوة والرسالة ، وأعطاه الكمال في العلم والنصح ، فلقد قال له قولاً جامعًا ، نافعًا ، موصلا صاحبه إلى الفلاح والرشاد ، فأي فضل يعدل الإيمان بالله ، والاستقامة على ذلك ، فإنه أمره بالإيمان بالله ، الذي هو المطلوب من العبد ، والذي يشمل الإيمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، والإيمان بالقدر خيره وشره ، ويشمل جميع العقائد ، وأصول الإيمان من أعمال القلوب ، والانقياد ، والاستسلام له باطنًا وظاهرًا ، ثم المداومة على ذلك ، والاستقامة عليه حتى الممات ، فماذا يكون جزاء من اتصف بهذا ؟

أليس الله سبحانه بيّن ذلك في محكم كتابه ، فقال عز وجل : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾ [فصلت:٣٠-٣١] .

ويقول سبحانه أيضًا : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ

(١) صحيح مسلم ، رقم (٣٨) .

عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [الأحقاف:١٣] .

فرتب سبحانه على الإيمان والاستقامة السلامة من جميع الشرور ، والفوز بالجنة .

وقد دلت نصوص القرآن والسنة على أن الإيمان يشمل ما في القلوب من العقائد الصحيحة وأعمال القلوب ، من الرغبة في الخير ، وفعله ، والرهبة من الشر ، والبعد عنه ، وإرادة الخير ، وكراهية الشر ، ولكن لا يتم شيء من ذلك إلا بالثبات ، والاستمرار ، والاستقامة عليه .

والله الموفق وصلى وسلم على محمد وعلى آله وصحبه .

* * *

(٢)

وجوب العدل والتحذير من الظلم

قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾ [الأنعام:١٥٢] ، وقال جل وعلا : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ [النحل:٩٠] ، ولقد حث الله سبحانه على لزوم العدل ، وأمر به في جميع الأحوال ، في الأقوال ، والأفعال ، والأحكام ، والإصلاح بين الناس ، وبين الأولاد ، والزوجات ، وكل ذي حق .

قد حرم الله الظلم ، ورتب عليه العذاب الأليم ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [إبراهيم :٢٢] ، وقال سبحانه : ﴿ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [الشورى :٨] .

وفي الحديث القدسي يقول الله : « يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي ، وجعلته بينكم محرمًا ، فلا تظالموا »[١] .

وان أظلم الظلم على الإطلاق هو الشرك بالله ، كما قال عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان:١٣] .

وان أرفع أنواع العدل وأفضلها ، وأوجبها ، هو التوحيد ، وهو إفراد الله سبحانه بالعبادة ، وذلك أن العدل هو وضع الشيء في موضعه ، وما

---

(١) صحيح مسلم ، رقم (٢٥٧٧) .

يليق به ، ولا يليق صرف شيء من أنواع العبادة إلا لله وحده ، فالخالق الذي أحسن كل شيء خلقه ، وأحكم ما صنع على غاية الدقة والكمال هو المستحق للعبادة ، وصرف شيء منها لغيره نوع من أنواع الظلم ، بل هو أعظمه وأشده عقوبة ﴿ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ [المائدة:٧٢] .

فإخلاص العبادة لله من حقوقه سبحانه ، والإخلال بها إخلال بالعدل الذي أمر الله به ، ومناقض للحكمة التي خلق من أجلها الجن والإنس، قال عز وجل: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦] ، فمن قام بهذا الحق فعبد الله وحده وأدى هذا الحق وقام بحقوقه مخلصًا له ، فقد قام بأعظم العدل ، ومن أخل به ، وجعل هذا الحق لغير مستحقه ، بأن صرف شيئًا من أنواع العبادة لغير ربه ، وتعلق قلبه بغير فاطره وبارئه ، رغبة ورهبة ومحبة وتألهًا فقد ظلم وعدل عن الحق وعن العدل، كما قال عز وجل : ﴿ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأنعام:١] أي يعدلون به غيره ، ويسوونه بمن سواه ممن ليس فيه من أوصاف الألوهية شيء ، ولا يملك لنفسه ولا لغيره مثقال ذرة من النفع ، أو الدفع . فلا أظلم ممن سوى المخلوقات الناقصة بالنسبة إلى الله والفقيرة إليه المحتاجة في كل حالاتها إليه بالرب الغني بذاته من جميع الوجوه .

وقد أخبر ﷺ عن فضيلة العدل وكل ما كان العدل أعم وأشمل كان

أعظم ثوابًا ، ولذلك قال عليه السلام : « سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله»، ثم ذكر منهم « الإمام العادل» رواه البخاري ومسلم[١] .
وقال عليه السلام : «المقسطون على منابر من نور الذين يعدلون في أهلهم وحكمهم وما ولوا» رواه مسلم[٢] .

فيحصل للإمام العادل من الثواب العظيم والفضل الجسيم ما لا يحصل لغيره من سائر الناس ، إذا أقام العدل في جميع رعيته ، قريبهم وبعيدهم ، غنيهم وفقيرهم ، ويترتب على عدله فوائد عظيمة :

منها : حصول الأمن والاستقرار ورغد العيش .

ومنها : حصول البركة في الحروث والزروع والمواشي، ولذلك يروى أن يومًا واحدًا من إمام عادل خير للعباد من أن يمطروا أربعين صباحًا.

ومنها : أن عدل الإمام يدفع شرورًا عظيمة ؛ لأنه بعدله يقل الناقمون عليه ، ويكثر الراضون عنه ، فيكثر أنصاره وأعوانه ، فتطفأ الفتن، وتحقن الدماء .

ولهذا شاهد واضح مما نراه ونسمع به في بعض البلاد ، الذين ابتلى حكامها بالإعراض عن تحكيم الشريعة ، وجاروا في حكمهم، ولم يبالوا بالظلم والجور ، فهم في قلق واضطراب ، قلق في الداخل ، واضطراب في

(١) صحيح البخاري ، رقم (٦٦٠) ؛ صحيح مسلم ، رقم (١٠٣١) .
(٢) صحيح مسلم ، رقم (١٨٢٧) .

السياسة الداخلية والخارجية ، وتحزبات ومؤامرات ، وتقتيل وتشريد ، وحبس وتعذيب ؛ لأنهم لم يطبقوا الشريعة الإسلامية التي كلها عدل ، وبر ورحمة مع انتسابهم إليها وتسميهم بها ، فلا تصلح الدنيا ، ولا تستقيم الأمور على السداد إلا بالعدل .

وبالعدل يسعد الراعي والرعية ، وبه تتهيأ أسباب النصر والفلاح، ويحصل التعاون على المصالح الكلية والجزئية ، وإذا قل العدل فبمقدار نقصه يحصل خراب الديار ، وفساد الأحوال ، وفتح أبواب الفتن ، وحصول العداوات والبغضاء .

اللهم أصلح أحوال المسلمين ، واجمع كلمتهم على الهدى ، واحفظ اللهم أئمتنا ، وولاة أمورنا ، ووفقهم لمرضاتك يا رب العالمين .

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه .

* * *

(٣)

أنواع العدل

العدل واجب في جميع المعاملات بينك وبين الناس ، وهو أن تؤدي ما عليك كاملا ، طيبة نفسك ، مقترنة به السماحة وطلاقة الوجه ، كما أنك تحب ذلك من غيرك ، واستيفاء حقك كاملا ، فمن الإنصاف أن تعامل الناس بما تحب أن يعاملوك به .

فمتى بنيت المعاملات على هذا تحسنت العلاقات والمعاملات بين الناس ، ووجدت الثقة والتبادل العادل بين المتعاملين ، فاتسعت دائرة الأسباب ، والتجارات ، والصناعات ، والحرف النافعة ، ووثق المتعاملون بعضهم ببعض، وقلت العداوات ، والخصومات ، والمشاجرات ، والإحن، وانحسر النزاع كله وكل ذلك بسبب العدل .

ومتى زال العدل ، أو نقص من الناس وقع الظلم في المعاملات ، والخيانة والبخس ، واستقصى الإنسان على كامل حقه ، وربما لم يقتصر على حقه فبخس الحق الذي عليه ، وغش ، وطفف ، فمنع الحق الواجب عليه ، وأخذ حقه وافيًا ، أو ربما زاد على الأخذ من حقه ، وقد توعد الله على ذلك أشد الوعيد ، فقال سبحانه : ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ

﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين:١-٦] فقد ذكر هذا الوعيد العظيم لمن لم يلتزم العدل بينه وبين الناس ، وهذا الوعيد يحصل يوم القيامة ، كما أخبر الله ، وكذلك أيضًا يحصل له في الدنيا شيء من ذلك ، من نزع البركة ، ونقص الرزق ، وسوء المعاملة ، وانصراف الناس عنه ، وحرمانه كثيرًا من المعاملات، والأسباب النافعة لمعرفة الناس به، وخوفهم من ظلمه وجوره.

وقد توعد ﷺ من اتصف بعدم العدل وارتكب شيئا من الظلم فقال عليه السلام : « من غشنا فليس منا »[١] ، فالغش والتدليس وكتمان العيوب عند عرض السلع للبيع ليس من الدين ، فصاحبها متعرض لعقوبة الله العاجلة والآجلة ، قد سقط بين الناس شرفه وجاهه ، ونزلت قيمته واعتباره ، واتضحت سفالة أخلاقه ومهانة نفسه .

ومن أهم أنواع العدل ما يتعلق بالزوجين ، فينبغي لكل واحد منهما أن يلتزم الوفاء بالعدل ، وأداء ما عليه للآخر من الحقوق الشرعية ، وينبغي لهما أن يتصفا بالتسامح ، وعدم التقصي في الأمور ، فمتى حصل العدل والتسامح حصل معه الانسجام والوئام ، ونمت البركة ، وتمت الراحة ، وأصبحت العائلة كلها يسودها الاطمئنان والهدوء ، ونشأت نشأة حميدة صالحة ، ومتى حصل الإخلال بشيء من ذلك ، ولم يتحر كل من الزوجين

(١) رواه مسلم في صحيحه ، رقم (١٠١) .

العدل ، ولم يستعمل التسامح ، والإغضاء عن الأمور ، التي كل منهما يرى أنه حق له ، حصل التنغيص ، والتكدر ، وزال صفو العيش ولذته ، وطال الخصام ، وتعسر الالتئام ، واختلت التربية النافعة ، وتضرر كل منهما في دينه ودنياه .

ولقد أرشدنا القرآن الكريم إلى مراعاة هذه الأمور والاهتمام بها ، فقال سبحانه وتعالى : ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ [النساء:١٩]، وقال عز وجل : ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ [البقرة:٢٢٨] .

وكذلك يتعين التزام العدل في حقوق الأولاد ؛ لأن هذا مما أمر به شرعا ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : « اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم » رواه البخاري[(١)] .

وكذلك استعمال العدل مع الأقارب ، كل على حسب منزلته ، فكل ما كان أقرب كان حقه ألزم ، وأوجب . فللوالدين حق ليس لغيرهما من بقية الأقارب ، وكذلك غيرهم الأقرب فالأقرب ، كل على حسب حالهم ، فيجب العطف عليهم وزيارتهم ، والقيام بما يحتاجون إليه ، فبذلك تكتسب الأجر الأوفر من الله ، والسمعة الحسنة ، والذكرى الطيبة .

كما أنه ينبغي لك الصبر والتحمل ، لما قد يصدر من أقاربك أو

---

(١) صحيح البخاري ، رقم (٢٥٨٧) .

جيرانك أو زملائك وأصحابك من أذى ، وينبغي أن تقيم لهم العذر بذلك وتحملهم على أحسن المحامل ، ولا تبادر بإساءة الظن ، فربما يخطئ ظنك وتندم على فعلك ، وإذا قدر أنه لم يكن لحسن الظن محمل ، فاعلم أن كل شخص له محاسن ، وله مساوئ ، حتى لو فتشت عن نفسك بعين الإنصاف ، لوجدت ذلك فيها ، ومن المتعذر أن تجد شخصًا ليس فيه خصلة تكرهها ، ولكن إذ غلبت الصفات الحسنة على الشخص ، فينبغي لك أن لا تضيعه لوجود صفة غير محمودة ، ولذلك يقول الشاعر في هذا المعنى :

ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها

كفى المرء نبـلا أن تعـد معائبه

نسأله سبحانه أن يرزقنا العدل والاستقامة والصبر والتحمل ، إنه على كل شيء قدير . وصلى الله وسلم على نبينا محمد ، وعلى آله وصحبه .

* * *

(٤)

حق ذوي القربى

يقول الله عـز وجل : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ ﴾ [النحل:٩٠] .

ذو القربى: هم القرابة، وأقرب القربى هما الوالدان، والأبناء ، والإخوان، وهكذا ، فيجب القيام بحقهم ، كل بحسب قربه ، فحق الآباء آكدها وأعظمها ، ثم الأقرب فالأقرب ، وقد ذكر الله عز وجل تقرير ذلك في كتابه في مواضع كثيرة ، وقرن حق الوالدين بحقه في عدة آيات من كتابه، وما هذا إلا لعظمه وتأكيده .

وأما القرابة غير الوالدين : فقد ذكره سبحانه أيضًا في آيات كثيرة ، منها قوله عز وجل : ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا ﴾ [الإسراء:٢٦] ، وقال سبحانه وتعالى : ﴿ وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ ﴾ [النسا:٣٦] .

وكثيرا ما يذكر القرابة باسم الرحم ، كما قال سبحانه : ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَ ﴾ [النساء:١] ، وقال سبحانه : ﴿ فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ ﴾ [محمد:٢٢] .

فهذه الآيات الكريمات تدل على تأكد حق ذي القربى ، والأرحام ،

كما تدل أيضًا على شدة الوعيد فيمن لم يقم بهذا الواجب، وأن خطره عظيم، حيث أن الله عز وجل لعن من قطع رحمه ، وأي عقوبة أعظم من هذا ؛ لأن اللعن معناه الطرد والإبعاد عن رحمة الله .

فقد روى أبو داود والترمذي – وقال : حسن صحيح – عن عبد الرحمن بن عوف ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول: « قال الله عز وجل: أنا الله ، أنا الرحمن ، خلقت الرحم ، وشققت لها اسمًا من اسمي ، فمن وصلها وصلته ، ومن قطعها قطعته ، أو قال : بتته »[(١)] .

وفي البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال : «الرحم متعلقة بالعرش ، تقول : من وصلني وصله الله ، ومن قطعني قطعه الله»[(٢)] .

وروى البخاري ومسلم رحمهما الله أيضًا عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ « إن الله خلق الخلق ، حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم ، فقالت : هذا مقام العائذ من القطيعة ، قال : نعم أما ترضين أن أصل من وصلك ، وأقطع من قطعك ، قالت : بلى ، قال : فذاك لك ، ثم قال رسول الله ﷺ : اقرؤوا إن شئتم : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴾

(١) سنن أبي داود ، رقم (١٦٩٤) ؛ سنن الترمذي ، رقم (١٩٠٧) .
(٢) صحيح البخاري ، رقم (٤٨٣٠) ؛ صحيح مسلم ، رقم (٢٥٥٤) .

[محمد:٢٢-٢٣] ».

فهذه الآيات والأحاديث تبين لك عظم حق القربة ، وأن صلة الرحم من أفضل الأعمال، وأن قطيعة الرحم عقوبتها من أعظم العقوبات، ولكن قد يحمل بعض الناس على القطيعة ما يراه من جفاء قريبه ، أو سوء خلقه، ونحو ذلك ، كما قيل :

ولم تــزل قلة الإنصــاف قاطعة　　بين الرجال ولو كانوا ذوى رحم

واللائق بالمسلم أن لا يعامل قريبه في القطيعة كما يعامله، بل ينبغي أن يكون له عليه الفضل ، وأن يصل رحمه ، ولو قطعوا به، فإن هذا في الحقيقة هو الواصل ، كما قال ﷺ في الحديث الذي رواه البخاري وغيره عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : « ليس الواصل بالمكافئ ، ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها » .

فينبغي للمسلم أن يتصف بهذا الخلق الكريم ؛ ليظهر فضله ، ويعظم أجره عند الله .

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

* * *

(٥)

النهي عن الفحشاء

يقول الله عز وجل : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ﴾ [النحل:٩٠] .

الفحشاء : كلمة شاملة عامة ، تعم كل ما فحش في الشرع ، مما حرمه الله ورسوله ، أي مما اشتد قبحه من الذنوب والمعاصي ، سواء كان من الأقوال ، ككلمة الشرك ، والطعن والاستهزاء بالله ورسوله وآياته ، كما قال سبحانه : ﴿ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَـٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ ﴾ [التوبة:٦٥-٦٦] .

ويدخل في الفحش في القول : كثرة السباب ، واللعن ، والنبي ﷺ ذكر أنه ليس من أوصاف المؤمنين ، كما قال عليه الصلاة والسلام : « ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش البذيء» رواه الترمذي وحسنه[(١)] .

وأما الفحشاء في الأفعال : فهي الذنوب التي حرمها الله ، وأخبر عن فحشها ، وذلك كالكبائر التي نهى الله عنها ورسوله ، وأخبر ﷺ أن أعظم الذنوب على الإطلاق الشرك بالله ، وكذلك قتل النفس ، وقتل الأولاد ، والزنا ، وقد قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا

---

(١) سنن الترمذي ، رقم (١٩٧٧) .

وَمَا بَطَنَ ﴾[الأنعام:١٥١] .

وقد سمى الله سبحانه الزنا فاحشة ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾[الإسراء:٣٢] .

والزنا من أفحش الفواحش ، ومن كبائر الذنوب ، وقد حرمه الله في جميع الأديان ؛ لما يترتب عليه من الأضرار العظيمة ، التي لا تدخل تحت حصر ،من الأضرار الدينية، والدنيوية، والبدنية، والأخلاقية، والاجتماعية.

قال الإمام ابن القيم رحمه الله : « لما كانت الزنا من أعظم المفاسد وهي منافية لمصلحة نظام العالم في حفظ الأنساب ، وحماية الفروج ، وصيانة الحرمات ، وتوقي ما يوقع أعظم العداوة والبغضاء بين الناس ، من إفساد كل منهم امرأة صاحبه ، أو بنته ، أو أخته ، أو أمه ، وفي ذلك خراب العالم كانت تلي مفسدة القتل في الكبر ؛ ولهذا قرنها الله بها في كتابه ورسوله ﷺ في سنته»[(١)] .

قال الإمام أحمد : ولا أعلم بعد قتل النفس شيئًا أعظم من الزنا ، وقد أكد الله سبحانه حرمته بقوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ [الفرقان:٦٨] فقرن الزنا بالشرك وقتل النفس ، وجعل جزاء ذلك

(١) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي ، ١/ ١٠٥ .

الخلود في النار في العذاب المضاعف المهين ، ما لم يرفع العبد موجب ذلك بالتوبة ، والإيمان ، والعمل الصالح ، وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء:٣٢] ، والفاحشة هي القبيح الذي قد تناهى قبحه ، حتى استقر فحشه في العقول، وقبح الزنا تعرفه كذلك كثير من الحيوانات ، كما ذكر البخاري في صحيحه عن عمرو بن ميمون الأودي قال: «رأيت في الجاهلية قردًا زنى بقردة، فاجتمعت القرود عليها، فرجموهما حتى ماتا » ثم أخبر سبحانه عن غايته ، بأنه ساء سبيلا ، فإنه سبيل هلكة ، وافتقار في الدنيا ، وسبيل عذاب في الآخرة ، وخزي ، ونكال.

ولما كان نكاح الأبناء بأزواج الآباء من أقبحه ، خصه بمزيد ذم ، فقال : ﴿إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء:٣٢] .

وعلق سبحانه الفلاح -فلاح العبد- على حفظ فرجه منه ، فلا سبيل له بدونه ، فقال سبحانه : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾ [المؤمنون:١-٧]. اللهم اجعلنا من عبادك المؤمنين ، وألحقنا بالصالحين .

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

* * *

(٦)

النهي عن المنكر

نهى سبحانه عن كل منكر يعود على المرء بالشر وسوء العاقبة في دينه ودنياه .

والمنكر كل ما أنكره الشرع ، ونهى عنه ، كما أن المعروف ما عرف حسنه في الشرع ، وأمر به . وفي الآية الشريفة يخبر عز وجل أنه ينهي عن المنكر : ﴿ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ ﴾ [النحل:٩٠] ، وقد أمر عباده المؤمنين بالنهي عنه ؛ ولهذا قال عز وجل : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران:١٠٤] .

وليحذر المؤمن كل الحذر أن يأمر بمعروف ولا يفعله ، أو ينهي عن منكر ويفعله ، فإن هذا أمره عظيم عند الله ، كما قال سبحانه : ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف:٣] .

وفي الصحيحين عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقي في النار ، فتندلق أقتاب بطنه ، فيدور بها كما يدور الحمار برحاه ، فيجتمع أهل النار عليه ، فيقولون : يا فلان مالك؟ ألم تكن تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر ؟

فيقول : كنت آمر بالمعروف ولا آتيه ، وأنهى عن المنكر وآتيه »[١] .

وقد عد العلماء رحمهم الله ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع القدرة عليه من كبائر الذنوب ، مستدلين بقوله عز وجل : ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴾[المائدة: ٧٨ – ٧٩] .

وقد جاء في السنة ما يدل على وجوبه أيضًا ، وهو قوله ﷺ في الحديث الذي رواه مسلم وغيره عن أبي سعيد ﷺ ، أن رسول الله ﷺ قال : « من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان »[٢] .

وجاء في لفظ النسائي : « من رأى منكرًا فغيره بيده فقد برئ ، ومن لم يستطع أن يغيره بيده فغيره بلسانه فقد برئ ، ومن لم يستطع أن يغيره بلسانه فغيره بقلبه فقد برئ ، وذلك أضعف الإيمان »[٣] .

وأخرج الإمام أحمد والطبراني في الكبير عن درة بنت أبي لهب قالت : «سئل رسول الله ﷺ : من خير الناس قال : آمرهم بالمعروف ، وأنهاهم عن

---

(١) صحيح البخاري ، رقم (٣٦٢٧) ؛ صحيح مسلم ، رقم (٢٩٨٩) .
(٢) صحيح مسلم ، رقم (٤٩) .
(٣) سنن النسائي ، رقم (٥٠٠٩) .

المنكر ، وأتقاهم لله ، وأوصلهم للرحم »[(١)] .

وروي عن أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « لا تزال لا إله إلا الله تنفع من قالها ، وترد عنهم العذاب والنقمة ، ما لم يستخفوا بحقها ، قالوا : يا رسول الله ، وما الاستخفاف بحقها ؟ قال : يظهر العمل بمعاصي الله ، فلا ينكر ، ولا يغير»[(٢)] .

فهذه الآيات التي تقدمت والأحاديث التي سبقت فيها دلالة واضحة على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

فعلى المسلم مجاهدة نفسه على الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، ليسلم من الإثم ، ويفوز بالأجر ، والله والموفق والمعين .

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

* * *

---

(١) مسند أحمد ، رقم (٢٤٧٤٧) ، ومعجم الطبراني الكبير ، رقم (٦٥٧) .

(٢) ذكره السيوطي في جامع الأحاديث ، رقم (١٦٣٩٣) ، وقال : رواه الحاكم في تاريخه عن أبان عن أنس .

(٧)

الأمر بأداء الأمانة والنهي عن الخيانة

قال الله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنفال:٢٧] .

قال ابن عباس : الأمانات الأعمال التي ائتمن الله عليها العباد[١] ، يعني الفرائض .

قال الكلبي : أما خيانة الله ورسوله فمعصيتهما ، وأما خيانة الأمانة فكل واحد مؤتمن على ما افترضه الله عليه ، إن شاء خانها ، وإن شاء أداها ، لا يطلع عليه أحد إلا الله ، فالوضوء أمانة ، والغسل من الجنابة أمانة ، وكل العبادة التي لا يطلع عليها إلا الله أمانة بين العبد وبين ربه ، إن أداها كما أمر الله فقد قام بأمانته ، وأن انتقص منها شيئًا فالله مطلع عليه ، ويعلم خيانته بها ؛ لأنه سبحانه يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور .

فالواجب على المؤمنين أن يؤدوا ما ائتمنهم الله عليه من أوامره ونواهيه ، فإن الأمانة عبء جسيم ، وحمل عظيم ، ولذلك عرضها الله على السماوات والأرض والجبال ، فأبين أن يحملنها ، وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلومًا جهولا ، فمن أدى الأمانة استحق من الله الثواب

---

(١) التفسير الوسيط للواحدي ، ٢/ ٤٥٣ .

الجسيم ، والأجر العظيم ، وصار مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين .

ومن لم يؤدها بل خانها ، واستخف بها ، ولم يرعها حق رعايتها ، استحق العقاب العظيم ، وصار خائنًا لله وللرسول ، ولأمانته ، ودنس نفسه ، ودساها ، وتنقصها ؛ لأنها اتصفت بأخس الصفات ، وأقبح الخلات ، وفوت على نفسه أكمل الصفات وأرفعها وأتمها ، وهي أداء الأمانة .

ويدخل في أداء الأمانة الولايات فيجب على كل متول أمرًا من الأمور أن يقوم به على الوجه الأكمل ، وينصح لكل من يتعلق به في هذا العمل ، سواء كان رئيسًا أو مرؤسًا ، فعليه مراعاة ما كلف وأنيط به .

فإن كان قاضيًا وجب عليه تحري الحكم بما أنزل الله ، ولا يجوز له العدول عنه وهو يعلمه ، فإنه من الخيانة . وعلى الأمير الحرص والمبادرة إلى تخليص الحقوق ، وإعطائها أهلها . وعلى الموظف القيام بعمله ، وعدم المماطلة ، وتأخير الأعمال بدون سبب واضح ، وعدم التضايق ممن يراجعه المراجعين له ، والباحثين عن قضاياهم . وإن كان مدرسًا فإنه يجب عليه النصح لجميع الطلاب الذين يتولى تدريسهم ، ولا يخص بعضهم بالمعلومات دون بعض ، ويلقي عليهم الدروس حسب استطاعتهم .

ثم إن من لم يتصف بالأمانة فإنه يكون خائنًا ، والله سبحانه وتعالى

حذر من الخيانة أشد تحذير ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ﴾ [يوسف:٥٢] أي أن الله لا يرشد كيد الخائنين ، ولا يهديهم إلى الصراط السوي، ولا بد للخائن أن يفتضح ويظهر حاله للناس ، وقد أعطانا المصطفى ﷺ وصفًا للمنافق يعرفه به كل أحد ، فذكر من أوصافه الخيانة ، فقال عليه السلام : «آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان» رواه البخاري ومسلم[(١)] .

وروى عنه ﷺ أنه قال : « لا إيمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لا عهد له »[(٢)] .

واعلم أن الخيانة قبيحة في كل شيء كبير أو صغير، إلا أن بعضها شر من بعض ، وحنانيك بعض الشر أهون من بعض، فإن من خانك في درهم أو دينار ليس كمن خانك في أهلك وعرضك .

فيجب على المسلم اجتناب الخيانة مطلقا في كل جليل وحقير، حتى ولو خانك شخص ، فلا ينبغي أن تخونه ، وتعمل معه كعمله معك ؛ لأنه جاء عن النبي ﷺ أنه قال : « أد الأمانة إلى من ائتمنك ، ولا تخن من خانك»[(٣)] .

---

(١) صحيح البخاري ، رقم (٦٠٩٥) ؛ صحيح مسلم ، رقم (٥٦) .

(٢) الزهد لابن السري ، رقم (١٠٣٣) .

(٣) رواه أحمد في مسنده ، رقم (١٥٤٣٤) ، وأبو داود ، رقم (٣٥٣٤) ، والترمذي ، رقم (١٢٦٤).

وروي عن أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « يطبع المؤمن على كل شيء ، ليس الخيانة والكذب » رواه أحمد والطبراني والبيهقي[١] .

وقال عليه السلام : « إياكم والخيانة فإنها بئست البطانة » رواه الطبراني[٢] .

وجاء عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : يؤتي يوم القيامة بصاحب الأمانة الذي خان فيها ، فيقال له : أد أمانتك ، فيقول : أنى يا رب وقد ذهبت الدنيا ، قال : فتمثل له كهيئتها يوم أخذها في قعر جهنم ، ثم يقال له : انزل إليها فأخرجها ، قال : فينزل إليها ، فيحملها على عاتقه ، فهي أثقل من جبال الدنيا ، حتى إذا ظهر أنه ناج ، هوت ، وهوى في أثرها أبد الآبدين »[٣] ، ثم قال رضي الله عنه : « الصلاة أمانة ، والوضوء أمانة ، والغسل أمانة ، والوزن أمانة ، والكيل أمانة ، وأعظم ذلك كله الودائع »[٤] .

ومن الأمانة عدم التعرض لعباد الله بأذيتهم ، وعدم إفشاء سرهم إذا أسروا إليك بشيء من أمورهم ، لاسيما إذا طُلب منك كتمه ، وقد قال

---

(١) مسند أحمد، رقم (٢٢١٧٠) ؛ المعجم الكبير للطبراني، رقم (١٣٨١٥) ؛ شعب الإيمان للبيهقي، رقم (٤٨٠٩) .

(٢) المعجم الكبير للطبراني ، رقم (٦٢٩) .

(٣) شعب الإيمان للبيهقي ، رقم (٥٢٦٦) .

(٤) مصنف ابن أبي شيبة ، رقم (٣٥٩١٤) ؛ شعب الإيمان للبيهقي ، رقم (٥٢٦٦) ؛ مكارم الأخلاق للخرائطي ، رقم (١٥٩) ؛ المعجم الكبير للطبراني ، رقم (١٠٥٢٧) .

بعض السلف : إذا حدثك أخوك بحديث والتفت فإنه أمانة ؛ لأنه إنما التفت خوفًا من أن يسمعه أحد .

وحصر الأمانات يحتاج إلى بسط أكثر ، وإنما أهمها ، أو من أهمها الأولاد الذين جعلهم الله أمانة عندك ، يجب عليك أن تعرفهم واجبهم ، وأن تجتهد في محاولة إصلاحهم ، ودلالتهم على الطريق الأقوم ، الذي يسلكونه في مجال حياتهم من أمور دينهم ودنياهم ، يقول سبحانه وتعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴾ [التحريم:٦] أي اجعلوا بينكم وبين عذاب الله وقاية ، تقيكم غضبه ، وناره التي وقودها الناس والحجارة ، والوقاية إنما هي بطاعته سبحانه ، والعمل بما أوجبه ، والحذر مما نهى عنه .

فيجب على الأولياء القيام بتأديب أولادهم ، ونصحهم ، وإرشادهم في حال صغرهم، وفي السن التي يكون الولد فيها قابلًا للتعلم ، وللتأديب، فإنه متى تركه وشأنه استمر في ذلك ، وصعب عليه التحول مما هو عليه ، ولذلك يقول بعضهم في هذا المعنى :

إن الغصون إذا عدلتها اعتدلت ولا تلين إذا كانت من الخشب

قد ينفع الأدب الأحداث في مهل   وليس ينفع في ذي الشيبة الأدب[1]

والتأديب هو بالنصح ، والإرشاد ، والتوجيه ، والتقويم بحسب الحال ، فإن احتاج إلى الضرب في بعض الأحيان فلا بأس ، إذا لم ينفع اللطف ، واللين ، والكلام الخشن ، لكن لا يكون الضرب مبرحًا وإنما ضرب يحصل به الزجر والكف ولا يحصل منه ضرر يبقى على المضروب.

ويُحكى عن لقمان الحكيم أنه قال : ضرب الوالد للولد مثل السماد للزرع .

وإذا رأى الوالد من ولده صلفًا وشدة ، فلا ينبغي له أن يكثر ضربه ، بل يحاول مهما أمكن علاج ذلك بالوعظ ، والتوبيخ أحيانًا ، فإنه يؤثر فيه عاجلًا أو آجلًا .

يروى عن ابن عباس ﷺ أنه قال : عَرَامة الصبي زيادة في عقله في كبره . والعرامة هي الشدة .

قال بعض الحكماء : ابنك ريحانتك سبع سنين ، وخادمك سبع سنين، فإذا صار ابن أربع عشرة سنة ، فإن أحسنت إليه فهو شريكك ، وإن أسأت إليه فهو عدوك .

فعلى هذا ينبغي للوالد عمل ما يستطيعه من الأدب بلطف ، ولين ،

---

(١) القائل : الديلمي في صيد الأفكار في الأدب والأخلاق ، ١/ ٣٠.

والتوفيق بيد الله .

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

❋ ❋ ❋

(٨)

فوائد الصلاة ومنافعها

يقول الله عز وجل : ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ [العنكبوت:٤٥].

إن الله سبحانه وتعالى يأمر نبيه ﷺ بإقامة الصلاة ، ويخبره بأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر ، فنهيها عن الفحشاء والمنكر من أعظم فوائدها ، وهل هناك أعظم فائدة من كون العبد ينكف عن الفواحش ، وهي الذنوب والمعاصي التي هي أعظم المصائب في الدنيا والآخرة ، فكم حصل على العبد من التنغيص والنكد وعدم الأمن والاستقرار بسبب الذنوب والمعاصي ، وكم فاته من الأمور النافعة الجليلة المفيدة له في ماله وفي أولاده وفي أحواله بسببها .

فإن المعاصي والذنوب سبب لكل شر ، وإن الأعمال الصالحة والطاعات سبب لكل خير وفلاح دنيوي وأخروي ، فعنه ﷺ أنه قال : « إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه »[١] فالذنوب سبب للفقر ، كما أن التوبة والاستغفار من الذنوب والندم عليها سبب لكثرة المال والأولاد ، وبركة التجارة ، والزرع ؛ لأن الله عز وجل يقول ، كما في سورة نوح عليه

---

(١) صحيح ابن حبان ، رقم (٨٧٢) .

السلام : ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴾ [نوح:١٠-١٢].

فجعل سبحانه الاستغفار وهو التوبة وطلب المغفرة من الله الغفور لعباده سببًا لهطول الأمطار ونزول الغيث ، وهذا هو سبب الرخاء والخصب ، وأعظم أسباب الرزق ، يقول سبحانه : ﴿ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ [الذاريات:٢٢] فالرزق هو المطر ، وما ينشأ عنه ، ويسببه من الخيرات والبركات .

ثم قال سبحانه : ﴿ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ ﴾ فبين أن الاستغفار سبب لكثرة المال ، وسعة الرزق .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَبَنِينَ ﴾ أي : أن الاستغفار وملازمته سبب لحصول الأولاد ، وخص منهم في هذه الآية البنين ، الذين هم الذكور؛ لأنهم في الغالب أحب إلى النفوس من الأولاد الإناث ، كما قال عز وجل عن أهل الجاهلية : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [النحل:٥٨] .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴾ ، فبين أيضا أن الاستغفار سبب لحصول الجنات، وهي البساتين، والمزارع ، والأشجار، وما فيها من الثمار ، وكثرة خيرها ، وبركتها ، وغزارة مياهها ، وكثرة

أنهارها ، وأن الاستغفار ، والتوبة ، والرجوع إلى الله ، والندم على ما سلف من الذنوب ، سبب لهذا كله ، أي سبب لكثرة الأمطار ، وكثرة الأموال ، وسعتها ، وكثرة البنين ، ونمو الأشجار ، والبساتين ، وتنوعها .

فمن فوائد الصلاة : نهيها عن الفحشاء والمنكر ، وباجتناب الفحشاء والمنكر يحصل للمسلم كل خير ، ويندفع عنه كل ضر .

ومن فوائدها : أنها تثبت الإيمان وتنميه في القلوب ، ويظهر ذلك على الأفعال ، فنجد المحافظ على الصلاة محافظًا على أداء الواجبات ، من زكاة ، وصوم ، وحج ، متصفًا بالإحسان ، والتواضع ، وقوة لرغبته في فعل الخيرات ، وتسهيل أداء الطاعات ، وفعل المعروف بسخاء نفس ، واحتساب وطلب للثواب ، وحرص على أداء الفروض والنوافل من أنواع العبادات كلها ، فهي عنوان على الإيمان والصلاح والفلاح ، قال الله عز وجل : ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ [التوبة:١٨]والمراد من عمارتها: عمارتها بالصلاة والطاعات ، وقال النبي ﷺ : « إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان » رواه أحمد والترمذي وحسنه وابن ماجه[١] .

ومن فوائدها : أنها تعين العبد على أداء مصالحه الدنيوية ، فإنها تهون المشاق ، وتبعث على النشاط ، والحزم ، والوفاء بالمواعيد ، والالتزامات ،

(١) مسند أحمد ، رقم (١١٧٤٣) ؛ سنن الترمذي ، رقم (٣٠٩٣) ؛ سنن ابن ماجه ، رقم (٨٠٢).

وتسلى عن المصائب ، ويجازي الله صاحبها بتيسير أموره ، والمباركة في أعماله ، والإغاثة من الله له في كل ما يباشره ويتصل به ، قال الله عز وجل: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة:٤٥] .

ومن أعظم فوائدها : أن مَنْ أكملها وأتقنها فقد حصل له الفوز والفلاح والنجاح ، ففي الترمذي وحسنه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : « إن أول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة من عمله صلاته ، فإن صلحت فقد أفلح وأنجح ، وإن فسدت فقد خاب وخسر ، فإن انتقص من فريضته شيء قال الرب عز وجل : انظروا هل لعبدي من تطوع ليكمل به ما انتقص من الفريضة، ثم تكون سائر أعماله على هذا »(١) .

ومصالح الصلاة الاجتماعية والدينية والبدنية لا تعد ولا تحصى .

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

* * *

(١) سنن الترمذي ، رقم (٤١٣) .

(٩)

صلاة الجماعة ووجوبها وفوائدها

شُرع لهذه الأمة الاجتماعُ للعبادة في أوقات معلومة،فمنها ما هو في اليوم والليلة للصلوات المكتوبات الخمس،ومنها ما هو في الأسبوع وهو صلاة الجمعة،ومنها ما هو في السنة متكررًا وهو صلاة العيدين لجماعة كل بلد ، ومنها ما هو عام في السنة وهو الوقوف بعرفة .

وإنما شرع هذا الاجتماع في تلك العبادات لحكم عظيمة ، وفوائد جمة، ومصالح عامة للمجتمع ، منها التواصل ، والتوادد ، وعدم التقاطع ، وسيأتي بيان شيء من ذلك .

أما وجوب صلاة الجماعة : فدليله قوله عز وجل : ﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ ﴾ [النساء:١٠٢] ، فأمر بالجماعة في حال الخوف ، والقتال ، والمبارزة للأعداء ، ولذلك أمرهم سبحانه أن يأخذوا أسلحتهم وهم في الصلاة ؛ للحذر من عدوهم ، والاستعداد لهم ، مخافة أن يميلوا عليهم ميلة واحدة ، فيدركوا شيئًا من القوة على المسلمين ، فينالوا شيئا من غرضهم ، فنبه المسلمين للاستعداد لهم ؛ حتى في حال الصلاة ، ولم يعذرهم في ترك الجماعة ، ولهذا قال عز وجل : ﴿ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ

حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً ﴾ [النساء:١٠٢] ، ويؤكد دلالتها على الوجوب قوله عز وجل : ﴿ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّاكِعِينَ ﴾ [البقرة:٤٣] .

وروى البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « أثقل صلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر ، ولو يعلمون ما فيهما لأتوها ولو حبوا ، ولقد هممت بالصلاة ، فتقام ، ثم آمر رجلا يصلي بالناس ، ثم أنطلق معي رجال معهم حزم من حطب إلى قوم لا يشهدون الصلاة ، فأحرق عليهم بيوتهم بالنار »(١) .

وروى مسلم أن رجلا أعمى جاء إلى النبي ﷺ قال : « يا رسول الله ليس لي قائد يقودني إلى المسجد ، فسأل النبي ﷺ أن يرخص له ، فيصلي في بيته، فرخص له ، فلما ولى دعاه ، فقال : هل تسمع النداء ، فقال : نعم ، قال: فأجب »(٢) .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه : « لقد رأيتنا ، وما يتخلف عنها إلا منافق معلوم النفاق ، ولقد كان الرجل يؤتى به يهادي بين الرجلين ، حتى يقام في الصف » رواه مسلم وأهل السنن إلا الترمذي(٣) .

---

(١) صحيح البخاري ، رقم (٧٢٢٤) ؛ صحيح مسلم ، رقم (٦٥١) .

(٢) صحيح مسلم ، رقم (٦٥٣) .

(٣) صحيح مسلم ، رقم (٦٥٤) ؛ سنن أبي داود ، رقم (٥٥٠) ؛ سنن النسائي ، رقم (٨٤٩) ، سنن ابن ماجه ، رقم (٧٧٧) .

قال بعض الفقهاء رحمهم الله : ويعضد وجوب الجماعة أن الشارع شرعها حال الخوف على صفة لا تجوز في الأمن ، وأباح الجمع لأجل المطر، وليس ذلك إلا محافظة على الجماعة ، ولو كانت سنة لما جاز ذلك .

ولصلاة الجماعة فوائد :

منها : حصول التنافس في الخيرات ، والتنشيط عليها ، والتنافس في فعل الخير مطلوب مرغب فيه ، يقول الله عز وجل : ﴿ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين:٢٦] .

ومنها : حصول التعلم لأحكامها ، فإن العالم يعلم الجاهل، والجاهل يتعلم من العالم ، تارة بالقول ، وتارة بالفعل ، فإن ما يسمعه من الأذكار التي يأتي بها العلماء ، ويرددونها قبل الصلاة وفيها وبعدها ، يسمعها الجاهل ، ويحفظها ، وكذلك أفعال الصلاة ، وهيئة الركوع ، والسجود ، والطمأنينة ، وغير ذلك ، يقتدي غير العالم بالعالم فيها .

ومنها : حصول التزكية بين المسلمين لبعضهم ، فإنك إذا رأيت الرجل يتردد إلى المسجد ، ولا يغيب ، ولا يتخلف عن الجماعة ، عرفت أنه يهمه أمر دينه ، ويحافظ على أوامر نبيه ، ولا يشغله ما هو فيه من الأعمال عن إجابة المنادي للصلاة ولحضورها ، والذي حمله على هذا خوفه من الله ، ورجاؤه لما عنده ، فتذكرت بفعله هذا قوله عز وجل : ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ

تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴾ [النور:٣٦-٣٧] .

ومن كان كذلك فإنه تحصل له التزكيةُ من المؤمنين ، وشهدوا له بالخير والصلاح والإيمان.

ومن فوائد الجماعة : حصول التعاطف ، والتوادد بين المسلمين ، والتواصل ، وعدم التقاطع .

ومنها : مضاعفة الأجر بصلاة الجماعة ؛ لقوله عليه السلام : « صلاة الجماعة تفضل على صلاة الفذ بخمس وعشرين درجة » رواه البخاري[1] .

ومنها : حصول الأجر ، وتكثير الحسنات ، وتخفيف السيئات ، وذلك بكثرة الخطى إلى المساجد .

ومنها : ما يحصل من العبادات الأخرى بسببها ، كقراءة القرآن، والذكر ، وتعلم الجاهل ، وانتظار الصلاة ، وعمارة المساجد بالطاعة .

فهذه إشارة إلى بعض فوائد صلاة الجماعة ، فيجب علينا جميعًا المحافظة عليها ، رغبة في تكميل هذه العبادة ، التي هي أعظم الواجبات بعد الشهادتين ، وحرصًا على متابعة الرسول ﷺ ، والاهتداء بهديه ، والامتثال لأمره .

---

(١) صحيح البخاري ، رقم (٦٥٦) .

نسأله سبحانه أن يمن علينا جميعا بالعلم النافع ، والعمل الصالح ، إنه ولي ذلك والقادر عليه .

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

❊ ❊ ❊

(١٠)

وصف السابقين من المؤمنين

يقول سبحانه وتعالى : ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [الواقعة:١٠-١٢] .

إن هذا الوصف الذي ورد كثيرًا في القرآن والسنة إنما هو وصف لقوم مَنَّ الله عليهم ، واصطفاهم ، واختارهم لخدمته ، وقربهم إليه .

ولما أراد ابن القيم رحمه الله أن يذكر وصفهم قال رحمه الله :

«وأما السابقون المقربون ، فنستغفر الله الذي لا إله إلا هو أولاً من وصف حالهم ، وعدم الاتصاف به ، بل ما شممنا له رائحة ، ولكن محبة القوم تحمل على تعرف منزلتهم ، والعلم بها ، وإن كانت النفوس متخلفة منقطعة عن اللحاق بهم»[1] .

فإذا كان هذه حالة الإمام ابن القيم وهو يقول : لم نتصف بهم ، ولم نشم لذلك رائحة ، فكيف بنا !! بل نحن ما نساوي قلامة ظفر لابن القيم وأمثاله ، لا في العبادة ، ولا في الزهد ، ولا في العلم ، ولا في حالة من حالاته المرضية رحمه الله رحمة الأبرار ، ولولا رجاؤنا بالله الذي هو أرحم من الوالدة بولدها ، لتقطعت قلوبنا أسفًا وفرقًا وخوفًا : ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين ، ١/ ٢٠٥ .

ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر:٥٣] .

ثم قال رحمه الله : ولكن في معرفة أحوال القوم فوائد :

منها : أن لا يزال المتخلف المسكين مزريا على نفسه ذاما لها .

ومنها : أن لا يزال منكسر القلب بين يدي ربه تعالى ، ذليلا له حقيرا، يشهد منازل السابقين ، وهو في زمرة المنقطعين ، ويشهد بضائع التجار ، وهو في رفقة المحرومين .

ومنها : أنه عساه أن تنهض همته يوما إلى التشبث ، والتعلق بساقة القوم ، ولو من بعيد .

ومنها : أنه لعله أن يصدق في الرغبة ، واللجوء إلى من بيده الخير كله أن يلحقه بالقوم ، ويهيئه لأعمالهم ، فيصادف ساعة إجابة ، لا يسأل الله فيها شيئًا إلا أعطاه .

ومنها : أن هذا العلم هو من أشرف علوم العباد ، وليس بعد علم التوحيد أشرف منه[(١)] .

ثم قال رحمه الله أيضًا : وجملة القول أنهم قوم قد امتلأت قلوبهم من معرفة الله ، وغمرت بمحبته وخشيته وإجلاله ومراقبته ، فسرت المحبة في

(١) طريق الهجرتين وطريق السعادتين ، ١/ ٣١٩ .

أجزائهم ، فلم يبق فيها عرق ولا مفصل إلا وقد دخله الحب ، قد أنساهم حبه ذكر غيره ، وأوحشهم أنسهم به ممن سواه ، قد فنوا بحبه عن حب من سواه ، وبذكره عن ذكر من سواه ، وبخوفه ، ورجائه ، والرغبة إليه ، والرهبة منه ، والتوكل عليه ، والإنابة إليه ، والسكون إليه ، والتذلل والانكسار بين يديه ، عن تعلق ذلك منهم بغيره ، فإذا وضع أحدهم جنبه على مضجعه صعدت أنفاسه إلى إلهه ومولاه ، واجتمع همه عليه متذكرًا صفاته العلى وأسماءه الحسنى ، ومشاهدا له في أسمائه وصفاته ، قد تجلت على قلبه أنوارها ، فانصبغ قلبه بمعرفته ومحبته ، فبات جسمه في فراشه يتجافى عن مضجعه ، وقلبه قد أوى إلى مولاه وحبيبه فآواه إليه ، وأسجده بين يديه ، خاضعًا خاشعًا ذليلا منكسرًا من كل جهة من جهاته ، فيا لها سجدة ما أشرفها من سجدة ، لا يرفع رأسه منها إلى يوم اللقاء[1] .

وقيل لبعض العارفين : أيسجد القلب بين يدي ربه ، قال : إي والله بسجدة لا يرفع رأسه منها إلى يوم القيامة .

فشتان بين قلب يبيت عند ربه ، قد قطع في سفره إليه بيداء الأكوان ، وخرق حجب الطبيعة ، ولم يقف عند رسم ولا سكن إلى علم ، حتى دخل على ربه في داره ، فشاهد عز سلطانه ، وعظمة جلاله ، وعلو شأنه ، وبهاء كماله ، وهو مستو على عرشه ، يدبر أمر عباده ، وتصعد إليه شؤون العباد ،

---

(١)طريق الهجرتين وطريق السعادتين ، ١/ ٣٢٠ .

وتعرض عليه حوائجهم وأعمالهم ، فيأمر فيها بما يشاء ، فينزل الأمر من عنده نافذًا ، فيشاهد الملك الحق قيوما بنفسه ، مقيما لكل ما سواه ، غنيا عن كل من سواه ، وكل من سواه فقير إليه : ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [الرحمن:٢٩] يغفر ذنبا ، ويفرج كربا ، ويفك عانيا ، وينصر ضعيفا، ويجبر كسيرا ، ويغني فقيرا ، ويميت ويحيي ، ويسعد ويشقي ، ويضل ويهدي ، وينعم على قوم ويسلب نعمته عن آخرين ، ويعز أقواما ويذل آخرين ، ويرفع أقواما ويضع آخرين ، ويشهده كما أخبر عنه أعلم الخلق به وأصدقهم في خبره[1] ، حيث يقول في الحديث الصحيح : « يمين الله ملأى لا يغيضها نفقة ، سحاء الليل والنهار » .

وإن من صفاتهم تعلقهم بربهم في كل لحظة من لحظاتهم ، وفي كل حال من أحوالهم ، إن تكلموا تكلموا لله ، وإن سكتوا فسكوتهم تفكرة في مخلوقات الله ، تعلقت قلوبهم بالله ، وبذكره ، وبشكره ، والتعرف على نعمه وإحسانه ، وفضله على عباده ، لا يلتفتون إلى أحد غيره ، نسوا كل شيء في جانب إلههم وفاطرهم ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَـٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران:٢٦-٢٧].

---

(١)طريق الهجرتين وطريق السعادتين ، ١/ ٢٠٧ .

يقول ﷺ في الحديث الصحيح : « إن يمين الله ملأى لا يغيضها نفقة سحاء الليل والنهار » رواه البخاري[(١)] .

فهو سبحانه وتعالى يقسم الأرزاق ، ويجزل العطايا ، ويمن بفضله على من يشاء من عباده ، فتجد المؤمن دوامًا يشهد هذا كله ، ويشهد عدله سبحانه وتعالى ، ولطفه ، ورحمته بعباده ، وحكمته البالغة ، وأنه جل وعلا قيّوم السماوات والأرض ومن فيهن ، يجيب دعوة المضطرين ، ويجبر كسر المنكسرين ، ليس له بواب فيستأذن منه، ولا حاجب فيدخل عليه ، ولا وزير فيقصد ، ولا ظهير فيستعان به ، ولا ولي فيشفع به إليه ، ولا نائب عنه فيعرفه حوائج عباده ، ولا معاون له يعاونه على قضائها ، أحاط سبحانه وتعالى بها علمًا ، ووسعها قدرة ورحمة ، فلا تزيده كثرة الحاجات إلا جودًا وكرمًا ، ولا يشغله عنها شأن عن شأن ، ولا تغلطه كثرة المسائل ، ولا يتبرم بإلحاح الملحين ، لو اجتمع أول خلقه وآخرهم وإنسهم وجنهم وقاموا في صعيد واحد ، ثم سألوه ، فأعطى كل واحد منهم مسألته ، ما نقص ذلك مما عنده ذرة واحدة ، إلا كما ينقص المخيط إذا دخل أو غمس في البحر ، ولو أن أولهم وآخرهم وإنسهم وجنهم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منهم ما زاد ذلك في ملكه شيئًا ، ذلك بأنه الغني الجواد الماجد ، فعطاؤه كلام ، وعذابه كلام ، إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون .

---

(١) صحيح البخاري ، رقم (٧٤١٩) .

ويشهد العبد الحالة التي أخبر بها النبي ﷺ عن ربه تبارك وتعالى حيث يقول ، وهو الصادق المصدق : « إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه ، يُرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار ، وعمل النهار قبل عمل الليل ، حجابه النور ، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه » رواه مسلم[1] »اهـ[2] .

فإذا شهد العبد صفات الكمال وأسماء الجلال ، وعرف ما دلت عليه من المعاني ، امتلأ قلبه محبة وإجلالًا لربه ، وخوفًا وتعظيمًا له ، فحينئذ يكون العبد حركاته وسكناته لله ، إن مشى فلله ، وفي طاعته ، وإن جلس أو نام أو سكت ففي عبادة ربه ، إما في ذكر وتفكر بجلال ربه ، وإما استعدادًا لذلك مما يعينه عليه .

وما توفيقي إلا بالله ، عليه توكلت ، وإليه أنيب . وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

* * *

(١) صحيح مسلم ، رقم (١٧٩) .

(٢) طريق الهجرتين وطريق السعادتين ، ١/ ٣٣٣ .

(١١)

آداب القرآن

قال الله سبحانه وتعالى في حق نبيه : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم:٤].

ولما سئلت عائشة رضي الله عنها عن خلق النبي ﷺ قالت : « كان خلقه القرآن ، أما تقرأ قول الله عز وجل : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ » رواه أحمد وأبو داود[1] . فقد كان ﷺ يأتمر بأوامر القرآن ، وينتهي عن نواهيه ، متمسكًا بما يأمر به من مكارم الأخلاق ، ومحاسن الأمور ؛ لأن القرآن مملوء بذلك ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ﴾ [النحل:٩٠] ، ويقول سبحانه وتعالى : ﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ [الضحى :٩-١١] وقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۝٢٣ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ۝٢٤ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَـٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ

(١) مسند أحمد ، رقم (٢٤٦٠١) ؛ سنن أبي داود ، رقم (١٣٤٢) .

لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء:٢٣-٢٩] إلى آخر الآيات في سورة الإسراء.

فإنه نهي عن قتل الأولاد خوفًا من الفقر ، كما يفعله أهل الجاهلية ، ونهي عن قتل النفس التي حرم الله ، ونهي عن الزنا ، ونهي عن قربان مال اليتيم، الذي لا ناصر له إلا الله ، وأمر بالوفاء بالعهود ، وأمر بوفاء المكاييل والموازين ، ونهي عن أن يتكلم العبد بما لا علم له به ، وأخبر أن الله سبحانه وتعالى سيسأل يوم القيامة المرء عن سمعه ، وبصره ، وفؤاده ، ونهي أن يمشي المرء مختالًا في مشيته ، متكبرًا على الناس .

ثم أخبر سبحانه وتعالى أن جميع ما أمر باجتنابه أنه عند الله سيء ، وأنه مكروه عنده ، فلا يليق بالمؤمن أن يتعاطى ما نهى الله عنه ، وحذر منه ، وأن جميع ما أمر به الله سبحانه وتعالى فتركه وعدم العمل به مكروه عنده ، وسيئة من السيئات .

فعقوق الوالدين ، والإساءة إلى ذوي القربى ، والمساكين ، وأبناء السبيل ، كل ذلك قد نهى الله عنه ، وقد أمر بامتثال ضده، وهو البر بالوالدين ، والإحسان إلى القرابة والمساكين ، وأبناء السبيل.

فهذه آداب القرآن وتعاليمه وأخلاقه ، وأمثالها كثير في القرآن العظيم؛ ولذلك كان القرآن خلقه ﷺ ، فالعمل بهذه الأمور مما أمر الله بها ، والبعد عما نهى الله عنه وحرمها هي أخلاقه ﷺ ؛ ولهذا قال الله في حقه ﷺ : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم:٤].

ويقول جل وعلا حكاية عن لقمان عليه السلام في قوله : ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ﴿١٨﴾ وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ﴾ [لقمان:١٧-١٩] .

فتأمل هذه الآيات الكريمات ، وما فيها من عظات وإرشادات ، تضمنت معاملة العبد مع ربه في أداء عباداته ، والالتزام بها ، وأدائها على وجهها ، ثم التعليمات التي ينبغي أن يسلكها في صدد الرضا عن الله عز وجل في جميع ما يديره ، وما يجريه على العبد مما يكره ، يقابل ذلك بالصبر والرضا بعزيمة صادقة ، وإيمان قوي .

ثم التعليمات المرشدة إلى التواضع ، وعدم ازدراء الآخرين ، والاستخفاف بحقوقهم ، ثم النهي عن التكبر والاختيال والفخر على الناس بنفسه ، وإعجابه بها ، وإظهار المرح والفرح ، والتبجح أمام مجتمعه .

ثم يأتي إلى بيان استعمال الأدب في المجتمع ، حال مشيه ، وذهابه ،

ومجيئه ، ويأمره بخفض الصوت ، وعدم التطاول على الناس بلسانه ، وأفعاله ، فإن جميع ذلك أي جميع هذه المنهيات التي نهى عنها لا تليق بالعاقل ، ولا بمن يؤمن بربه ، ويعلم علم اليقين أنه لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا ، وأن ما يحصل له من ميزات على غيره لا توجب له أن يتكبر على عباد الله ، وأن يحتقرهم ؛ لأن الذي خلقك وفضلك على غيرك هو الله ، وهو قادر على أن يسلب هذه النعمة التي تتكبر على عباد الله بسببها .

فهل هناك أخلاق أرفع من هذه الأخلاق ، والتوجيهات الإلاهية التي يرسمها لنا القرآن الكريم ، ويرشدنا إليها ، والله سبحانه وتعالى يحثنا على تدبرها ، والتفكر والتذكر بما فيها من أخلاق سامية بقوله سبحانه وتعالى : ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [ص:٢٩] .

فخص سبحانه وتعالى أولى الألباب ، أي أهل العقول التي تعي وتعقل عن الله أمره ، فهؤلاء هم الذين ينتفعون بالقرآن الكريم ، وتفهمه وتذكره ، وكل من كان أعقل وأصدق إيمانا وأدق فهمًا يكون انتفاعه بمواعظ القرآن ، وتوجيهاته ، وفهم معانيه أكثر من غيره ، لاسيما إذا أدمن التلاوة ، والتدبر لما يدل عليه ، وأطال الفكر في تفهمه ، واستعان على ذلك بما دَوَّنَه علماء الإسلام في توضيح وبيان مقاصد القرآن ، مما نقل عن النبي ﷺ وعن أصحابه والتابعين لهم بإحسان ، فإن هذا هو العلم الحقيقي النافع،

والموصل إلى أقوم السبل ، وأهدى الطرق الموصلة إلى الله سبحانه وتعالى ، وإلى دار كرامته .

فتدبر القرآن إن رمت الهدى فالعلـم تحت تدبـــر القــرآن[١]

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء:٩] .

وكان من أخلاقه ﷺ حسن العشرة ، لا يتكبر على أحد ، ولا يزدري شيئًا ، قالت عائشة رضي الله عنها : « كان ﷺ أحسن الناس خلقًا ، لم يكن فاحشًا ولا متفحشًا ، ولا صخابا في الأسواق ، ولا يجزئ بالسيئة مثلها ، ولكن يعفو ويصفح»[٢] .

وقال أنس رضي الله عنه : « خدمت النبي ﷺ عشر سنين ، والله ما قال لي أف قط ، ولا قال لشيء : لم فعلت كذا ، وهلا فعلت كذا» رواه البخاري ومسلم[٣] .

يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه : قال رسول الله ﷺ : « لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم ، فإنما أنا عبد ، فقولوا : عبد الله ورسوله » رواه

---

(١) نونية ابن القيم ، ١/ ٤٩ (البحر : الكامل) .

(٢) رواه أحمد في مسنده ، رقم (٢٦٠٣٢) ؛ والترمذي ، رقم (٢٠١٦) .

(٣) صحيح البخاري ، رقم (٦٠٣٨) ؛ صحيح مسلم ، رقم (٢٣٠٩) .

البخاري[(١)] .

يقول أنس ﷺ : « إن كانت الأمة من إماء أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله ﷺ فتنطلق به حيث شاءت »رواه البخاري[(٢)] .

وقال ﷺ : «كان عليه الصلاة والسلام يعود المريض، ويشهد الجنازة، ويأتي دعوة المملوك ، ويركب الحمار ، ولقد رأيته يوما على حمار ، خطامه ليف » رواه الترمذي وابن ماجه والبيهقي في شعب الإيمان[(٣)] .

قال أبو سعيد ﷺ : « كان رسول الله ، أشد حياء من العذراء في خدرها ، وكان إذا كره شيئًا عرفناه في وجهه » رواه البخاري ومسلم[(٤)] ، يقول ﷺ : « إني لأدخل الصلاة ، وأنا أريد إطالتها ، فأسمع بكاء الصبي، فأتجوز مما أعلم من شدة وجد أمه من بكائه » رواه البخاري ومسلم[(٥)] .

وكان عليه الصلاة والسلام حليمًا صبورًا يقول أنس ﷺ : « كنت أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه برد نجراني غليظ الحاشية ، فأدركه أعرابي، فجبذه بردائه جبذة شديدة ، حتى نظرت إلى صفحة عنق رسول الله ﷺ قد أثرت فيها حاشية البرد من شدة جبذته ، ثم قال : يا محمد مر لي من مال الله

(١) صحيح البخاري ، رقم (٣٤٤٥) .
(٢) صحيح البخاري ، رقم (٦٠٧٢) .
(٣) سنن الترمذي ، رقم (١٠١٧) ؛ وابن ماجه ، رقم (٤١٧٨) ؛ شعب الإيمان ، رقم (٨١٩١) .
(٤) صحيح البخاري ، رقم (٦١٠٢) ؛ صحيح مسلم ، رقم (٢٣٢٠) .
(٥) صحيح البخاري ، رقم (٧١٠) ؛ صحيح مسلم ، رقم (٤٧٠) .

الذي عندك ، فالتفت إليه رسول الله ﷺ ، ثم ضحك ، ثم أمر له بعطاء » رواه البخاري ومسلم[١] .

كان ﷺ من تواضعه يمازح الصبيان ، يقول ﷺ مرة لصبي معه نغير يلعب به – وهو طير صغير– فلما فقد منه ، قال له : « يا أبا عمير ما فعل النغير » رواه البخاري ومسلم[٢] .

وقال لرجل طلب منه أن يعطيه ناقة تحمله في سبيل الله : « إنا حاملوك على ولد الناقة ، قال : ما يفعل بي ولد الناقة ، فقال ﷺ : وهل تلد الإبل إلا النوق » رواه أبو داود والترمذي[٣] . يعني هو ولد ناقة ، ولو كان كبيرًا .

أما كرمه وسخاؤه : «فقد جاءه رجل يسأل ، وأعطاه غنمًا بين جبلين» رواه مسلم[٤] .

أما عيشه ﷺ : فكان يأكل ما حضره ، وكان يقول : « اللهم اجعل رزق آل محمد قوتًا » رواه مسلم[٥] .

ويقول أبو هريرة ﷺ : « ما شبع رسول الله ﷺ وأهله ثلاثة أيام تباعًا

---

(١) صحيح البخاري ، رقم (٥٨٠٩) ؛ صحيح مسلم ، رقم (١٠٥٧) .
(٢)صحيح البخاري ، رقم (٦١٢٩) ؛ صحيح مسلم ، رقم (٢١٥٠) .
(٣) أبو داود ، رقم (٤٩٩٨) ؛ الترمذي ، رقم (١٩٩١) .
(٤) صحيح مسلم ، رقم (٢٣١٢) .
(٥) صحيح مسلم ، رقم (١٠٥٥) .

من خبز حنطة ، حتى فارق الدنيا» رواه مسلم[١] ، و«كان يبيت الليالي المتتابعة طاويًا ، وأهله لا يجدون العشاء » رواه الترمذي وابن ماجة[٢] .

«وتوفى ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي في ثلاثين صاعًا من شعير» رواه البخاري[٣] .

« وجاءته فاطمة رضي الله عنها بكسرة خبز ، فقال : ما هذه الكسرة يا فاطمة؟ قالت : قرص خبزته ، فلم تطب نفسي حتى آتيك بهذه الكسرة ، فقال : أما إنه أول طعام دخل في فم أبيك منذ ثلاثة أيام » رواه أحمد والطبراني[٤] .

اللهم صل وسلم على عبدك ورسولك محمد وعلى آله وصحبه .

❊ ❊ ❊

(١) صحيح مسلم ، رقم (٢٩٧٦) .
(٢) سنن الترمذي ، رقم (٢٣٦٠) ؛ سنن ابن ماجه رقم (٣٣٤٧) .
(٣) صحيح البخاري ، رقم (٢٩١٦) .
(٤) المعجم الكبير للطبراني ، رقم (٧٥٠)

(١٢)

العفو والتسامح

يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف:١٩٩].

هذه الآية الكريمة تبين لنا وتوضح أخلاق النبي ﷺ ، وما يأمره ربه به ، من التسامح في معاملة الناس ، والتخفيف عليهم ، وعدم تكليفهم ما يشق عليهم ، كما قال سبحانه وتعالى في وصف عباده المؤمنين : ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾ [الفرقان:٦٣].

فإنه سبحانه وتعالى يأمر نبيه ﷺ بأن يأخذ العفو من أخلاق الناس وأعمالهم من غير تقص في الأمور ، وتجسس عليهم ، كما قال مجاهد : خذ العفو من أخلاق الناس وأعمالهم من غير تجسس .

وقال عروة عن أبيه رضي الله عنهما : خذ ما عفا لك من أخلاقهم .

وقال عبد الله بن الزبير رضي الله عنه : خذ العفو من أخلاق الناس ، والله لآخذنه ما صحبتهم .

وقال سفيان بن عيينة عن أُبي رضي الله عنه : لما أنزل الله عز وجل على نبيه ﷺ : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ قال : « ما هذا يا جبريل؟

قال : إن الله أمرك أن تعفو عمن ظلمك ، وتعطي من حرمك ، وتصل من منعك »[١] .

وقال عقبة بن عامر ﷺ : لقيت رسول الله ﷺ ، فابتدأته ، فأخذت بيده ، فقلت يا رسول الله : أخبرني بفواضل الأعمال ؟ فقال : يا عقبة صل من قطعك ، وأعط من حرمك ، وأعرض عمن ظلمك[٢] .

وروى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قدم عيينة بن حصن بن حذيفة ، فنزل على ابن أخيه الحر بن قيس ، وكان من النفر الذين يدنيهم عمر ، وكان القراء أصحاب مجالس عمر ومشاورته ، كهولا كانوا أو شبابًا ، فقال عيينة لابن أخيه : يا ابن أخي ، لك وجه عند هذا الأمير فاستأذن لي عليه ، قال ابن عباس : فأستأذن الحر لعيينة ، فأذن له عمر ، فلما دخل عليه ، قال : هي يا ابن الخطاب ، فو الله ما تعطينا الجزل ، ولا تحكم بيننا بالعدل ، فغضب عمر ، حتى هم به ، فقال له الحر : يا أمير المؤمنين ، إن الله تعالى قال لنبيه ﷺ : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف:١٩٩]، وإن هذا من الجاهلين ، والله ما جاوزها عمر ، حين تلاها عليه، وكان وقافًا عند كتاب الله[٣] .

---

(١) تفسير الطبري ، جامع البيان ، ١٠/ ٦٤٣ .

(٢) تفسير ابن كثير ، ٣/ ٥٣١ .

(٣) صحيح البخاري ، رقم (٤٦٤٢) .

قال بعض العلماء : الناس رجلان : فرجل محسن ، فخذ ما عفا لك من إحسانه ، ولا تكلفه فوق طاقته ، ولا ما يحرجه ، وأما المسيء فمره بالمعروف ، فإن تمادى على ضلاله ، واستعصى عليك ، واستمر في جهله ، فأعرض عنه ، فلعل ذلك أن يرد كيده .

كما قال تعالى: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنۡ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحۡضُرُونِ﴾ [المؤمنون٩٦-٩٨][1] .

ففي هذه الآيات وما يشابهها يرشد سبحانه وتعالى فيهن إلى معاملة العاصي بالمعروف بالتي هي أحسن ، فإن ذلك يكفيه عما هو فيه من التمرد بإذن الله تعالى.

ثم أرشد سبحانه وتعالى إلى الاستعاذة من شيطان الجان ، فإنه لا يكفه عنك الإحسان ، وإنما يكفه عنك ربك ، إذا استجرت به منه .

والله سبحانه ولي التوفيق . وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٥٣٢ .

(١٣)

وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم

يقول سبحانه وتعالى : ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة:٢١٦] .

علمه سبحانه محيط بكل شيء ، لا تخفى عليه خافية ، يعلم السر وأخفى ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ [الأنعام:٥٩] .

فينبغي للعبد أن يسلّم الأمر إلى ربه العليم الخبير ، ويرضي بقضاء الله وقدره ، ولا ينازع القدر ، وليقل بلسانه وقلبه : قدر الله وما شاء فعل ، أي هذا قدر الله ، وما شاء الله فعله ، ففيم التسخط وأنت لا تعلم العاقبة !! ربما تكون العاقبة لك ، إما في الدنيا ، وإما في الآخرة ، وإما فيهما جميعًا .

وربما كان مكروه النفوس إلى محبوبها سببًا ما مثله سبب[1]

فقد يحصل للعبد المكروه بسبب حصول المحبوب ، وقد يحصل المحبوب بسبب حصول المكروه ، والحقيقة والواقع أنه لا أنفع للعبد من

---

(١) قاله البحتري (من البسيط) نثر الدر ٢/ ٧١ . والبيت فيه «مكروه الأمور» وليس: «مكروه النفوس» .

امتثال أمر الله ، والرضا به ، وإن شق ذلك في الابتداء ؛ لأن عاقبته غالبًا تكون أفراحًا ، وخيرات ، ولذات ، ومسرات ، وإن كرهت النفس ، فهو خير لها ، وأنفع .

ففعل المأمورات من صلاة ، وزكاة ، وحج ، وصبر على الوضوء في شدة البرد ، وعلى الذهاب إلى المساجد في شدة الظلم والرياح ، والصيام في شدة الحر وطول النهار ، لاشك أن عاقبة الصبر على هذه الأشياء خير ونفع وبركة ، ويحصل بها قوة الإيمان وانشراح الصدر .

كما أن محبة المعاصي والإقدام عليها ، وعدم كبح جماح النفس الأمارة بالسوء عنها ، من أضر ما يكون على العبد ، وإن كانت النفس تحب ذلك وتهواه ، وتميل إليه ، وعاقبة ذلك كله آلام ، وأحزان ، وشرور ، ومصائب ، فكم قتل بسبب ذلك ، وكم سجن بسبب تعاطي المسكرات المحرمة .

قال بعض أهل العلم : نظرُ الجاهل لا يجاوز المبادئ إلى غاياتها ، والعاقل الكيس دائمًا ينظر إلى الغايات من وراء ستور مبادئها ، فيرى ما وراء الستور من الغايات المحمودة والمذمومة ، فيرى المناهي كطعام لذيذ قد خلط فيه سم قاتل ، فكلما دعته لذته إلى تناوله نهاه ما فيه من السم ، ويرى الأوامر كدواء كريه المذاق مفض إلى العافية والشفاء ، وكلما نهاه كراهية مذاقه عن تناوله أمره نفعه بالتناول ، ولكن هذا يحتاج إلى فضل علم ، تدرك به الغايات من مبادئها ، وقوة صبر يوطن به نفسه على تحمل

المشاق في هذا السبيل ؛ لما يؤمله عند الغاية ، فإذا فقد اليقين والصبر تعذر عليه ذلك ، وإذا قوى يقينه وصبره هان عليه كل مشقة يتحملها في طلب الخير الدائم واللذة الدائمة(١) .

وكذلك أيضًا الصبر على أقدار الله تعالى ، فإذا قوى إيمان العبد صبر واحتسب ، وقال : رضيت بالله ربًا ومدبرًا ، فإذا بهذه المثابة حصل له ما حصل من خير أو ضده ، وهو مطمأن البال ، هادئ الحال ، إن كان الأمر مكروهًا علم أن الله سيعوضه مما أصابه ، ولم يحزن كثيرًا ، وإن كان الأمر محبوبًا شكر الله ، ولم يفرح فرحًا يخرجه عن حد الاعتدال ؛ لأنه ما يدري ما عاقبة ذلك .

فعلى العبد أن يرضى بقضاء الله وقدره ، حتى تحصل له سعادة الدنيا والآخرة ، والتوفيق بيد الله .

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

* * *

(١) الفوائد لابن القيم ١/ ١٣٧ .

(١٤)

التحذير من المعاصي

قال الله تعالى : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴾ [ص :٢٨] .

إن المعاصي والذنوب من أعظم الأشياء وأشدها شؤمًا على العبد، إن لها آثارًا سيئة ، تحيط بالعبد ، وتجعله ذليلاً مهينًا محتقرًا ، صغير النفس ، وضيع القدر بين أهل المروءات والشيم ورجال الخير والصلاح ، إن لها آثارًا قبيحة مضرة بالقلب والبدن ، هذا في عاجل الدنيا ، سوى مضرتها وعقوبتها في دار الآخرة ، يوم تجزى كل نفس بما كسبت ، إن خيرا فخير ، وإن شرًا فشر.

وقد بين الإمام ابن القيم رحمه الله أن من ضرر الذنوب وعقوبتها في الدنيا حرمان العلم النافع ، الذي به تتنور البصائر ، وتزكو النفوس ، وتصح العقول ، وبفقده يتولى الجهل والخمول ، والتحير في الأمور .

إن العلم نور يقذفه الله في قلب من يشاء من عباده ، وإن المعاصي تطفئ ذلك النور ، ولذلك لما جلس الإمام الشافعي بين يدي الإمام مالك رحمهما الله رحمة واسعة ، وقرأ عليه ، وأعجبه ما رأى من وفور فطنته ، وتوقد ذكائه ، وقوة حفظه ، وكمال فهمه ، قال له : إني أرى الله قد ألقى على

قلبك نورًا ، فلا تطفئه بظلمة المعصية[1] .

ومن شؤم المعاصي ومضرتها أنها من أسباب حرمان الرزق ، كما قال عليه الصلاة والسلام : « إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه » رواه أحمد وابن ماجة والحاكم وصححه . وهذا شيء مشاهد ، فإنه متى عرف التاجر بالغش اجتنبه الناس ، وتركوا معاملته ، وإن كان عاملا ، وعرف بعدم الأمانة ، لم يعامله أحد ، إلا في النادر إذا لم يجدوا غيره .

ومن مضرة المعصية أن صاحبها تجده في الغالب متعسر أمره ، أينما توجه إلى أمر من الأمور ، تجده مغلقًا أمامه ، ومتعسرًا عليه ، وقد أخبر الله عن المتقين أنهم بعكس ذلك ، فأمورهم متيسرة ، وحاجاتهم مقضية ، يقول الله عز وجل : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴾ [الطلاق:٤] ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق:٢-٣] .

قال ابن القيم رحمه الله : ومن عقوبة المعصية أن صاحبها يجد ظلمة في قلبه حقيقة ، يحس بها كما يحس بظلمة الليل البهيم إذا ادلهم ، فتصير ظلمة المعصية لقلبه كالظلمة الحسية لبصره ، فإن الطاعة نور ، والمعصية ظلمة ، وكلما قويت الظلمة ازدادت حيرته حتى يقع في البدع والضلالات ، والأمور المهلكة ، وهو لا يشعر ، كالأعمى خرج في ظلمة الليل يمشي وحده ، وتقوى هذه الظلمة حتى تظهر في العبد ، ثم تقوى حتى تعلو

---

(١) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي ١/ ١٣٢ .

الوجه ، وتصير سوادًا فيه ، يراه كل أحد[١] .

قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما : إن للحسنة ضياء في الوجه ، ونورًا في القلب ، وسعة في الرزق ، وقوة في البدن ، ومحبة في قلوب الخلق ، وإن للسيئة سوادًا في الوجه ، وظلمة في القلب ، ووهنًا في البدن ، ونقصًا في الرزق ، وبغضة في قلوب الخلق .

ومن أضرار الذنوب والمعاصي ما يقع في نفوس العاصين من الوحشة بينهم وبين الناس ، لا سيما أهل الخير والدين منهم ، وهذه الوحشة التي تصحب المذنب ربما كانت من أعظم العقوبات ، فإنها تكون سببًا لابتعاده عن مجالس العلم ، وإذا ابتعد عن مجالس أهل العلم قرب من مجالس أهل الفساد ولا بد ، فيفتحون له أبوابًا وطرقا من الشر أضعاف ما هو عليه ، فيتحكم عليه مرض الشهوات ، ويعسر عليه علاجه ، بل ربما انتهت به الحال حتى لا يحس به ، ويرى أن هذه الحالة هي حالة الأنس والسرور ، وهي في الحقيقة غاية الذلة والوحشة ، فإن صاحب المعاصي في خوف وقلق وذل دائم ، فهو في خوف من أن تنكشف حاله ، ويهتك ستره بين الناس ، وفي قلق في حرصه على تحصيل شهواته فما تنقضي معصية إلا وفكره في قلق للبحث عن مثلها ، وفي قلق خوفا من فواتها ، وفي ذل دائم متذلل لمن يعينه على تحصيل مراده ، أو يكون سببًا في إدراكه له .

---

(١) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي ١/ ٥٤ .

نسأل الله جل وعلا أن يلهمنا رشدنا، وأن يقينا شر الأشرار .

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى وآله وصحبه .

❊ ❊ ❊

(١٥)

حفظ الجوارح عن الآثام

يقول الله عز وجل : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء:٣٦] أي لا تتبع ما ليس لك به علم ، ولم تحط به خبرًا ، بل تحقق وتثبت في كل ما تقوله وتفعله ، فلا تظن أن ذلك يذهب ، لا لك ولا عليك ، بل لا بد من سؤال ومناقشة عن ذلك[١] .

فجدير بالعاقل المؤمن الذي يؤمن بيوم الحساب ويوم الجزاء ، ويعرف أنه مسئول عما قاله وفعله ، وعما استعمل به جوارحه التي خلقها الله لعبادته ، حقيق به أن يعد للسؤال جوابا ، وذلك يحمله على التحري فيما يقول ويفعل وعلى استعمال هذه الجوارح بعبودية لله ، وإخلاص الدين له ، وكفها عما يكرهه الله ، فلا يرخي العنان لنفسه ، فيقول رأيت ولم ير ، ويقول سمعت ولم يسمع ، أو علمت ولم يعلم ، أو يرمي أحدا بما ليس فيه ، أو ينقل خبرا لم يتثبت فيه ، أو لا يعتقد صحته .

ولذلك يروى عن النبي ﷺ أنه قال : « كفى بالمرء إثمًا أن يحدث بكل ما سمع » فكيف بمن يحدث بما لم يسمع ؟[٢] .

---

(١) تفسير السعدي ١/ ٤٥٧ .

(٢) سنن أبي داود رقم (٤٩٩٢) ، وانظر : شرح السنة للبغوي ١/ ٢٤٤ .

فعلى المسلم أن يحافظ على نفسه بأن يحفظ سمعه ، ولسانه عن الغيبة والنميمة ، والكلام المحرم ، وأن يحفظ بصره عن النظر المحرم ، وأن يحفظ فؤاده عن الظن الآثم .

فأما السمع فإن الرسول الكريم ﷺ يقول : « من استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون صب في أذنيه الآنك يوم القيامة» أي الرصاص المذاب . رواه ابن حبان في صحيحه والطبراني في معجمه[(١)] .

وأما اللسان فإن الرسول ﷺ يقول : « وهل يكب الناس في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم » رواه أحمد والترمذي وابن ماجة[(٢)] .

وأما النظر فإن الله جل وعلا يقول : ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ ﴾[النور:٣٠]،﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ ﴾ [النور:٣١].

وأما الظن فإن الله جل ذكره يقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ [الحجرات:١٢] .

وقد جمع الله ذلك في قوله سبحانه : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۚ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ [الإسراء:٣٦] . على أن هذه الحواس التي هي نعمة من نعم الله سبحانه ، قد يستعملها العبد في الشر، فتكون سبب هلاكه ، كما أنه قد يستعملها في الخير ، فتكون سببًا

---

(١) صحيح ابن حبان ، رقم (٦٠٥٧) ؛ المعجم الكبير للطبراني ، رقم (١١٦٣٧) .

(٢) مسند أحمد ، رقم (٢٢٠١٦) ؛ سنن الترمذي ، رقم (٢٦١٦) ؛ سنن ابن ماجه ، رقم (٣٩٧٣) .

لنجاته وفوزه، وذلك كاستعمالها في المصالح الدينية ، كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، أو الدفاع عن دين الله ، أو عن أعراض إخوانه المؤمنين، أو تعلم وإرشاد ، أو تلاوة قرآن وذكر الله ، أو دعوات صالحات له وللمسلمين .

وإن من أخطر آفات اللسان كثرة اللعن والسب والشتم على أتفه الأسباب ، فتجد كثيرًا من الناس لا يتحاشى من لعن كل أحد ، فتارة يشتم صديقه ، وتارة عدوه ، وتارة ابنه ، أو رفيقه ، أو صاحبه ، وأحيانا يأتي بالسب والشتم على وجه المداعبة والممازحة ، وهذا شيء لا يجوز للمؤمن أن يتساهل فيه ، فإن فيه خطرًا عظيمًا .

فقد روى أبو داود عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «إن العبد إذا لعن شيئا صعدت اللعنة إلى السماء ، فتغلق أبواب السماء دونها ، ثم تهبط إلى الأرض ، فتغلق أبوابها دونها ، ثم تأخذ يمينا وشمالا ، فإن لم تجد مساغًا رجعت إلى الذي لعن ، فإن كان أهلاً لها وإلا رجعت إلى قائلها »[1] .

فعلى المؤمن أن يتقي الله تعالى في أفعاله وفي أقواله ، وأن يتجنب الكذب والسباب والمخاصمة والفجور واللعن ، فلا يليق بمسلم أن يكون فاحشًا متفحشًا ، فشر الناس من تركه الناس اتقاء فحشه ، بل ينبغي

---

(١) سنن أبي داود ، رقم (٤٩٠٥) ؛ مسند البزار ، رقم (٤٠٨٤) .

للمؤمن أن يكون هينًا لينًا سهلاً ، كما هو وصفه .

فقد قال عليه الصلاة والسلام : « المؤمن هين لين »[١] .

وقد روى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : « ليس المؤمن بالطعان ولا باللعان » رواه الترمذي والبيهقي في شعب الإيمان[٢] .

وأمر عليه الصلاة والسلام بالرفق وحث عليه ، فقال عليه الصلاة والسلام : « ما كان الرفق في شيء إلا زانه ولا نزع من شيء إلا شانه» رواه أحمد وابن حبان[٣] .

وإن الرفق مأمور به ، ومطلوب في كل الأحوال ، ولكنه مع من له حق عليك ألزم وأوجب،فالرفق واللين وحسن الخلق مع والديك أوجب، ومع أقاربك وأولادك ، وكذلك مع المستضعف والفقير والمسكين ، الذي قد يزدريه كثير من الناس ، ممن قلت فيهم الرحمة ، وغلبت عليهم الغلظة والقسوة ، فإذا جاءك منهم أحد لطلب حاجة ، أو مساعدة ، فينبغي لك أن تسارع إلى فعل ما تستطيعه من مساعدة مادية ، أو مساعدة بجاهك ، وإذا لم تستطع ذلك فلا ينبغي أن تنهره ، أو تعنف عليه ، فالله يقول لنبيه ﷺ : ﴿فَأَمَّا

---

(١) شعب الإيمان للبيهقي ، رقم (٨١٢٧) ؛ مكارم الأخلاق للطبراني ، رقم (١٥) ؛ كنز العمال ، رقم (٦٩٠) .
(٢) سنن الترمذي ، رقم (١٩٧٧) ؛ شعب الإيمان للبيهقي ، رقم (٦٦٧٦) .
(٣) مسند أحمد ، رقم (٢٤٩٣٨) ؛ صحيح ابن حبان ، رقم (٥٥٠) .

ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ [الضحى:٩-١٠] . بل ينبغي منك أن تلين له الكلام ، وتدخل على نفسه السرور ، وتعتذر منه بعذر مقبول ، إذا لم تستطع قضاء حاجته ؛ لأن الله يقول : ﴿ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴾ [الإسراء:٢٨] وقد قيل في هذا المعنى :

إن لا يكن ورق يومًا أجود به للسائلين فإني لين العود

لا يعدم السائلون الخير من خلقي إما نوال وأما حسن مردود

اللهم اهدنا لأحسن الأخلاق ، لا يهدي لأحسنها إلا أنت ، يا رحمن يا رحيم ، يا رب العالمين .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه .

* * *

(١٦)

النهي عن الأيمان الكاذبة

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [آل عمران:٧٧] . أي أن الذين يشترون الدنيا بالدين ، ويتوصلون إليه بالأيمان الكاذبة ، لا يكلمهم الله ، ولا ينظر إليهم يوم القيامة ، ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم .

قيل : نزلت هذه الآية في رجلين اختصما إلى النبي ﷺ في ضيعة ، فهمَّ المدعى عليه أن يحلف ، فأنزل الله هذه الآية الكريمة ، فنكث المدعى عليه عن اليمين ، وأقر للمدعي بحقه ، فحمله إيمانه وخوفه من الله على ترك اليمين ، واجتنابها .

وفي صحيح البخاري ومسلم رحمهما الله وغيرهما أن رسول الله ﷺ قال : « من حلف على يمين وهو فيها فاجر ليقتطع بها مال امرئ مسلم ، لقي الله وهو عليه غضبان »[١] .

فقال الأشعث : فيَّ والله نزلت ، كان بيني وبين رجل من اليهود أرض ، فجحدني فقدمته إلى النبي ﷺ ، فقال : ألك بينة ؟ قلت : لا ، قال

---

(١) صحيح البخاري ، رقم (٢٤١٦) ؛ صحيح مسلم ، رقم (١٣٨) .

لليهودي : احلف ، قلت : يا رسول الله إنه إذا يحلف فيذهب بمالي ، فأنزل الله : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْأَخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [آل عمران:٧٧] .

وقد ورد عنه ﷺ عدة أحاديث في التحذير من الأيمان الكاذبة ، والتخويف منها :

ففي صحيح مسلم عن أبي أمامة رضي الله عنه قال : كنا عند رسول الله ﷺ فقال : «من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار وحرم عليه الجنة ، فقال رجل : وإن كان يسيرًا يا رسول الله ؟ قال : وإن كان قضيبًا من أراك »(١) .

وفي صحيح مسلم أيضًا عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم ، فقرأ بها رسول الله ﷺ ثلاث مرات ، فقال أبو ذر : خابوا وخسروا يا رسول الله من هم؟ قال : المسبل ، والمنان ، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب »(٢) .

وقال ﷺ : «الكبائر : الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وقتل النفس،

---

(١) صحيح مسلم ، رقم (١٣٧) .
(٢) صحيح مسلم ، رقم (١٠٦) .

واليمين الغموس»رواه البخاري[1] ، وقد فسر العلماء رحمهم الله اليمين الغموس بأنها هي التي يتعمد الحالف الكذب فيها ، سميت غموسًا لأنها تغمس الحالف بها في الإثم في الدنيا ، ثم تغمسه في النار يوم القيامة .

فعليك أيها المسلم أن تخاف الله وتخشاه ، ولا تعرض نفسك للعذاب من أجل عرض قليل من الدنيا ، قد يحصل باليمين ، وقد لا يحصل ، فكثيرًا ما يحلف بعض الناس الأيمان الكثيرة المغلظة ، ومع ذلك لا يصدقه المشتري ، ويذهب ويتركه ، ولا يبالي به ؛ لأنه عرف بذلك .

وأيضًا كثرة الأيمان تدل على عدم اتزان الحالف ، وضعف نفسه ومهانتها ، والتشكيك بها ، فإنه لشكه بنفسه يظهر أن الناس لا يقبلون منه ، ثم يعزز ذلك الظن بكثرة الأيمان .

ومما ينبغي اجتنابه وتوقيه الحلف بغير الله ، فإنه محرم مهما كان المحلوف به ، كالحلف بالنبي ، والكعبة ، والملائكة ، والحياة ، والأمانة ، والروح ، والرأس .

فقد جاء في صحيح البخاري وغيره عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : « إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم ، فمن حلف فليحلف بالله أو ليصمت »[2] ، وفي رواية: « فمن كان حالفًا فلا يحلف إلا بالله أو

---

(١) صحيح البخاري ، رقم (٦٦٧٥) .

(٢) صحيح البخاري ، رقم (٦٦٤٦) .

ليسكت»[١] .

وفي صحيح مسلم عن عبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تحلف بالطواغي ولا بآبائكم »[٢] . والطواغي : جمع طاغية، وهي الأصنام كما يفسره الحديث في قوله عليه السلام : « هذه طاغية دوس» أي : صنمهم ومعبودهم .

وروى أبو داود والحاكم وغيرهما عن بريدة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من حلف فقال : إني بريء من الإسلام ، فإن كان كاذبًا فهو كما قال ، وإن كان صادقًا فلن يرجع إلى الإسلام سالما »[٣] .

فالواجب على المسلم أن يوقر الأيمان ، ولا يحلف إلا وهو يصدق، ويتجنب الحلف بغير الله ، فإن الحلف بغير الله أعظم ذنبا من الحلف بالله وإن كان كاذبًا[٤] .

كما إنه ينبغي لمن سبق على لسانه الحلف بغير الله أن يبادر إلى كفارة ذلك ، وكفارته أن يقول : لا اله إلا الله ، فقد جاء عنه ﷺ أنه قال : « من حلف فقال في حلفه باللات والعزى ، فليقل : لا اله إلا الله »[٥] .

---

(١) مسند أحمد ، رقم (٦٢٨٨) .
(٢) صحيح مسلم ، رقم (١٦٤٨) .
(٣) سنن أبي داود ، رقم (٣٢٥٨) ؛ المستدرك ، رقم (٧٨١٨) .
(٤) شرح سنن أبي داود ، ١٧/ ١٩١ .
(٥) صحيح البخاري ، رقم (٦٦٥٠) ؛ سنن ابن ماجه ، رقم (٢٠٩٦) .

نسأله سبحانه وتعالى أن يمن علينا بحفظ الجوارح من المعاصي والآثام ، وأن يمن علينا جميعًا باستعمالها في طاعة الملك العلام .

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه والتابعين .

❊ ❊ ❊

(١٧)

النهي عن التبرج والاختلاط

يقول الله سبحانه: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [الأحزاب:٥٣] .

هذا أمر من الله عز وجل للرجال أن لا يسألوا النساء إلا من وراء حجاب ، ثم بين سبحانه السبب في ذلك ، وهو الحرص على طهارة القلوب، وعدم حصول شيء من الريبة ؛ لأنه متى حصل شيء منها نقصت طهارة القلب ، بحسب ما وقع فيه من الريبة .

وهذه الآية الكريمة تشتمل على هذا الأدب السماوي الذي من عنده سبحانه . ولمن وجه هذا الأدب ؟

إنه موجه من الله إلى خير نساء هذه الأمة ، إلى نساء طاهرات طيبات، اختارهن الله لأفضل البشر ، لسيد العالمين ، وخير المرسلين ، الذي اصطفاه الله وشرفه برسالته ، فاختار له من النساء الكُمَّل ، ثم مع ما وهبهن الله من الصيانة والعفاف والديانة ، قد أدبهن، وأمرهن أن يتصفن بأكمل الصفات، ويبتعدن عن كل ما يكون سببًا في نقص طهارة قلوبهن .

وأمر الرجال في زمنهن ، ومن هم أولئك الرجال ؟

أليسوا صحابة نبيه الكرام، الذين قد رضي الله عنهم في قوله سبحانه:

﴿ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ [الفتح:١٨] ؟ أليسوا هم المهاجرون والأنصار ، الذين اتبعوه في ساعة العسرة؟ أليسوا هم أكمل هذه الأمة إيمانًا ، وعملاً، وعفةً، وصيانةً ؟ أليسوا هم الذين قال فيهم النبي ﷺ : « لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه» رواه البخاري[١] .

فإذا كان من هذه صفاتهن ، ومن هذه صفاتهم ، يؤدبهم رب العالمين بقوله : ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [الأحزاب:٥٣] ، فأمر سبحانه جميع الرجال أن لا يسألوهن متاعا إلا من وراء حجاب ، ثم بين الحكمة في ذلك ، وهي أن تكون قلوب كل من الجنسين في غاية الطهارة من أدناس الريبة بين الجنسين.

والعلة في هذه الآية الكريمة عامة في جميع نساء المسلمين إلى يوم القيامة ، وإن كان لفظها ونزولها خاص بأزواج النبي ﷺ .

ثم بين سبحانه الحكمة في هذا الأدب السماوي وعلته ونتائجه بقوله سبحانه : ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ فدل على أن علة السؤال من وراء حجاب هي المحافظة على طهارة قلوب كل من الجنسين ، غاية الطهارة ، حيث عبر سبحانه بصيغة التفضيل في قوله : ﴿ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ

---

(١) صحيح البخاري ، رقم (٣٦٧٣) .

لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ ، ودل هذا التعليل بطهارة قلوب الجنسين أن حكم الآية عام للنساء المسلمات إلى يوم القيامة ؛ لأن أطهرية قلوبهن وقلوب الرجال من الريبة منهن مطلوبة إجماعًا .

فلا يصح لقائل أن يقول المطلوب طهارة قلوب أزواج النبي ﷺ فقط وطهارة قلوب الرجال في عهدهن من الريبة معهن فقط ، بل ذلك مطلوب في جميع النساء إلى يوم القيامة ، كما هو واضح بين ، على أن العلة المشار إليها بقوله : ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ تقتضي تعميم الحكم السماوي النازل بهذا الأدب الكريم ، المقتضي كمال الصيانة ، والعفاف ، والمحافظة على الأخلاق الكريمة ، والتباعد عن التدنس بالريبة . فسبحان من أنزله ، ما أعلمه بمصالح خلقه ، وما يصلحهم في كل مكان وزمان .

وقد يقول بعض الناس بأن هذه الآية نزلت في أزواج النبي ﷺ فهي خاصة بهن ، ولا تتناول غيرهن ، فيقال : هب أن ذلك صحيح ، ولنفرض صحة ذلك جدلا ، فأيهما أفضل لنساء المسلمين : الاقتداء بأزواج النبي ﷺ اللائي رباهن الله ورسوله تربية عالية ، بلغت القمة في الآداب المرضية ، والأخلاق الشرعية ، من كرامة ، وشرف ، وعفاف ، فالاقتداء بهن ، والتشبه بصفاتهن ، وأخلاقهن أولى وأحق من التشبه بسواهن من النساء ، كنساء الإفرنج اللاتي خلعن جلباب الحياء ، ورداء الصيانة ، وما اتصف به بعضهم من الأخلاق الدنيئة القاضية على الأخلاق والشرف ، وهل ينازع

أحد بأن الاقتداء بزوجاته ﷺ أولى من الاقتداء بسواهن ، وهل الذين ينادون بالاقتداء بنساء الإفرنج وتقليدهن ، ويحبون أن يكون ذلك في المجتمعات الإسلامية دعاة خير وإصلاح ، أم هم دعاة سوء وفجور وانحلال وتفسخ؟! وإنما دعاة الإصلاح والخير هم الذين يقولون لنساء المسلمين : عليكن بالاقتداء بأسلافكن ، والسير على نهجهن ، لا سيما أزواج النبيﷺ الطاهرات المطهرات ، اللاتي بلغن الغاية في العفاف والنزاهة ، والبعد عن الأخلاق الرذيلة .

وصلى الله على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه وسلم .

❊ ❊ ❊

(١٨)

أفضل الأعمال الإيمان بالله

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

« سئل رسول الله ﷺ أي العمل أفضل؟ قال : إيمان بالله ورسوله ، قيل: ثم ماذا؟ قال: الجهاد في سبيل الله، قيل: ثم ماذا؟ قال: حج مبرور»[(١)] .

وقد جاء من حديث جابر رضي الله عنه مرفوعًا تفسير الحج المبرور بأنه ما اشتمل على إطعام الطعام وطيب الكلام[(٢)] . وقد روى البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه »[(٣)] .

قال بعض العلماء رحمهم الله على الحديث الأول : إن هذه الأعمال الثلاثة ترجع في الحقيقة إلى عملين ، أحدهما : الإيمان بالله ورسوله ، وهو التصديق الخاتم بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، كما فسر النبي ﷺ الإيمان بذلك في سؤال جبريل له ، وفي غيره من الأحاديث .

وقد ذكر الله الإيمان بهذه الأصول في مواضع من كتابه ، كقوله تعالى :

---

(١) صحيح البخاري ، رقم (٢٦) ؛ صحيح مسلم ، رقم (٨٣) .
(٢) عمدة القاري شرح صحيح البخاري ١٠/ ١٠٩ .
(٣) صحيح البخاري ، رقم (١٥٢١) ؛ صحيح مسلم ، رقم (١٣٥٠) .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ۝١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ [الصف:١٠-١١] ، وفي قوله سبحانه : ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ [الحجرات:١٥].

وقد صح عن النبي ﷺ من غير وجه أن أفضل الأعمال الإيمان بالله ، والجهاد في سبيل الله ، فالإيمان المجرد يدخل فيه الجوارح عند السلف وأهل الحديث ، والإيمان المقرون بالعمل يراد به التصديق مع القول ، وخصوصًا أن قرن الإيمان بالله بالإيمان برسوله ﷺ كما في الحديث .

فالإيمان القائم بالقلوب أصل كل خير ما أوتيه العبد في الدنيا والآخرة ، وبه يحصل له سعادة الدنيا والآخرة ، والنجاة من الشقاوة في الدنيا والآخرة ، ومتى رسخ الإيمان في القلب انبعثت الجوارح كلها بالأعمال الصالحة ، واللسان بالكلام الطيب ، كما قال النبي ﷺ : « ألا وإن في الجسد مضغة ، إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب » .

ولا صلاح للقلب بدون الإيمان بالله ، وما يدخل في مسماه من معرفة الله، وتوحيده ، وخشيته ، ورجائه ، وإجابته ، والإنابة إليه ، والتوكل عليه.

قال الحسن: ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي ، ولكن ما وقر في

الصدر وصدقته الأعمال[1] ، ويشهد لذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ [الأنفال:٢-٤] .

فإذا ذاق العبد حلاوة الإيمان ، ووجد طعمه وحلاوته ، ظهر ثمرة ذلك على لسانه وجوارحه ، فاستحلى اللسان ذكر الله وما والاه ، وأسرعت الجوارح إلى طاعة الله،فحينئذ يدخل حب الإيمان في القلب،كما يدخل حب الماء البارد الشديد برده في اليوم حره للظمآن الشديد عطشه ، ويصير الخروج من الإيمان أكره إلى القلب من الإلقاء في النار، وأَمَرَّ عليها من الصبر .

ذكر ابن المبارك عن أبي الدرداء رضي الله عنه دخل المدينة فقال لهم : مالي لا أرى عليكم يا أهل المدينة حلاوة الإيمان ، والذي نفسي بيده ، لو أن دب الغابة وجد طعم الإيمان ؛ لرؤي عليه حلاوة الإيمان .

اللهم ارزقنا الإيمان وزينه في قلوبنا ، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان واجعلنا من الراشدين.

وصلى الله وسلم على محمد وآله وصحبه والتابعين .

---

(١) شرح رياض الصالحين ١/ ٩٠٥ .

(١٩)

يسر الدين الإسلامي

روى مسلم في صحيحه عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما : « أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ ، فقال : أرأيت يا رسول الله إذا صليت المكتوبات وصمت رمضان ، وأحللت الحلال ، وحرمت الحرام ، ولم أزد على ذلك شيئًا ،أدخل الجنة ؟ قال : نعم »[1] .

قال النووي رحمه الله : ومعنى حرمت الحرام : اجتنبته ، ومعنى أحللت الحلال : فعلته معتقدًا حله .

هذا الحديث يدل على يسر الإسلام وسهولته ، وأن من قام بالواجبات واجتنب المحرمات دخل الجنة ، وما زاد من فعل الطاعات المسنونات فهي رفع درجات له يوم القيامة .

وقد وردت أحاديث كثيرة في معنى هذا الحديث كما في حديث أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : « ما من عبد يصلي الصلوات الخمس ويصوم رمضان ويخرج الزكاة ويجتنب الكبائر السبع إلا فتحت له أبواب الجنة يدخل من أيها شاء ، ثم تلا قوله تعالى : ﴿ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً

(١) صحيح مسلم ، رقم (١٥) .

كَرِيمًا ﴾ [النساء:٣١] » رواه النسائي وابن خزيمة وابن حبان[١] .

وفي المسند والنسائي عن أبي أيوب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «من عبد الله لا يشرك به شيئًا ، وأقام الصلاة ، وآتى الزكاة ، وصام رمضان، واجتنب الكبائر ، فله الجنة أو دخل الجنة »[٢] .

وفي مسند الإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما أن ضمام بن ثعلبة وفد على النبي ﷺ فذكر له الصلوات الخمس والزكاة والصيام والحج وشرائع الإسلام كلها ، فلما فرغ قال : أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله ، وسأؤدي هذه الفرائض ، وأجتنب ما نهيتني عنه لا أزيد ولا أنقص ، فقال رسول الله ﷺ : « إن صدق دخل الجنة »[٣] .

وفي صحيح البخاري رحمه الله عن أبي أيوب رضي الله عنه أن رجلاً قال : يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ، قال : « تعبد الله لا تشرك به شيئًا ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصل الرحم »[٤] .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه « أن أعرابيًا جاء إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله دلني على عمل إذا عملته دخلت الجنة ، قال :

---

(١) سنن النسائي ، رقم (٢٤٣٨) ؛ صحيح ابن خزيمة ، رقم (٣١٥) ؛ صحيح ابن حبان ، رقم (٨٧٤٨) .

(٢) مسند أحمد ، رقم (٢٣٥٠٦) .

(٣) مسند أحمد ، رقم (٢٢٥٤) .

(٤) صحيح البخاري ، رقم (٥٩٨٣) .

تعبد الله لا تشرك به شيئًا، وتقيم الصلاة المكتوبة، وتؤدي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان ، قال : والذي بعثك بالحق لا أزيد على هذا شيئًا أبدًا ولا أنقص منه ، فلما ولى قال النبي ﷺ : من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا »[١] .

وقد تكاثرت الأحاديث التي تدل على يسر الإسلام وسهولته وأنه ليس فيه مشقة ولا عنت كما قال ﷺ : « بعثت بالشريعة السمحة » .

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى عباده الطائعين وجعلهم ثلاثة أقسام :

قسم ظالم لنفسه وهم الذي خلطوا عملاً صالحًا وآخر سيئًا فهؤلاء مردهم إلى الله إن شاء عذبهم بقدر ذنوبهم ثم مآلهم إلى الجنة وإن شاء غفر لهم إذا سلموا من الشرك الأكبر .

وقسم اقتصدوا في أعمالهم فهم قائمون بالواجبات فقط ، وتركوا المحرمات ، فهؤلاء قد أخبر الرسول عنهم أنهم في الجنة .

وقسم عملوا بالواجبات والمسنونات ، وسابقوا إلى فعل الخيرات ، وتركوا المحرمات ، فهؤلاء هم المقربون عند ربهم ، العالية منازلهم في الجنة.

يقول سبحانه : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ

---

(١) صحيح البخاري ، رقم (١٣٩٧) ؛ صحيح مسلم ، رقم (١٤) .

ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ [فاطر:٣٢-٣٣] .

اللهم وفقنا لمرضاتك ، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

* * *

(٢٠)

فضل العلم

جاء في صحيح البخاري ومسلم في قصة الثلاثة الذين دخلوا مسجد النبي ﷺ وهو جالس في حلقة من أصحابه ، فأعرض أحدهم ، واستحى الآخر فجلس خلفهم ، وجلس الثالث في فرجة في الحلقة ، فقال النبي ﷺ : « أما أحدهم فآوى إلى الله ، فآواه الله ، وأما الآخر فاستحيا ، فاستحيا الله منه ، وأما الآخر فأعرض ، فأعرض الله عنه »[1] .

فهذا الحديث يدل على فضل العلم وطلبه ، وأنه سبب قوي يقرب من الله ، ويباعد من سخطه ، وأي نفع أو فائدة تكون سببًا في كون الله سبحانه يؤويك إليه ، ويقربك منه ، أنفع من العلم الذي يبصرك بطريقك وسيرك إلى ربك ، وسلوك الطريق الموصلة إلى رضوانه والقرب منه ، ولذلك يقول سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ [فاطر:٢٨].

ولقد روى أبو نعيم في الحلية عن كميل بن زياد عن الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه كلامًا قيما في طبقات الناس ، وفضل العلم والعلماء ، وبيان منزلتهم ، والفرق بينهم وبين منزلة من سواهم من أهل الأموال ،

---

(١) صحيح البخاري ، رقم (٤٧٤) ؛ صحيح مسلم ، رقم (٢١٧٦) .

والمقارنة بين العلم والمال ، وبيان الفرق الشاسع بينهما .

قال كميل بن زياد : « أخذ علي بن أبي طالب بيدي فأخرجني إلى ناحية الجبان ، فلما أصحرنا جلس ثم تنفس ثم قال : يا كميل بن زياد القلوب أوعية فخيرها أوعاها ، واحفظ ما أقول لك : الناس ثلاثة : فعالم رباني ، ومتعلم على سبيل نجاة ، وهمج رعاع أتباع كل ناعق ، يميلون مع كل ريح ، لم يستضيئوا بنور العلم ، ولم يلجئوا إلى ركن وثيق .

العلم خير من المال ، العلم يحرسك ، وأنت تحرس المال ، العلم يزكو على العمل ، والمال تنقصه النفقة ، ومحبة العالم دين يدان بها ، العلم يكسب العالم الطاعة في حياته ، وجميل الأحدوثة بعد موته ، وصنيعة المال تزول بزواله .

مات خزان الأموال وهم أحياء ، والعلماء باقون ما بقي الدهر ، أعيانهم مفقودة ، وأمثالهم في القلوب موجودة ، هاه إن ههنا – وأشار بيده إلى صدره – علما لو أصبت له حملة ، بلى أصبته لقنا غير مأمون عليه ، يستعمل آلة الدين للدنيا ، يستظهر بحجج الله على كتابه ، وبنعمه على عباده ، أو منقادا لأهل الحق لا بصيرة له في إحيائه ، يقتدح الشك في قلبه ، بأول عارض من شبهة، لا ذا ولا ذاك ، أو منهوم باللذات ، سلس القياد للشهوات ، أو مغرى بجمع الأموال والادخار ، وليسا من دعاة الدين ، أقرب شبها بهما الأنعام السائمة ، كذلك يموت العلم بموت حامليه ،

اللهم بلى لا تخلو الأرض من قائم لله بحجة ، لئلا تبطل حجج الله وبيناته ، أولئك هم الأقلون عددا، الأعظمون عند الله قدرًا ، بهم يدفع الله عن حججه ، حتى يؤدوها إلى نظرائهم ، ويزرعوها في قلوب أشباههم ، هجم بهم العلم على حقيقة الأمر فاستلانوا ما استوعر منه المترفون ، وأنسوا مما استوحش منه الجاهلون ، صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالمنظر الأعلى ، أولئك خلفاء الله في بلاده ، ودعاته إلى دينه . هاه هاه شوقا إلى رؤيتهم ، وأستغفر الله لي ولك ، إذا شئت فقم ». انتهى كلام الإمام علي رضي الله عنه[(١)] .

وقال أبو بكر الخطيب على هذا الحديث : هذا حديث من أحسن الأحاديث معنى وأشرفها لفظًا ، وتقسيم أمير المؤمنين للناس في أوله تقسيم في غاية الصحة ونهاية السداد ؛ لأن الإنسان لا يخلو من أحد الأقسام التي ذكرها مع كمال العقل ، وإزاحة العلل ، إما أن يكون عالمًا ، أو متعلمًا ، أو مغفلاً للعلم وطلبه ليس بعالم ولا طالب له .

فالعالم الرباني هو الذي لا زيادة على فضله لفاضل ، ولا منزلة فوق منزلته لمجتهد ، وقد دخل في الوصف له بأنه رباني ، وصفه بالصفات التي يقتضيها العلم لأهله ، ويمنع وصفه بما خالفها ، ومعنى الرباني في اللغة : الرفيع الدرجة في العلم ، العالي المنزلة فيه ، وعلى ذلك حملوا قوله تعالى :

---

(١) حلية الأولياء ١/ ٧٩ .

﴿ لَوْلَا يَنْهَاهُمُ ٱلرَّبَّانِيُّونَ ﴾ [المائدة:٦٣] منسوبون إلى الرب ، وأن الألف والنون زيدتا للمبالغة في النسب ، كما تقول : لحياني وجبهاني ؛ إذا كان عظيم اللحية والجبهة، وقول أمير المؤمنين : ومتعلم على سبيل نجاة ، أي : الطالب الذي يقصد ويريد بتعلمه فجاءته من التفريط في تضييع الفروض الواجبة عليه ، والرغبة بنفسه عن إهمالها واطراحها ، والأنفة عن مجانسة البهائم ، وقد نفى بعض المتقدمين اسم الناس عن من لم يكن من أهل العلم، ثم ذكر القسم الثالث ، وهم المهملون لأنفسهم ، الراضون بالمنزلة الدنية ، والحال الخسيسة التي هي في الحضيض الأسقط ، والهبوط الأسفل، التي لا منزلة بعدها في الجهل ، ولا دونها في السقوط ، وما أحسن ما شبههم بالهمج الرعاع ، وبه يشبه دناة الناس وأراذلهم ، والرعاع المتبدد المتفرق وللناعق الضائع ، وهو في هذا الموضع الراعي يقال: نعق الراعي بالغنم ينعق إذا صاح بها ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ١٧١] .

قال ابن القيم رحمه الله في شرح هذا الحديث : قوله رضي الله عنه: القلوب أوعية ، يشبه القلب بالوعاء ، والإناء والوادي ؛ لأنه وعاء للخير والشر [١] .

---

(١) مفتاح دار السعادة لابن القيم ، ١/ ١٢٤ .

وفي بعض الآثار : إن لله في أرضه آنية وهي القلوب ، فخيرها أرقها ، وأصلبها ، وأصفاها، فهي أواني مملوءة من الخير وأواني مملوءة من الشر.

كما قال بعض السلف : قلوب الأبرار تغلي بالبر ، وقلوب الفجار تغلي بالفجور .

وفي مثل هذا قيل في المثل : كل إناء بالذي فيه ينضح .

وقد قال تعالى : ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا ﴾ [الرعد: ١٧].

شبه العلم بالماء النازل من السماء ، والقلوب في سعتها وضيقها بالأودية ، فقلب كبير واسع يسع علمًا كثيرًا ، كواد كبير واسع يسع ماء كثيرًا ، وقلب صغير ضيق يسع علمًا قليلاً كواد صغير ضيق يسع ماء قليلاً ، ولهذا قال النبي ﷺ : « لا تسموا العنب الكرم ، فإن الكرم الرجل المسلم» رواه مسلم . فإنهم يسمون شجر العنب الكرم ؛ لكثرة منافعه ، والكرم كثير الخير والمنافع ، فأخبرهم أن قلب المؤمن أولى بهذه التسمية ؛ لكثرة ما فيه من الخير والمنافع[1] .

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه .

* * *

---

(١) مفتاح دار السعادة ١/ ١٢٤ .

(٢١)

الاحتراز من الشيطان ووساوسه

إن الشيطان أحرص ما يكون على المسلم في إفساد عقيدته ومعاملته مع ربه ، وفي تشتيت ذهنه ، وتفرق أفكاره ، حتى لا يتجه إلى شيء معين ينفعه في أمور دينه أو دنياه ، يحاول إفساد حاله مع أهله ، وولده ، وجاره ، وصديقه، وكل من له به صله ، يريد بذلك أن يملأ صدره همومًا ، وأفكارًا، تحول بينه وبين تفرغه لعبادة ربه ، والإحسان إلى من تحت يده ، ومن له حق عليه .

والله سبحانه يحذرنا منه ، ويخبرنا عنه أنه لنا عدو ، يحرص على إغوائنا ، وإضلالنا ، يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [فاطر:٦].

ولكن قد جعل الله لنا ملجئا وملاذا ومعاذا نعوذ ونلوذ به من شر الشيطان ، وذلك بالاستعاذة بالله منه ، فقد قال سبحانه : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[الأعراف:٢٠٠]، والله سميع يسمع دعاءنا ، ويستجيب لنا ، ومعنى سمع في هذا استجاب كما في قوله ﷺ «سمع الله لمن حمده» أي : استجاب الله لمن حمد .

قال ابن القيم رحمه الله على قوله : ﴿ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ وفي قوله تعالى

في سورة الأعراف : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ ففي سورة الأعراف غير مؤكد بالضمير ، وفي سورة فصلت أكد بالضمير في قوله : ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ .

قال رحمه الله : وتأمل سر القرآن كيف أكد الوصف بالسميع العليم بالألف واللام في سورة حم السجدة ، وبذكر صيغة هو الدال على تأكيد النسبة ، واختصاصها ؛ لاقتضاء المقام لهذا التأكيد . وتركه في سورة الأعراف ؛ لاستغناء المقام عنه ، فإن الأمر بالاستعاذة في سورة حم وقع بعد الأمر بأشق الأشياء على النفس ، وهو مقابلة إساءة المسيء بالإحسان إليه ، وهذا أمر لا يقدر عليه إلا الصابرون ، ولا يلقاه إلا ذو حظ عظيم ، كما أخبر الله سبحانه ، والشيطان لا يدع العبد يفعل هذا ، بل يريه أن هذا ذل وعجز ، ويسلط عليه عدوه ، فيدعوه إلى الانتقام ، ويزينه له ، فإن عجز عنه دعاه إلى الإعراض عنه ، وإنه لا يسيء إليه ، ولا يحسن ، فلا يؤثر الإحسان إلى المسيء إلا لمن خالف الشيطان ، وآثر الله وما عنده على حظه العاجل ، فكان المقام مقام تأكيد وتحريض ، فقال سبحانه في ذلك : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [فصلت:٣٦] وأما في سورة الأعراف فإنه أمره بالإعراض عن الجاهلين ، وليس فيها الأمر بمقابلة إساءتهم بالإحسان ، بل بالإعراض ، وهذا سهل على النفوس ، غير مستعص عليها ، فليس حرص الشيطان وسعيه في دفع هذا

كحرصه على دفع المقابلة بالإحسان ، فقال سبحانه : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[الأعراف:٢٠٠] » اهـ[١] .

فانظر إلى هذا الفرق الدقيق من كلامه رحمه الله في هذا الباب ، وقد جاء عن رسول الهدى ﷺ الأمر بالاستعاذة من الشيطان الرجيم ، فقد ورد في صحيح البخاري رحمه الله عن عدي بن ثابت عن سليمان بن صرد قال : « كنت جالسًا مع النبي ﷺ ورجلان يستبان ، فأحدهما قد احمر وجهه وانتفخت أوداجه ، فقال النبي ﷺ : إني لأعلم كلمة لو قالها ذهب عنه ما يجد ، لو قال : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ؛ ذهب عنه ما يجد »[٢] .

ولما خلق الله آدم عليه السلام ، وشرفه ، وفضله ، وأظهر فضله بين ملائكته ، وتبين لهم حكمة الله البالغة في خلقه له ، وعلمه سبحانه بعواقب الأمور ، وقالوا : ﴿ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[البقرة:٣٢] وأمرهم بالسجود له ، فبادروا إلى امتثال أمر الله ، وسجدوا لآدم طاعة وامتثالًا لأمر ربهم ، وأبى إبليس عن السجود ؛ لكبره وتيهه وتكبره على آدم ، وزعمه أنه أفضل منه مبدأ ومنشأ وأصلا ومحتدًا ، فقال لعنه الله: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ [الأعراف:١٢] ، والله سبحانه أخبر أن امتناعه بسبب كبره وكفره، قال سبحانه وتعالى:

---

(١) بدائع الفوائد ٢/ ٢٦٧ .

(٢) صحيح البخاري ، رقم (٣٢٨٢) .

﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٣٤] فلعنه الله، وطرده عن رحمته ، وأغواه .

ثم إن اللعين طلب من الله أن يبقيه ، ويُنْظره إلى يوم يبعثون ، فأعطاه الله ذلك ؛ ليمتحن به عباده ، فمن أطاعه واتبعه كان من الغاوين الكافرين مثله ، ومن عصاه وأطاع ربه كان من المؤمنين الطائعين ، مع أبيه آدم في جنة الخلد .

فلما رأى إبليس أن عداوته تبينت ، واتضحت لآدم وذريته ، وأن كفره وهلاكه كان بسبب امتناعه عن السجود لآدم ، وأن الله غضب عليه وأغواه من أجله ، عند ذلك أضمر الحقد العظيم لذرية آدم ، وطلب الإنظار ليغويهم ، فلذلك قال : ﴿ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ١٦ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف:١٦-١٧] .

قال ابن كثير رحمه الله : يخبر تعالى أنه لما أنظر إبليس إلى يوم يبعثون ، واستوثق إبليس من ذلك ، أخذ في المعاندة والتمرد ، فقال : ﴿ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ أي : كما أغويتني .

قال ابن عباس : كما أضللتني ، وقال غيره : كما أهلكتني لأقعدن لعبادك الذين تخلفهم من ذرية آدم ، الذي أبعدتني بسببه عن صراطك المستقيم ، أي : طريق الحق وسبيل النجاة ، ولأضلنهم عنها ، لئلا يعبدوك،

ولا يوحدوك بسبب إضلالك إياي[١] .

وفي مسند الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ قال : « إن الشيطان قعد لابن آدم بطرقه ، فقعد له بطريق الإسلام ، فقال : أتسلم وتذر دينك ودين آبائك ؟ قال : فعصاه ، وأسلم ، قال : وقعد له بطريق الهجرة ، فقال : أتهاجر وتدع أرضك وسماءك ، وإنما مثل المهاجر كالفرس في الطول ؟ فعصاه ، وهاجر ، ثم قعد له بطريق الجهاد ، فقال له : هو جهاد النفس والمال ، فتقاتل ، فتقتل ، فتنكح المرأة ، ويقسم المال ؟ قال : فعصاه ، فجاهد فقال رسول الله ﷺ : فمن فعل ذلك منهم فمات ، كان حقا على الله أن يدخله الجنة ، أو قتل كان حقا على الله عز وجل أن يدخله الجنة ، وإن غرق كان حقا على الله أن يدخله الجنة ، أو وقصته دابته ، كان حقا على الله أن يدخله الجنة »[٢] .

وقوله: ﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ أي : أشككهم في الآخرة ، ومن خلفهم أرغبهم في الدنيا ، ﴿وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ أشبه عليهم أمر دينهم ، ﴿وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾ أشهي لهم المعاصي ، فالشيطان يحرص على تشكيك الناس في دينهم ، فيوسوس لهم ، ويشككهم ، ويرغبهم في الدنيا ، ويحسن لهم الذنوب والمعاصي ، يحاول إخراجهم من دينهم ما استطاع ، فإن عجز

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٣٩٣-٣٩٤

(٢) مسند أحمد ، رقم (١٥٩٥٨) .

حاول منهم كثرة الذنوب والمعاصي ، فليحذر المؤمن من الشيطان ووساوسه .

اللهم لا تجعل للشيطان علينا سبيلا يا حيّ يا قيّوم . وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

❊ ❊ ❊

(٢٢)

فضيلة شهر الله المحرم

روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أفضل الصيام بعد رمضان شهر الله المحرم ، وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل »[١] .

في هذا الحديث الشريف دليل على فضيلة هذا الشهر المبارك ، الذي هو شهر الله المحرم ، وفضيلة صومه ، وقد جاء في فضيلة صومه عدة أحاديث ، لا سيما صوم اليوم العاشر منه ، فقد روى مسلم في صحيحه أن النبي ﷺ سئل عن صوم يوم عاشوراء ، فقال : « يكفر السنة الماضية »[٢] .

وقد كان صيامه واجبًا ، فلما فرض الله صيام شهر رمضان ؛ نسخ وجوب صيام عاشوراء ، ولكن بقي استحباب صومه .

جاء في صحيح مسلم أنه لما أمر ﷺ بصيامه ، قالوا : يا رسول الله ؛ إن اليهود تعظمه والنصارى ، فقال ﷺ : « إذا كان العام المقبل إن شاء الله صمنا اليوم التاسع » قال: فلم يأت العام المقبل، حتى توفي رسول الله ﷺ[٣] .

---

(١) صحيح مسلم ، رقم (١١٦٣) .

(٢) صحيح مسلم ، رقم (١١٦٢) .

(٣) صحيح مسلم ، رقم (١١٣٤) .

وفي رواية : « صوموا التاسع والعاشر وخالفوا اليهود »[(١)] .

فينبغي لمن أراد أن يصوم يوم عاشوراء أن يصوم اليوم الذي قبله ، وقد استحبه أكثر أهل العلم .

وشهر محرم ورد فيه فضيلة الصيام كما تقدم بيانه بالأحاديث السابقة، وأما اتخاذ هذا الشهر موسمًا كما يفعله بعض الجهال ، أو مأتمًا كما يفعله بعض فرق الشيعة ، فهو عمل مخالف للسنة ، غير ثابت بالشريعة الحقة ، وقد ذكر بعض العلماء أن سائر الأحاديث في فضله غير الصوم ؛ كلها موضوع ، ومفترى ، وبذلك صرح الحافظ ابن القيم رحمه الله .

وما حكي من أحاديث التوسعة على العيال والأهل في هذا الشهر خاصة ؛ قد أنكره شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ، وقال : لم يرد فيه شيء صحيح .

فعلى المسلم أن يتحر لدينه ، وأن يحرص غاية الحرص على أن تكون أفعاله موافقة لهدي المصطفى ﷺ ، امتثالاً لقوله تعالى : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ﴾ [الحشر:٧] ، ولقوله سبحانه : ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور:٦٣]، فإذا كان المسلم إنما يعمل العمل لله ، ابتغاء لمرضاته ، وطلبًا لمثوبته ، ورجاء

(١) سنن الترمذي ، رقم (٧٥٥) ؛ السنن الكبرى للبيهقي ، رقم (٨٤٠٤) ؛ مصنف عبد الرزاق، رقم (٧٨٣٩) .

لما عنده ، فليعلم أن هذا كله لا يحصل ، إلا إذا كان العمل مما يرضيه سبحانه ، والعمل الذي يرضيه هو ما أمر به وشرعه لنا ، ولا نعرف ذلك إلا من طريق صاحب الرسالة محمد ﷺ ، ولا دخل للاستحسان في العبادات ، والطاعات ، بل مبناها على الأمر من الله ورسوله ﷺ ، وما لم يكن فيه أمر منه سبحانه ، ولا من رسوله فهو من جملة البدع ، من جملة ما نهينا عنه ؛ لأن الرسول ﷺ يقول : « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»[1] أي مردود على صاحبه ، غير مقبول ، فإذا عمل إنسان بعبادة لم يشرعها الله ، ولا رسوله ﷺ ، بل استحسنها ، وظن أنها قربة ، أو زينها له بعض الجهلة الذين لم يستضيئوا بنور الوحيين ، بل حكموا عقولهم ، واستحسنوا بآرائهم ، فيخشى على من اتصف بهذا الوصف ، أن يدخل في عموم قوله سبحانه : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ [الكهف:١٠٣-١٠٤] .

ولقد بين الإمام ابن القيم رحمه الله : العبادة ، وأساسها ، ومعناها ، بقوله :

وعبادة الرحمن غاية حبه   مع ذل عابده هما قطبان

وعليهما فلك العبادة دائر   ما دار حتى دارت القطبان

(١) صحيح مسلم ، رقم (١٧١٨) ؛ مسند أحمد ، رقم (٢٥٤٧٢) .

ومداره بالأمر أمر رســــوله   لا بالهوى والنفس والشيطان[(١)]

اللهم وفقنا للاتباع ، وجنبنا الابتداع ، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

❊ ❊ ❊

(١) من نونية ابن القيم (بحر الكامل) ١/ ٣٥ .

(٢٣)

العاقبة للمتقين

لما كان ﷺ في مكة أول ما نزل عليه الوحي من السماء ، وقام يدعو قومه للصراط المستقيم ، آمن به من آمن ، ولم يؤمن به أكثرهم ، ولم يكتفوا بعدم الإيمان ويتركوه وشأنه ، لكن نصبوا له العداوة وجاهروه بها ، وعملوا ما عملوا من الأذية له ، وحاولوا قتله أو إخراجه من مكة ، أو سجنه السجن المؤبد .

أما الألقاب فيالك ولها ، قالوا : إنه ساحر ، مجنون ، صابئ ، كاهن، يعلمه بشر ، ليس نبي ، كاذب ... إلى غير ذلك من الألقاب التي هو أبعد الناس عنها .

أما المؤمنون به فهم يلاقون أشد العذاب ، وأنواع السخرية ، والاستهزاء ، والضرب ، والطرد ... إلى غير ذلك .

ولكن سرعان ما انقشع الظلام ، وتبدد الشرك ، وعم النور ، ورسخ التوحيد ، فلما خرج رسول الله ﷺ مهاجرًا ، وابتعد عن حصن العدو ، ودخل في ميدان النصر ، فتفرقت أيدي سراياه ، وحالفه النصر المبين ، فطار ذكره في الآفاق ، فصار الناس معه ثلاثة أقسام : مؤمن به ، ومسالم له ، وخائف منه ، فجنى ثمار صبره الذي وعده ربه ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ

مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف:٣٥] .

فدخل مكة بعد قليل من الزمن دخولا ما دخله أحد قبله ولا بعده ، حوله المهاجرون والأنصار ، والملائكة فوق رؤوسهم ، وجبريل يتردد بينه وبين ربه ، وقد أباح له حرمة البيت ، الذي لم يحله لأحد سواه ، فلما قايس ﷺ بين هذا اليوم وبين يوم خروجه من مكة إلى المدينة ، متخفيًا ثاني اثنين ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ [الأنفال:٣٠].

عندما يذكر ذلك ورأى حالته هذا اليوم دخل مكة ، وذقنه ﷺ تمس قربوس سرجه ، مطئطئًا رأسه ، خضوعًا وذلاً لمن بيده النصر ، ولمن ألبسه ثوب العز والظفر ، هذا اليوم الذي رفعت إليه فيه الخليقة رؤوسها ، ومدت إليه الملوك أعناقها ، فدخل فيها مالكًا مؤيدا منصورا ، وعلا كعب بلال فوق الكعبة ، ينادي بالتوحيد ، بعد أن كان يجر في الرمضاء على مثل الجمر ؛ ليرجع عن دينه ، وهو يقول : أحد أحد ، فرفع صوته بالأذان ، ورفع الله ذكره بين الأنام ، فدخل الناس في دين الله أفواجًا ، وكان قبل ذلك يأتون أفرادا ، فخضعت الرؤساء والملوك لرسول الهدى .

فمنهم من سلم له مفاتيح البلاد . ومنهم من سأله الموادعة والصلح.

ومنهم من أخذ في الجمع والتأهب للحرب ، ولم يدر أنه إنما يجمع لرسول الله ولأصحابه الغنائم ويقدمها لهم .

ومنهم من أقر بالجزية والصغار[1] .

فلما تكامل نصره ، وبلغ رسالة ربه ، وأدى الأمانة ، ونصح الأمة ، وأنزل عليه سبحانه ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾ [الفتح:١-٣] ، ولما نزل قوله تعالى : ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴾ [النصر:١-٣]فخيره ربه بين الدنيا والآخرة، فاختار لقاء ربه ، فتزينت الجنان لقدومه ، وفرحت السماء بقدوم روحه .

فاعلم أيها المؤمن عاقبة الصبر ، وأن من كان مع الله كان الله معه ، وهذا رسول الهدى قدوتك ، فإن اقتديت به حصل لك من الهدى والنصر بمقدار تأسيك به ، واقتدائك بهديه .

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه .

* * *

---

(١) الفوائد لابن القيم ١/ ٦٢ .

(٢٤)

المعروف والإحسان صدقة

جاء في حديث أبي ذر ﷺ الذي رواه الإمام مسلم : أن فقراء الصحابة رضي الله عنهم أتوا النبي ﷺ ، وقالوا : يا رسول الله ، ذهب أهل الدثور -أي الأموال- بالأجور ، فهم يصلون كما نصلي ، ويصومون كما نصوم ، ولكنهم يتصدقون ، وليس عندنا ما نتصدق به مثلهم ، فلما قالوا ذلك للنبي ﷺ قال لهم : « أو ليس قد جعل الله ما تصدقون به ! إن بكل تسبيحة صدقة ، وكل تهليلة صدقة ، وكل تحميدة صدقة ، ونهي عن منكر صدقة ، وأمر بالمعروف صدقة ، وفي بضع أحدكم صدقة »[1] ، أي أنه يثاب المسلم على كل شيء يفعله ، ويسمى صدقة ، حتى إذا أتى أهله ، وقضى شهوته يكون له بذلك أجر إذا قصد بذلك إعفاف نفسه وزوجته ، وسلم بسبب ذلك من الحرام .

فهذا الحديث يدل على أن كل فعل من أنواع المعروف والإحسان فهو داخل في مسمى الصدقة .

والصدقة تطلق على كل أنواع الإحسان والمعروف ، ويدخل في ذلك فضل الله سبحانه وتعالى على عبده ، فإنه صدقة منه على عبده ، وقد سماه

---

(١) صحيح مسلم ، رقم (١٠٠٦) .

ﷺ صدقة ، كما قال عليه الصلاة والسلام في قصر الصلاة في السفر : «صدقة تصدق الله بها عليكم ، فاقبلوا صدقته » رواه مسلم[١] .

وقد عد النبي ﷺ ذلك من الصدقة ، كما في الحديث الذي رواه مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تحقرن من المعروف شيئًا ، ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق»[٢] .

وقال ﷺ كما في حديث النسائي عن عائشة رضي الله عنها : « من كانت له صلاة بليل فغلب عليه نوم ، فنام عنها ، كتب الله له أجر صلاته ، وكان نومه صدقة من الله تصدق بها عليه »[٣] .

وقد جاء عنه ﷺ أنه قال : يصبح على كل سلامى من أحدكم صدقة ، فذكر منها الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وإماطة الأذى عن الطريق، وإعانة صاحب الدابة على دابته صدقة ، فسماها ﷺ صدقة[٤] .

فالصدقة ليست خاصة بصدقة المال ، بل قد تكون الصدقة بغير المال أفضل من الصدقة بالمال ؛ وذلك كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فإن كثيرًا من الناس يهون عليهم بذل شيء من ماله ، ولكن يعجز عن الأمر

---

(١) صحيح مسلم ، رقم (٦٨٦) .
(٢) صحيح مسلم ، رقم (٢٦٢٦) .
(٣) سنن النسائي ، رقم (١٧٨٤) .
(٤) سنن أبي داود ، رقم (١٢٨٧) .

بالمعروف والنهي عن المنكر ؛ لأنه يلاقي من الناس ما يلاقي من المعارضة ، والكراهية له ، فلا يصبر على ذلك ، إلا من قوي إيمانه ، ولذلك جاء في الحديث : « أفضل الجهاد كلمة حق عند إمام جائر »رواه أحمد وأبو داود وابن ماجة[1] .

وكذلك أيضًا الصبر على تعليم العلم النافع ، وإقراء القرآن ، وإزالة ما يؤذي المسلمين عنهم ، من كل ما نفعه يتعدى للمسلمين ، ولا يكون مقصورًا على صاحبه ، كالتسبيح ، والتهليل ، والصلاة . فالنفع العام أفضل من النفع الخاص ؛ ولهذا جاء في الحديث الذي رواه الطبراني بسند فيه ضعف عن سمرة بن جندب عن النبي ﷺ قال : « أفضل الصدقة صدقة اللسان ، قيل : وما صدقة اللسان ؟ قال : الشفاعة تفك بها الأسير ، وتحقن بها الدم ، وتجر بها المعروف والإحسان إلى أخيك ، وتدفع عنه الكريهة»[2] . وقد قال سبحانه : ﴿قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى ﴾ .

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

* * *

(١) مسند أحمد ، رقم (١١١٤٣) ؛ سنن أبي داود ، رقم (٤٣٤٤) ؛ سنن ابن ماجه ، رقم (٤٠١١).
(٢) المعجم الكبير للطبراني ، رقم (٢٩٦٢) .

(٢٥)

حسن الخلق

أخرج مسلم في صحيحه عن النواس بن سمعان ﷺ قال : سألت رسول الله ﷺ عن البر والإثم ، فقال : « البر حسن الخلق ، والإثم ما حاك في صدرك ، وكرهت أن يطلع عليه الناس »[١] .

وفي الصحيحين أن النبي ﷺ قال : « إن من خياركم أحسنكم أخلاقًا»[٢] .

وأخرج الترمذي عن أبي الدرداء ﷺ أن النبي ﷺ قال : «ما شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن ، وإن الله يبغض الفاحش البذيء »[٣] . وفي رواية : « وإن صاحب الخلق الحسن ليبلغ درجة الصوم والصلاة»[٤] .

وفي حديث عائشة ﷺ قالت : قال رسول الله ﷺ : « إن أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا ، وألطفهم بأهله » أخرجه الترمذي والحاكم[٥] .

---

(١) صحيح مسلم ، رقم (٢٥٥٣) .
(٢) صحيح البخاري ، رقم (٣٥٥٩) ؛ صحيح مسلم ، رقم (٢٣٢١) .
(٣) سنن الترمذي ، رقم (٢٠٠٢) .
(٤) سنن الترمذي ، رقم (٢٠٠٣) .
(٥) سنن الترمذي ، رقم (٢٦١٢) ؛ المستدرك ، رقم (١٧٣) .

وعند أبي داود وابن حبان عن عائشة ﵂ قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم »[(١)] .

وفي رواية : « إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجات قائم الليل وصائم النهار »[(٢)] .

وروي عنه ﷺ : « أن رجلًا أتى إليه من قبل وجهه ، فقال : يا رسول الله ، أي العمل أفضل؟ قال : حسن الخلق ، ثم أتاه عن يمينه ، فقال : أي العمل أفضل؟ قال : حسن الخلق ، ثم أتاه عن شماله ، فقال : أي العمل أفضل؟ قال : حسن الخلق ، ثم أتاه من بعده -أي من خلفه- فقال : أي العمل أفضل؟ فالتفت إليه رسول الله ﷺ ، فقال : مالك لا تفقه!! حسن الخلق ، هو أن لا تغضب إن استطعت » رواه الخرائطي في مساوئ الأخلاق ومحمد بن نصر في تعظيم قدر الصلاة[(٣)] .

وعند أبي داود وابن ماجة والترمذي وحسنه عن أبي إمامة ﵁ عن النبي ﷺ أنه قال : « أنا زعيم بيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه »[(٤)] .

وفي الحديث الصحيح عن أبي ذر ﵁ قال : قال رسول الله ﷺ « اتق

(١) سنن أبي داود ، رقم (٤٧٩٨) ؛ صحيح ابن حبان ، رقم (٤٨٠) .
(٢) شرح السنة للبغوي ، رقم (٣٥٠٠) ؛ مشكل الآثار للطحاوي ، رقم (٣٧٨٥) .
(٣) مكارم الأخلاق للخرائطي ١/ ٢٢ ، تعظيم قدر الصلاة ، رقم (٨٧٨) .
(٤) سنن أبي داود ، رقم (٤٨٠٠) ؛ سنن ابن ماجه ، رقم (٥١) ؛ سنن الترمذي ، رقم (١٩٩٣) .

الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن »[(١)] .

وروى الطبراني بسند فيه ضعف عن أبي هريرة ﷺ : « إن أحبكم إليّ أحاسنكم أخلاقًا ، الموطئون أكنافًا ، الذين يألفون ويؤلفون ، وإن أبغضكم إليّ المشاؤون بالنميمة ، المفرقون بين الأحبة ، الباغون البرآء العنت »[(٢)] .

وأخرج أبو يعلى بسند حسن عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم ، ولكن يسعهم منكم بسط الوجه وحسن الخلق »[(٣)] .

وفي لفظ : « إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم ، فليسعهم منكم طلاقة الوجه وحسن البشر »[(٤)] .

وأخرج الإمام أحمد وأبو داود عن رافع أن رسول الله ﷺ قال : «حسن الخلق نماء ، وسوء الخلق شؤم ، والبر زيادة في العمر ، والصدقة تدفع ميتة السوء »[(٥)] .

وقد فسر العلماء رحمهم الله حسن الخلق بما روي عن النبي ﷺ بأنه

---

(١) شعب الإيمان للبيهقي ، رقم (٨٠٢٣) .

(٢) المعجم الأوسط ، رقم (٧٦٩٧) .

(٣) مسند أبي يعلى ، رقم (٦٥٥٠) ، ورواه أيضًا البزار في مسنده ، رقم (٩٣١٩) .

(٤) شعب الإيمان للبيهقي ٦/ ٢٥٣ .

(٥) مسند أحمد ، رقم (١٦٠٧٩) ؛ أبي داود ، رقم (٥١٦٢) .

عدم الغضب[1] .

وقال ابن رجب رحمه الله : قال بعض أهل العلم : حسن الخلق كظم الغيظ لله ، وإظهار الطلاقة والبشر ، إلا للمبتدع والفاجر ، والعفو عن الزالين إلا تأديبًا أو إقامة حد ، وكف الأذى عن كل مسلم أو معاهد إلا تغيير منكر ، وأخذ المظلمة لمظلوم من غير تعد »[2] .

وقال بعض العلماء في تعريف حسن الخلق :

تعريف حسن الخلق المختار قد حده أشياخنا الأبرار

وهو اختيار أحسن الفضائل والترك للقبيح والرذائل

اللهم وفقنا لأحسن الأخلاق يا حي يا قيّوم .

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

* * *

(١) مجموع رسائل ابن رجب ١/ ١٦٧ .

(٢) دليل الواعظ إلى أدلة المواعظ ١/ ٢١٠ .

(٢٦)

المؤمن القوي والمؤمن الضعيف

روى الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفي كل خير، احرص على ما ينفعك ، واستعن بالله ، ولا تعجز ، وإن أصابك شيء فلا تقل : لو أني فعلت كان كذا وكذا ، ولكن قل : قدر الله ، وما شاء فعل ، فإن لو تفتح عمل الشيطان »[1] .

هذا الحديث العظيم من جوامع كلمه ﷺ ، وقد اشتمل على كلمات نافعات لمن فهمها ، وعمل بمقتضاها ، وفي هذا الحديث إثبات صفة المحبة لله سبحانه ، وأنه جل وعلا يحب عباده المؤمنين ، وأن محبته لهم تتفاوت ، فمحبته للمؤمن القوي أعظم من محبته للمؤمن الضعيف ، والمحبة صفة من صفاته سبحانه التي يجب على المؤمن الإيمان بها ، على ما يليق بجلاله سبحانه ، من غير تأويل ، أو تحريف ، أو تشبيه ، أو تمثيل ، أو تعطيل ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

قال الشيخ ابن سعدي رحمه الله : دل الحديث على أن الإيمان يشمل العقائد القلبية ، والأقوال والأفعال ، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة ،

---

(١) صحيح مسلم ، رقم (٢٦٦٤) .

فإن الإيمان بضع وسبعون شعبة ، أعلاها قول لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة منه ، وهذه الشعب التي ترجع إلى الظاهر والباطن من الأعمال كلها من الإيمان ، فمن قام بها حق القيام ، وكمل نفسه بالعلم النافع ، والعمل الصالح ، وكمل غيره بالتواصي بالحق والتواصي بالصبر ، فهو المؤمن القوي ، الذي حاز على مراتب الإيمان . ومن لم يصل إلى هذه المرتبة فهو المؤمن الضعيف .

وهذا الحديث من أدلة السلف على أن الإيمان يزيد وينقص ، وذلك بحسب علوم الإيمان ومعارفه ، وبحسب أعماله ، وهذا الأصل قد دل عليه القرآن الكريم وسنة المصطفى ﷺ(1) ، كما قال عز وجل : ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ [التوبة:١٢٤]، وقال تعالى: ﴿لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡ ﴾ [الفتح:٤] ، وقال تعالى : ﴿ وَيَزۡدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنٗا ﴾ [المدثر:٣١] ، وقال تعالى : ﴿ وَزِدۡنَٰهُمۡ هُدٗى ﴾ [الكهف:١٣].

وقد جاء في السنة ما يدل على ذلك في أحاديث كثيرة ، منها هذا الحديث ، ومنها ما رواه البخاري وغيره عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « يخرج من النار من قال لا إله إلا الله ، وفي قلبه وزن شعيرة من خير ، ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن برة من خير ،

---

(١) بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار ١/ ٣٥ .

ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن ذرة من خير »[١] .

وفي رواية عند البخاري : «من إيمان» ، بدل «من خير» .

وقد سئل سفيان بن عيينة رحمه الله فقيل له : إن قومًا يقولون : الإيمان كلام ، فقال : هذا قبل أن تنزل الأحكام ، فأمر الناس أن يقولوا : لا إله إلا الله ، فإذا قالوها عصموا دماءهم وأموالهم ، فلما علم الله صدقهم أمرهم بالصلاة ، ففعلوا ، ولو لم يفعلوا ما نفعهم الإقرار ، فذكر الأركان إلى أن قال : فلما علم الله ما تتابع عليهم من الفرائض وقبولهم ، قال : ﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا ﴾ [المائدة: ٣] ، فمن ترك شيئًا من ذلك كسلاً ، أو مجونًا ، أدبناه عليه ، وكان ناقص الإيمان ، ومن تركها جاحدًا كان كافرًا . اهـ[٢] .

وأنت ترى في هذا الحديث أن النبي ﷺ فاضل بين المؤمن القوي والمؤمن الضعيف، وهذا التفاضل إنما هو بحسب تفاوتهم في هذا الوصف، وهو الإيمان ، ولما فاضل بينهم ﷺ خشي من توهم القدح في المفضول ، فقال : وفي كل خير .

ولما كان التفاوت حاصلاً وموجودًا بين المؤمنين على حسب أعمالهم ، وما وقر في قلوبهم من محبة الله، وتعظيمه ، وتعظيم أوامره، قسمهم الله

---

(١) صحيح البخاري ، رقم (٤٤)؛ سنن الترمذي ، رقم (٢٥٩٣)؛ سنن ابن ماجه ، رقم (٤٣١٢) .
(٢) فتح الباري لابن رجب ١/ ١٠٣ .

سبحانه وتعالى إلى ثلاثة أقسام كما قال عز وجل : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾ [فاطر:٣٢].

فهذه أوصاف عباد الله على تفاوت درجاتهم ، ومنزلتهم عند ربهم، ومن خرج عن أولئك فليس منهم ، ولذلك ذكر الله سبحانه وتعالى القسم الرابع ، وهم المكذبون بالله على اختلاف درجاتهم من المشركين والمنافقين ، فقال تعالى في السورة الأخرى : ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الواقعة:٤١-٤٦] .

وفي الجملة الثانية من الحديث يقول عليه الصلاة والسلام: « احرص على ما ينفعك واستعن بالله » : أمر رسول الله ﷺ بالحرص على ما ينفع، والاستعانة بالله في كل الأمور ، في أمور الدين والدنيا ، كما قال سبحانه : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة:٥] ، فمدار سعادة الإنسان وتوفيقه هو الحرص ، والاجتهاد في الأمور النافعة ، ولكن الحرص والاجتهاد وحده لا يكفي ، بل لا بد من أمر مهم جدًا ، وهو الاستعانة بالله، فلا تتكل على حرصك ولا على اجتهادك ، ولا على تهيئة الأمور لك، ولا على ثقة الناس بك ، ولا على حسن تصرفك ، بل اعتمد على الله وحده، وتوكل عليه ، واستعن به في كل أمر كبير وصغير ، ولا تركن إلى غيره ، ولا تعتمد

على سواه ، ولا تستعن بغيره :

من استعان بغير الله في طلب   فإن ناصره عجــز وخذلان

فمتى حرص العبد على الأمور النافعة ، واجتهد فيها ، وسلك أسبابها ، وطرقها ، واستعان بربه في حصولها ، وتكميلها كان ذلك دليلاً على كماله وفلاحه، ومتى فاته واحد منها ، فاته من الخير بحسبه:

الجد بالجد والحرمــان بالكســـــل

فانصب تصب عن قليل غاية الأمل

وفي قوله ﷺ : « احرص على ما ينفعك» إشارة إلى أن الإنسان قد يكون حريصًا وليس بكسول ، ولكنه يشغل نفسه في أشياء ، لا تعود عليه بالمنفعة في أمر دينه ودنياه ، بل يشغل نفسه ، ويذهب وقته في الملاهي، والشهوات ، واللذات.

ثم إنه ﷺ لما قال : « احرص على ما ينفعك» أعقبها بقوله: «واستعن بالله» فقد يحرص الإنسان على الخير ، ولكن يعتمد على جهده ، وذكائه ومعرفته بالأمور ، ويعتمد على نفسه الضعيفة ، التي إن اعتمد عليها ، وترك الاعتماد على ربه ، فاته خير الدنيا والآخرة ، ولم تنجح أموره ، ولم تتم مقاصده .

إذا لم يكن عون من الله للفتى   فأول ما يجني عليــه اجتهاده

واعلم أن أهم الأمور النافعة للمؤمن : طلب العلم ؛ لأن العلم ميراث الأنبياء ، وثمرة العلم هو العمل الصالح ، الذي مبناه على اتباع طريقة الرسول ﷺ ، وعلى الإخلاص لله سبحانه .

واعلم أن العلم إذا صحت نية طالبه فإنه عبادة بنفسه ، كما أنه وسيلة لتقوى الله وعبادته .

وقد وردت أحاديث كثيرة تدل على فضله ، كما جاء في حديث صفوان بن عسال ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما من خارج يخرج من بيته يطلب العلم إلا وضعت له الملائكة أجنحتها رضًا بما يصنع » رواه ابن خزيمة وابن حبان[1] . فهذا فيه شرف عظيم لطلاب العلم المخلصين بطلبه، القاصدين في تعلمه لله والدار الآخرة ، لا لغرض دنيوي، كطلب مرتبة أو جاه أو مال .

فينبغي لطالب العلم أن يصحح نيته ، وأن يقصد بطلبه العلم التحاقه بدرجة العلماء ، وأن يحشر في زمرتهم ، وأن يكون العلم دليلاً له على فعل ما يحبه الله ويرضاه ، كما أن على طالب العلم أن يتصف بأخلاق العلماء ، من الحلم والأناة ، والبعد عن الطيش والحمق ، كما نقل عن الشعبي رحمه الله أنه قال : يا طلاب العلم لا تطلبوا العلم بسفاهة وطيش ، اطلبوه بسكينة ووقار وتؤدة . وقد قيل في هذا المعنى :

---

(١) صحيح ابن خزيمة ، رقم (١٩٣) ؛ صحيح ابن حبان ، رقم (١٣٢٥) .

وفي العلم والإسلام للمرء وازع وفي ترك طاعات الفؤاد المتيـم

بصـــائر رشـد للغـــنى مسـتبينة وأخلاق صدق علمها بالتعلم

اللهم ارزقنا العلم النافع ، والعمل الصالح ، والبصيرة في الدين .

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه .

* * *

(٢٧)

أذية الناس

روى البخاري ومسلم عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ :

« إن من شر الناس منزلة عند الله يوم القيامة من ودعه الناس أو تركه الناس اتقاء فحشه »[1] .

لقد حرم الله ورسوله أذية المسلمين ، فقال عز وجل : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب:٥٨] ، وقال الله سبحانه : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَـٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَـٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ [الحجرات:١١] ، ويقول عز وجل : ﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ﴾ [الحجرات:١٢].

وقد روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « كل المسلم على المسلم حرام : دمه ، وماله ، وعرضه »[2] .

---

(١) صحيح البخاري ، رقم (٦١٣١) ؛ صحيح مسلم ، رقم (٢٥٩١) .
(٢) صحيح مسلم ، رقم (٢٥٦٤) .

وروى مسلم أيضًا عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ، ولا يخذله، ولا يحقره ، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم »[1] .

وقال عليه الصلاة والسلام : « سباب المسلم فسوق ، وقتاله كفر » رواه البخاري ومسلم[2] .

وفي المسند عن عبد الرحمن بن غنم أن النبي ﷺ قال : « ألا أخبركم بشراركم ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : شراركم المشاؤون بالنميمة ، المفسدون بين الأحبة ، الباغون للبرآء العنت »[3] . والعنت : الحرج والمشقة.

وجاء عنه ﷺ أنه قال : « لا يدخل الجنة نمام » رواه مسلم[4] .

والنمام هو الذي ينقل الحديث بين الناس أو بين اثنين بما يؤذي أحدهما ، أو يوحش قلبه على صاحبه أو صديقه ، بأن يقول له : قال عنك فلان كذا ، أو فعل كذا وكذا ، إلا أن يكون في ذلك مصلحة أو فائدة ، كتحذيره من شر يحدث ، أو أمر يترتب عليه مفسدة أعظم .

---

(١) صحيح مسلم ، رقم (٢٥٦٤) .
(٢) صحيح البخاري ، رقم (٤٨) ؛ صحيح مسلم ، رقم (٦٤) .
(٣) مسند أحمد ، رقم (٢٧٥٩٩) .
(٤) صحيح مسلم ، رقم (١٠٥) .

واعلم أيها المسلم ، أن أذية المؤمنين من كبائر الذنوب التي لا تغفر إلا بالتوبة منها ، فعليك أيها المسلم أن تبادر إلى الله بالتوبة النصوح ، وأن تحاسب نفسك ، وأن تكف الأذية عن المؤمنين .

واعلم أن الأذية تارة تكون باليد ، وذلك بالتعدي على الناس ، بضربهم لغير تأديب ولا حاجة ، فهذا مما لا يحل ، ولم ينقل عنه ﷺ وهو أحسن الناس خلقًا أنه ضرب أحدًا ، بل جاء الخبر بنفي ذلك ، إلا أن يجاهد في سبيل الله ، وجاء عنه ﷺ التحذير عن سوء الملكة ، أي : أن يسيء إلى من تحت يده من الخدم أو البهائم ونحوها ، كما جاء عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، كما رواه أحمد والترمذي وابن ماجه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يدخل الجنة سيء الملكة »[1] .

ومن الأذية أن يؤذي المؤمنين في طريقهم ومجالسهم ، فقد لعن ﷺ الذي يتخلى في طريق الناس أو ظلهم .

ومن أنواع الأذية للمؤمنين أن يؤذيهم بلسانه ، ويدخل تحت ذلك أنواع كثيرة ، فمنها : القذف ، والغيبة ، والكذب ، والنميمة ، وغير ذلك ، وقد حرم الله القذف ، ورتب عليه الحد تأديبًا لمن فعله ، قال الله عز وجل : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةً وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدًاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾ [النور:٤].

(١) مسند أحمد ، رقم (٧٥) ؛ سنن الترمذي ، رقم (١٩٤٦) ؛ سنن ابن ماجه ، رقم (٣٦٩١) .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : «اجتنبوا السبع الموبقات ، قالوا : يا رسول الله وما هن ؟ قال : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولي يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات »[١] .

ومن أنواع الأذية باللسان البهتان ، وهو أن يتكلم في عرض أخيه المسلم بما ليس فيه ، كما جاء ذلك في سنن أبي داود عن ابن عمر رضي الله عنه عن النبي ﷺ : « من قال في مؤمن ما ليس فيه أسكنه الله ردغة الخبال حتى يخرج مما قال ، قيل : يا رسول الله وما ردغة الخبال ؟ قال : عصارة أهل النار »[٢] .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أتدرون ما الغيبة ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : ذكرك أخاك بما يكره، قيل : وإن كان في أخي ما أقول ؟ قال : إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته »[٣] .

فعليك أخي المسلم بتقوى الله عز وجل ، وعدم التعرض لعباد الله المؤمنين بالأذية لهم ، باليد أو اللسان أو غير ذلك ، وما أحسن ما قال

---

(١) صحيح البخاري ، رقم (٢٧٦٦) ؛ صحيح مسلم ، رقم (٨٩) .
(٢) سنن أبي داود ، رقم (٣٥٩٧) .
(٣) صحيح مسلم ، رقم (٢٥٨٩) .

الشاعر في هذا المعنى :

ولا تقفوا زلات الرجال تعدها   فلست على هذا الورى بمسيطر

ولا تتعرض لاعتراض عليهم   دع الخلق للخلاق تسلم وتؤجر

اللهم وفقنا لهداك ، واجعل عملنا في رضاك ، وصلى الله وسلم على محمد وآله وصحبه .

❊ ❊ ❊

(٢٨)

من حقوق المسلم على أخيه

روى أبو داود والنسائي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « من استعاذ بالله فأعيذوه ، ومن سأل بالله فأعطوه ، ومن دعاكم فأجيبوه، ومن صنع إليكم معروفًا فكافئوه ، فإن لم تجدوا ما تكافئوه فادعوا له حتى ترون أنكم قد كافأتموه »[١] .

هذا الحديث الشريف يدل على لزوم الوفاء بهذه الأمور لأمر الشارع بها ، وهي من حقوق المسلمين بعضهم على بعض ، والقيام بها من كمال الإيمان ، وتركها من نقص الإيمان ، فقوله ﷺ : « من استعاذ بالله فأعيذوه »، أي : من سألكم أن تدفعوا عنه شركم أو شر غيركم بالله ، كما إذا قال : بالله عليك ادفع عني شرك ، أو قال : بالله عليك امنع عني شر فلان ، وأنت لك قدرة على ذلك ، أو قال : أعوذ بالله من شرك أو شر فلان ، فأعيذوه ، أي: امنعوه مما استعاذ منه ، وكفوا ذلك الشر عنه ؛ تعظيمًا لاسم الله وإجلاله.

ولهذا لما تزوج ﷺ المرأة التي من بني الجون ، ودخل عليها ﷺ ، قالت له : أعوذ بالله منك ، فقال : قد عذت بمعاذ ، ثم خرج علينا . فقال : يا أبا أسيد لله اكسها رَازِقِيَّتَيْن ، وأَلْحِقْهَا بأهلها » رواه البخاري[٢] ، فتركها عليه

---

(١) سنن أبي داود ، رقم (١٦٧٢) ؛ سنن النسائي ، رقم (٢٥٦٧) .
(٢) صحيح البخاري ، رقم (٥٢٥٥) .

الصلاة والسلام لما استعاذت بالله منه ، وقيل : إن تلك المرأة قد خدعت بذلك ، خدعها بعض النساء ، وقالت لها : قولي للرسول إذا دخل عليك : أعوذ بالله منك ؛ ليكون أحظى لك عنده . والله أعلم .

وقوله ﷺ : « ومن سأل بالله فأعطوه » ، وفي بعض روايات الحديث : « ومن سألكم بوجه الله فأعطوه » ، وذلك كأن يقول : أسألك بوجه الله أو يقول : أسألك بالله أن تفعل كذا ، أو تعطني كذا ، ويدخل في ذلك القسم عليه بالله أن يفعل ، وظاهر الحديث يدل على وجوب إعطائه ما سأل ، ما لم يسأل إثمًا أو قطيعة رحم .

وفي الحديث عن ابن عباس رضي الله عنه : « ألا أخبركم بشر الناس؟ رجل يُسأل بالله ، ثم لا يعطي به » رواه أحمد والترمذي والنسائي[1] .

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا أخبركم بشر البرية ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : الذي يُسأل بالله ولا يعطي به » رواه أحمد[2] .

فظاهر الأحاديث يدل على وجوب إعطاء من سأل بالله ، وللعلماء فيها قولان : منهم من قال بالوجوب ، ومنهم من قال بالاستحباب ، وقوله ﷺ : « ومن دعاكم فأجيبوه » ، أي : من دعاكم إلى طعام فأجيبوا

---

(١) مسند أحمد ، رقم (٢٩٢٩) ؛ سنن الترمذي ، رقم (١٦٥٢) ؛ سنن النسائي ، رقم (٢٥٦٩) .
(٢) مسند أحمد ، رقم (٩١٤٢) .

دعوته ، أي الدعوة للعرس ، فإنه تجب الإجابة إذا لم يكن في العرس منكر، وإن كانت لغير العرس فإنها تستحب ولا تجب ؛ لوجود أحاديث كثيرة بالأمر بذلك . وبعض أهل العلم يرى الوجوب مطلقًا في عرس أو غيره لظاهر هذا الحديث .

ثم قال ﷺ : « ومن صنع إليكم معروفًا فكافئوه » أي كافئوه على إحسانه ، كما قال تعالى : ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ [الرحمن:٦٠] فإذا لم يستطع مكافأته فإنه يدعو له ، حتى يرى أنه قد كافأه .

وقد روى الترمذي وغيره عن أسامة بن زيد رضي الله عنه مرفوعًا : «من صنع إليه معروف ، فقال : جزاك الله خيرًا ، فقد أبلغ في الثناء »[1] .

فهذا الحديث يبين لنا حقوق المسلمين بعضهم على بعض ، فعلى المسلم امتثال أمر رسول الله ﷺ ، والعمل بإرشاداته وتوجيهاته ونصائحه ، فهو الناصح الأمين .

اللهم صل وسلم على عبدك ورسولك سيدنا محمد وآله وصحبه .

* * *

---

(١) سنن الترمذي ، رقم (٢٠٣٥) .

(٢٩)

وجوب النصيحة

وجوب النصح والنهي عن الغش من الأمور التي جاءت بها الشريعة، وحذرت غاية التحذير عن غش المسلمين ، أو ضمر العداوة لهم ، وأوجبت النصح لكل مسلم ، وقد أخبر المصطفى ﷺ أن الدين النصيحة ، وكرر ﷺ هذه الجملة ثلاث مرات ، كما جاء في صحيح مسلم عن تميم الداري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « الدين النصيحة ، الدين النصيحة ، الدين النصيحة ، قالوا : لمن يا رسول الله ؟ قال : لله ، ولكتابه ، ولرسوله ، ولأئمة المسلمين ، وعامتهم »[١] .

فمن هذا الحديث يتبين لك أيها المسلم منزلة النصيحة من الدين ، وتأكد وجوبها .

وقد أخبر عليه الصلاة والسلام أن النصح واجب على العبد المسلم ، لا يتم إيمانه إلا به ، وأن من أهم أنواع النصح ؛ النصح لله تعالى ، ومعنى ذلك القيام بما أوجبه الله عليك ، وعدم الاستخفاف بالواجبات الدينية ، وأن تجتنب ما نهاك الله عنه من المحرمات ، وأن تعترف لله بوحدانيته ، وتفرده بكمال الصفات .

---

(١) صحيح مسلم ، رقم (٥٥) .

وأن صفاته سبحانه وتعالى لا يشركه فيها أحد بوجه من الوجوه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]، وأن تثبت له جميع ما أثبته لنفسه، أو أثبته له رسوله ﷺ على صفة تليق بجلاله، من غير تكييف، ولا تمثيل، ومن غير تأويل، ولا تعطيل، ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:١٨٠].

وأن تعترف له سبحانه وتعالى بالألوهية، وأنه واحد لا شريك له في عبادته، فتتوجه إليه بالعبودية التامة من خشية، وإنابة، ورغبة، ورهبة، وتوبة، واستغفار، ودعاء، وتضرع، كل ذلك خالصُ حقه سبحانه ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن:١٨].

وأما النصيحة لكتاب الله: فيحصل ذلك بتفهمه، وتدبره، والعمل بمحكمه، والإيمان بمتشابهه، والاجتهاد في تعلم ألفاظه ومعانيه، وما دل عليه، والعلم الجازم أنه من عند الله، وأن الله أنزله على عبده ورسوله محمد ﷺ، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:١].

وأما النصيحة للرسول ﷺ: فيكون ذلك بالإيمان به، والاعتراف بنبوته، ورسالته، ومحبته المحبة الكاملة، محبة فوق محبة الأبناء، والآباء، والأهل، والمال، ومتابعته، وامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، وأن لا

تعبد الله بشيء إلا ما شرعه لك ﷺ ، وتلقي جميع ما أخبر به بالصدق والقبول ، وأن لا تعترض عليه في شيء من أقواله وأفعاله ، وتقديم أقواله على قول كل أحد ، كائنا من كان ، وأن تجتهد أن تهتدي بهديه في كل ما تستطيعه ، وأن تدعو إلى نصرة دينه بحسب مقدرتك .

أما النصيحة لأئمة المسلمين : وهم ولاة الأمور ، من ملك ، ورئيس، وأمير ، وقاض ، وكل من له ولاية عامة على مجموعة من المسلمين ، فإنك تنصح لهم بالدعاء لهم بالتوفيق والتسديد ، وبالسمع والطاعة لهم بالمعروف، وحث الناس على ذلك ، وبذل ما تستطيعه من المناصحة والإرشاد ، مشافهة ، ومكاتبة ، بكل ما يعود عليهم وعلى الأمة بالخير والصلاح، عملًا بقوله ﷺ: « إن الله يرضى لكم ثلاثا : أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعًا ، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم »[(١)] .

أما النصيحة لعامة المسلمين : فالمراد بالعامة هنا عموم المسلمين ، أي على كل مسلم أن يكون ناصحًا لجميع المسلمين .

ففي الصحيحين عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال : « بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والنصح لكل مسلم »[(٢)] .

---

(١) مسند أحمد ، رقم (٨٤٤٤) ؛ شرح السنة ، رقم (١٠١) ؛ مسند أبي عوانة ، رقم (٦٣٨٦) .
(٢) صحيح البخاري ، رقم (٥٧) ؛ صحيح مسلم ، رقم (٥٦) .

وروى الإمام مسلم عن أبي هريرة ﷺ : « حق المسلم على المسلم ست » وذكر منها : وإذا استنصحك فانصح له »[(١)] .

وقد فسر بعض العلماء رحمهم الله النصيحة لعامة المسلمين بأنها إرشادهم لمصالحهم ، وتعليمهم أمور دينهم ودنياهم ، وستر عوراتهم ، وسد خلاتهم ، وسد روعاتهم ، ومجانبة الغش والحسد لهم[(٢)] .

قال ابن رجب رحمه الله : « ومن أنواع نصحهم : تعليم جاهلهم ، ورد من زاغ منهم عن الحق في قول أو عمل بالتلطف في ردهم إلى الحق ، والرفق بهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، محبة لإزالة فسادهم ، وإصلاح أحوالهم[(٣)] .

وقد روي عن بعض الصحابة رضي الله عنهم كما حكي ذلك السفاريني رحمه الله أنه قال : والذي نفسي بيده ، إن شئتم لأقسمن لكم بالله، إن أحب عباد الله إلى الله الذين يحببون الله إلى عباده ، ويحببون عباد الله إلى الله ، ويسعون في الأرض بالنصيحة[(٤)] .

وروي عن الفضيل بن عياض رحمه الله أنه قال : ما أدرك عندنا من

---

(١) صحيح مسلم ، رقم (٢١٦٢) .
(٢) شرح النووي على مسلم ٢/ ٣٩ .
(٣) موسوعة خطب المنبر ١/ ٩٥٥ .
(٤) جامع العلوم والحكم ١/ ٨١ .

أدرك بكثرة الصلاة ، والصيام ، وإنما أدرك عندنا بسخاء الأنفس ، وسلامة الصدور ، والنصح للأمة[(١)] .

ومما لاشك فيه أن الناس يختلفون كل على حسب مقدرته ومعرفته ، وما آتاه الله ، واختصه به من أنواع القدرة على الإحسان ، والنصح للمسلمين .

فعلى العالم الذي نور الله بصيرته بالعلم أن يدعو إلى الله بالحكمة ، والموعظة الحسنة ، ويجادل بالتي هي أحسن ، صابرًا على الأذى ، مجتهدًا في دعوته ، وإرشاده ، مخلصًا في وعظه وتعليمه ، متصفًا بالحلم والتواضع ، لا يرى له فضلًا على غيره ، فيزدريه ويتكبر عليه ، بل يجله ، ويقدره ، ويتلطف بالجاهل ، ويرغبه في العلم ، ومجالس الذكر ، ويذكر له فضل مجالس العلم ، وما أعد الله للعلماء العاملين من خيري الدنيا والآخرة ، من علو منزلة ، وطيب عيش ، وحياة سعيدة ، وثواب عظيم ، وإذا فعل ذلك انتفع به الناس ، وأحبوه ، وقبلوا منه كلامه ، لاسيما إن أعطاه الله قوة في الحق ، ونصرة للمظلوم بما يستطيعه ، ووقوفا إلى جانبه حتى ترد عليه ظلامته .

وإن كان من الأغنياء الذين منَّ الله عليهم بالمال ، فإن من نصحه لعباد الله المؤمنين : سد خلتهم ، والتصدق على المحتاجين منهم ، وإقراض

---

(١) المصدر السابق .

من احتاج إلى الاستقراض منهم ، ومحبة الخير لهم ، ويفرح لهم إذا شاركه أحد في التجارة ، ورزقه الله ، ولا يكون في قلبه حسد لإخوته ، ومحبة للانفراد بالتجارة دونهم .

فإذا اتصف المسلمون بهذه الصفات أو بعضها ، فقد اتصفوا بالإسلام ، الذي رضيه الله لعباده ، واختاره لهم ، وارتضاه دينًا ، ولم يرتض دينا سواه .

اللهم وفقنا لما تحب وترضى يا ذا الجلال والإكرام .

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

* * *

(٣٠)

عيادة المريض

عيادة المريض من حقوق المسلمين بعضهم على بعض ، وقد حث عليها ﷺ ، وأخبر أنها من حق المسلم على المسلم ، كما في قوله ﷺ : « حق المسلم على المسلم ست » فذكر منها : « وتعوده إذا مرض »[(١)] .

وفي صحيح مسلم عن ثوبان ﷺ عن النبي ﷺ : « إن المسلم إذا عاد أخاه المسلم لم يزل في خرفة الجنة حتى يرجع ، قيل : يا رسول الله وما خرفة الجنة ؟ قال : جناها » وهو ما يخرف من نخلها ، كما قاله المنذري رحمه الله[(٢)] .

وقال ابن حجر رحمه الله : هي الثمرة إذا نضجت . شبه ما يحوزه عائد المريض من الثواب بما يحوزه الذي يجني الثمرة[(٣)] .

وروى الإمام أحمد عن كعب بن مالك ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « من عاد مريضًا خاض في الرحمة ، فإذا جلس عنده استنقع فيها »[(٤)] .

وروى الإمام أحمد رحمه الله وغيره عن أنس ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « أيما رجل يعود مريضًا فإنما يخوض في الرحمة ، فإذا قعد عند

---

(١) سبق تخريجه ص ١٣٣ .
(٢) صحيح مسلم ، رقم (٢٥٦٨) .
(٣) فتح الباري لابن حجر ١٠/ ١١٣ .
(٤) مسند أحمد ، رقم (١٥٧٩٧) .

المريض غمرته الرحمة ، قال : فقلت : يا رسول الله ، هذا الصحيح الذي يعود مريضًا ، فما للمريض ؟ قال : يحط عنه ذنوبه »[(١)] .

وفي رواية الطبراني قال رسول الله ﷺ : « إذا مرض العبد ثلاثة أيام ، خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه »[(٢)] .

وروى الترمذي وغيره عن عليّ رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول: « ما من مسلم يعود مسلمًا غدوة إلا صلى عليه سبعون ألف ملك حتى يمسي ، وإن عاده عشية إلا صلى عليه سبعون ألف ملك حتى يصبح ، وكان له خريف في الجنة »[(٣)] .

وروى هذا الحديث أبو داود موقوفًا على علي رضي الله عنه ، إلا أنه قال : وأسند هذا الحديث عن عليّ رضي الله عنه من غير وجه صحيح إلى النبي ﷺ ، وقد أشار به عبد القوي رحمه الله إلى هذا بقوله :

فسبعون ألفًا من ملائكة الرضا ... تصلي على من عاد يمشي إلى الغد

وإن عاده في أول اليوم واصلت ... عليه إلى الليل الصلاة فأسند

وعيادة المريض من حقوق المسلمين ، وهي مستحبة ، وبعض العلماء يرى وجوبها ؛ مستدلًا بحديث : « خمس تجب للمسلم على أخيه المسلم »

---

(١) مسند أحمد ، رقم (١٢٧٨٢) .

(٢) المعجم الصغير للطبراني ، رقم (٥١٩) .

(٣) سنن الترمذي ، رقم (٩٦٩) .

فذكر منها : عيادة المريض ، والحديث متفق عليه[١] .

ومن قال بالاستحباب تأول الحديث ، بأن ذلك محمول على مزيد الترغيب في عيادة المريض ، والاعتناء بها ، والاهتمام بشأنها .

ومن آداب زيارة المريض أن تكون بعد ثلاثة أيام من مرضه ، كما جاء ذلك في بعض الآثار .

وينبغي أن تكون الزيارة في الوقت الذي يناسب المريض ويكون فيه متهيئًا لاستقبال الزوار ، ولا يكون في وقت نومه أو أكله أو نحو ذلك .

ويستحب أن لا يكثر التردد عليه ، بل يزور يومًا ، ويترك يومًا ، لما روي في الحديث : « زر غبًا تزدد حبًا » رواه الطبراني والحاكم وأبو نعيم وغيرهم[٢] .

كما أنه ينبغي أن لا يطيل الجلوس عند المريض ، فيضجره ، ويثقل عليه ، وقد قيل في هذا المعنى :

لا تضجرن عليلًا في مساءلة   إن العيادة يوم بين يومين
بل سله عن حاله وادع الإله له   واجلس بقدر فواق بين حلبين

---

(١) صحيح البخاري ، رقم (١٢٤٠) ؛ صحيح مسلم ، رقم (٢١٦٢) .
(٢) المعجم الكبير للطبراني ، رقم (٣٥٣٥) ؛ المستدرك للحاكم ، رقم (٥٤٧٧) ؛ معرفة الصحابة لأبي نعيم ، رقم (١٩٨٨) .

من زار غبًّا أخًا دامت مودتــه وكان ذاك صلاحـــًا للخليلين

وعلى كل فقد تختلف الأحوال ، فإن الصديق الخاص والقريب لهما حالة أخرى ، فالعاقل يتوخى في جميع الأحوال عدم الإثقال على المريض ، والإحراج على من حوله ، كما قال ابن عبد القوي :

ففكّر وراعِ في العيادة حالَ من تعــود ولا تكــثر ســؤالًا تنكد

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

* * *

(٣١)

لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين

جاء في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين »[1] .

هذا مثل ضربه رسول الله ﷺ للمؤمن وشدة حذره وبيان كمال احترازه ويقظته مما يؤثر عليه في أمور دينه ، وأن المؤمن يمنعه إيمانه ومراقبته ربه أن يستهويه الشيطان ، وتسول له نفسه الأمارة بالسوء عمل المعاصي، والانهماك بها ، والجري وراء شهواتها ، والانجراف خلف شعاراتها البراقة التي تجذب أهل المعاصي وضعيفي الإرادات ، فالمؤمن على حذر من هذه الأمور ، وإن قدر أن تحصل له غفلة أو تزل قدمه أو ينزلق فيها فإنه سرعان ما ينتبه ، ويدرك ما وقع فيه ، ويعود إلى رشده ، ويأخذ حذره في المستقبل ، فلا يقع فيما وقع فيه مرة ثانية ؛ لتمام حذره وشدة خوفه من ربه ، ويشهد لهذا قصة الرجل الذي جاء إلى النبي ﷺ ، فقال : يا رسول الله هلكت ، فقال رسول الله ﷺ : ما أهلكك ؟ قال : وقعت على امرأتي وأنا صائم (وذلك في نهار رمضان) فانظر إلى هذا الصحابي رضي الله عنه الذي من حين ما حصل منه ما حصل من الخطيئة بادر إلى الذهاب إلى الرسول ﷺ ، وأخبره بالواقع،

---

(١) صحيح البخاري ، رقم (٦١٣٣) ؛ صحيح مسلم ، رقم (٢٩٩٨) .

وطلب منه بيان ما يجب عليه من كفارة ، وندم أشد الندم على ما وقع منه وسماه هلاكًا ؛ لأنه يعلم أن الذنوب والمعاصي تهلك صاحبها ، فهل ترى أن مثل هذا الرجل المؤمن الذي حصل منه ما حصل سيعود إلى فعله ذلك ؛ لا ، لا يعود إليه مرة ثانية ، وقد وقع منه هذا الموقع الشديد في نفسه ، وجاء إلى الرسول يطلب منه الخلاص من هذه الورطة، وسمى ما وقع منه هلاكًا، فبعيد كل البعد أن يصدر منه مرة ثانية مثل ما صدر منه هذه المرة ، لذا تجد المسلم التائب لا ينسى ذلك الذنب ، ويقع في نفسه الكراهية الشديدة لتلك الأسباب التي أوقعته فيما وقع فيه ، فهو في حالته هذه يشبه حال الذي أدخل يده في جحر ليتناول منه شيئًا فلدغته منه حية أو عقرب ، فإنه بعد ذلك لا يكاد يدخل يده في ذلك الجحر لما أصابه فيه أول مرة، والنبي ﷺ في هذا الحديث يصف حالة المؤمن لأن المؤمن هو الذي يحمله إيمانه على اجتناب الذنوب والمعاصي ، ويحثه على فعل الطاعات ويرغبه فيها ، ويبعث في نفسه الحزن على اقتراف المعاصي وفوات الطاعات عليه ، فكلما قوي الإيمان قويت مراقبته لصاحبه ، وصار إيمانه عاصمًا له عن الوقوع في الهلكات ومقارفة السيئات ، وإن وقعت منه نبهه إيمانه ووبخه، وبادر إلى التوبة والاستغفار والرجوع إلى الله ، ولم يعد لمثل ذلك .

قال بعض العلماء : وفي هذا الحديث دليل على استحباب الحزم والكيس في كل الأمور ، وأن هذا من صفات أهل الإيمان ، ومن لوازم

الحزم التعرف على الأسباب الجالبة للخير والنافعة في شؤون الحياة ليقوم بها ، والتعرف على الأسباب المؤدية إلى الأضرار وكل ما يعود على المرء بالمضرة في دينه ودنياه ، فيجتنبها .

وفي الحديث أيضًا ما يدل على الحث على تجنب أسباب الريب التي يخشى من مقاربتها الوقوع في الشر ، ومن أهم ذلك البعد عن صحبة الأشرار ، فإنها من أضر ما يكون على المرء خصوصًا الناشئة الشباب الذين لم يسبق لهم تجارب في الأمور ، ولا يزالون يكتسبون من مجالسهم الأخلاق والعادات ، وهم يتأثرون بغيرهم أكثر من تأثر كبار السن ، لا سيما من أبناء جنسهم ومماثليهم في السن ، فعلى أولياء أمورهم توجيههم إلى مجالسة أهل الخير ، والمعروفين بمكارم الأخلاق ، والمستقيمين في أمور دينهم ودنياهم وتحذيرهم من مجالسة السفهاء وأهل الشر وأهل الفسوق ، لئلا يكتسبوا من طبائعهم وأخلاقهم السيئة ، فمقاربة هؤلاء لهم من أعظم أسباب الوقوع في الهلكات ، والبعد عنهم ومجالسة أهل الخير والصلاح من أوقى أسباب السلامة عن الشر ، واكتساب الفضائل .

ومن الأسباب المبعدة عن الوقوع في الخطر حفظ اللسان ، والتقلل من الكلام ، والحرص كل الحرص أن لا يتكلم المرء إلا بما ينفعه أو يرشد به غيره ، وقد قال عليه الصلاة والسلام لمعاذ رضي الله عنه : « احفظ عليك هذا وأشار إلى لسانه ، وقال معاذ : وإنا لمؤاخذون يا رسول الله بما نتكلم

به؟ قال : ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم، أو قال : مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم » رواه أحمد والترمذي وابن ماجة[(١)] .

وقد قال الشاعر في هذا المعنى :

تعاهد لسانك إن اللسان سريع إلى المرء في قتله

وهذا اللسان بريد الفؤاد يدل الرجال على عقله

وقال الآخر في هذا المعنى :

أقلل كلامك واستعذ من شره إن البلاء ببعضه مقرون

واحفظ لسانك واحتفظ من غيه حتى يكون كأنه مسجون

وكل فؤادك باللسان وقل له إن الكلام عليكما موزون

فزناه وليك محكمًا ذا قلة إن البلاغة في القليل تكون

وقد قال الفضيل بن عياض : شيئان يقسيان القلب : كثرة الكلام وكثرة الأكل . وترى المؤمن كلما قوي إيمانه قل كلامه ؛ لأنه لا بد أن يكون قد صدر منه من الكلام ما يندم عليه ، فتجده يحاذر دومًا من لسانه ، ويخشى من فلتاته مخافة أن يلدغه مرة ثانية ،كما حصل من قبل ، ولهذا يقول الشاعر في هذا المعنى :

احفظ لسانك واحتفظ من شره لا يلدغنك إنه ثعبان

---

(١) مسند أحمد ، رقم (٢٢٠١٦) ؛ سنن الترمذي ، رقم (٢٦١٦) ؛ سنن ابن ماجه ، رقم (٣٩٧٣) .

كم في المقابر من صريع لسـانه كانت تهاب لقاءه الشـجعان

ولهذا حذر سبحانه وتعالى عباده المؤمنين من الكلام فيما لا يعلمون وخوضهم وظنونهم السيئة ، ونهاهم عن العودة إلى مثل ما حصل من بعضهم كما في قصة الإفك ، قال سبحانه : ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [النور:١٦-١٧] ، فالمؤمن يتعظ ، ويجعل موعظة ربه بين عينيه، ويخاف من الوقوع في مثل ذلك ، فإذا كان على هذا الوصف فهو في الغالب يسلم من الوقوع في الهلكات ، ويتصف بقوله ﷺ : « لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين » .

ولهذا فإن من فارق الشر من التائبين تكون كراهته له أعظم ، وتحذيره وحذره عنه أبلغ ؛ لأنه عرف بالتجربة آثاره القبيحة ، وجاء في الحديث : «الأناة من الله والعجلة من الشيطان» رواه الترمذي[1]، وجاء أيضًا في الحديث : «لا حليم إلا ذو عثرة ، ولا حكيم إلا ذو تجربة» رواه أحمد والترمذي وحسنه[2]. والله سبحانه وتعالى أعلم .

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه .

* * *

(١) سنن الترمذي ، رقم (٢٠١٢) .

(٢) مسند أحمد ، رقم (١١٠٥٦) ؛ سنن الترمذي ، رقم (٢٠٣٣) .

(٣٢)

الحث على التزوج

النكاح من سنن المرسلين ، والنبي ﷺ يقول : « حبب إلي من دنياكم الطيب والنساء ، وجعلت قرة عيني في الصلاة »[(١)] .

فالزواج أمر مطلوب شرعًا ؛ لأنه سبب بقاء النوع الإنساني ، وعمارة الدنيا ، والقيام بعبادة الله وتوحيده ، وإقامة ذكر الله : من صلاة ، وزكاة ، وصيام ، وحج ، ولذلك لما أرسل الله سبحانه إلى النبي الكريم ملك الجبال وقال له لما اشتدت عداوة قريش له ﷺ : إن الله أرسلني إليك ، فإن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين فعلت -أي إذا رأيت إهلاكهم فإن الله قد أمرني بما تريد- فقال ﷺ : لا إني أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله ، ولا يشرك به شيئًا . فكانت العاقبة أن الله هداهم للإسلام ، وأخرج من أصلابهم من قاموا بأنواع العبادة ، والجهاد في سبيل الله ، وحفظ علوم الشريعة ، والدعوة إلى الله .

ولهذا نجد كثيرًا من أعداء الإسلام ينادون بتحديد النسل ، ويحسنونه للناس ، ويعللون بتعاليل باطلة فيقولون: الأولاد يحتاجون إلى تربية ، يحتاجون إلى تعليم ، يحتاجون إلى علاج ، ونسوا أن الله الذي خلقهم هو

---

(١) السنن الكبرى للبيهقي ، رقم (١٣٤٥٤) .

المتكفل بأرزاق عباده، وأنه سبحانه خلق مئات أو ألوف الأمم ، وكلها تكفل بأرزاقها في البر والبحر ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَاۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [هود:٦] ، ولكن هذه الإرجافات وهذه التهاويل ، نوع من أنواع الحروب الباردة التي يشنها أعداء الإسلام على المسلمين في كل حين ، وفي كل مناسبة ، ويتقبلها المعجبون بهم والسذج ، ومن لا يعرف حقيقة دينه ، أو ضعف إيمانه واتكاله على ربه .

فالله سبحانه يحث عباده على النكاح ، ويقول سبحانه : ﴿ وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [النور:٣٢].

ففي هذه الآية الكريمة دلالة واضحة على أن الزواج سبب من أسباب الرزق ، فإن الله وعدهم بالغنى إذا تزوجوا وهم فقراء ؛ لقوله سبحانه : ﴿ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ .

فالزواج الذي يتثاقل عنه بعض الناس ، ويقول ما أستطيع أتزوج ، أريد كذا ، وأريد كذا ، إنما هو وساوس من الشيطان ، فإذا وثق العبد بوعد الله ووعد رسوله ﷺ ، وفعل ما أمر به ، فإن الله يعينه ، ويفتح له أبوابًا من الرزق لم يكن له فيها حسبان ، والله سبحانه لا يخلف وعده ، وقد وعد المتزوج بالرزق ، بل وعده بالغناء إذا قصد به التعفف ، وامتثال أمر الله ،

وأمر رسوله ﷺ ، ونوى بذلك طلب الأولاد الصالحين ، الذين يعبدون الله سبحانه ، ونوى بذلك تكثير الأمة الإسلامية ، امتثالا لقوله ﷺ : « تزوجوا الولود الودود فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة »(١) .

ومن هذا الحديث تبين لك محبته ﷺ لكثرة النسل ، ولا طريق إلى تحقيق ذلك إلا بالزواج .

ودعوة بعض الناس إلى تحديد النسل مخالفة ، ومعارضة لهذا الحديث، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن النساء من خير ما يتمتع به المرء في حياته من هذه الدنيا . وقد قال ﷺ : « الدنيا متاع ، وخير متاعها المرأة الصالحة » رواه مسلم(٢) .

وقد قيل :

إذا لم يكن في منزل المرء مرأة ... تدبــــره ضاعــت مروءة داره

وقد نهى رسول الله ﷺ عن التبتل وترك التزوج ، وأخبر أن النكاح من سننه ، ومن رغب عن سنته فليس منه، وأخبر ﷺ أن من خير متاع الدنيا الزوجة الصالحة ، كما روى مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « الدنيا متاع وخير متاعها

(١) السنن الكبرى للبيهقي ، رقم (١٣٤٥٧) ؛ المعجم الأوسط للطبراني ، رقم (٥٠٩٩) .
(٢) صحيح مسلم ، رقم (١٤٦٧) .

المرأة الصالحة »[١]، وفي لفظ لابن ماجة : « إنما الدنيا متاع وليس من متاع الدنيا شيء أفضل من المرأة الصالحة »[٢] .

وروى الحاكم عن محمد بن سعد بن أبي وقاص ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « ثلاث من السعادة ، وثلاث من الشقاوة، فمن السعادة : المرأة الصالحة تراها تعجبك ، وتغيب عنها فتأمنك على نفسها ومالك ، والدابة تكون وطية فتلحقك بأصحابك ، والدار تكون واسعة كثيرة المرافق ، ومن الشقاوة : المرأة تراها ، فتسوءك وتحمل لسانها عليك ، وإن غبت عنها لم تأمنها على نفسها ومالك ، والدابة تكون قطوفا فإن ضربتها أتعبتك ، و إن تركبها لم تلحقك بأصحابك ، والدار تكون ضيقة قليلة المرافق »[٣] .

وقد قال بعض المتقدمين : ثلاثة تزيد في العمر : الدار الواسعة إذا كانت صنيعة ، والفرس السريعة ، والمرأة المطيعة .

ومعنى زيادتها في العمر : أن صاحبها يرى لعيشه لذة ، ولعمره بركة، وتمضي أيامه بالفرح والسرور واللذة والحبور[٤] .

وينبغي لمن عزم على التزوج أن يختار الديّنة الجميلة ، المطيعة لله عز

---

(١) صحيح مسلم ، رقم (١٤٦٧) .
(٢) سنن ابن ماجه ، رقم (١٨٥٥) .
(٣) المستدرك ، رقم (٢٦٨٤) .
(٤) غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب ٢/ ٤١٦ .

وجل ، التي تعين زوجها على الطاعة ، وعلى فعل الخير ، والعطف على الفقراء والمساكين ، والقيام بحقه وحق أقاربه ، لا سيما الوالدين ، وتحبب الولد لوالديه ، وتحبب الأبوين لابنهما .

والنبي ﷺ حث على التزوج من المرأة الديّنة ، المعروفة من بيت دين وصدق وعفة وأمانة وصيانة ، ففي الصحيحين وغيرهما عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « تنكح المرأة لأربع لمالها ، ولحسبها ، ولجمالها ، ولدينها ، فاظفر بذات الدين تربت يداك »[1] .

وفي حديث أبي سعيد الخدري ﷺ « فعليك بذات الدين والخلق تربت يداك »[2] .

ويحكى أن رجلًا من المسلمين أراد أن يزوج ابنه فشاور جارًا له مجوسيًا فقال له : إن رئيسنا كسرى كان يختار ذات المال ، ورئيس النصارى كان يختار الجمال ، والعرب في جاهليتها كانت تختار ذات الحسب والنسب ، ورئيسكم محمد -يعني رسول الله ﷺ - يختار ذات الدين ، فانظر بأيهم تقتدي .

وقال ابن عبد القوي في هذا المعنى :

---

(١) صحيح البخاري ، رقم (٥٠٩٠) ؛ صحيح مسلم ، رقم (١٤٦٦) .
(٢) مسند أبي يعلى ، رقم (١٠١٢) .

وخير النسا من سرت الزوج منظرًا

ومن حفظته في مغيـــــب ومشـهد

قصـــيرة ألفاظ قصـــيرة بيتـــــها

قصيرة طرف العين عن كل أبعـــد

عليك بذات الدين تظفر بالمنى الـــ

ودود الولود الأصل ذات التعـــبد

حسيبة أصـل من كـــــرام تفز إذًا

بولد كرام والبكـــــــارة فاقصـد

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

* * *

(٣٣)

لا يفرك مؤمن مؤمنة

روى الإمام مسلم رحمه الله عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ: «لا يفرك مؤمن مؤمنة إن كره منها خلقًا رضي منها آخر»[1] .

اشتمل هذا الحديث الشريف على استحباب المعاشرة بالمعروف بين الزوجين ، وأنه ينبغي لكل منهما معاشرة صاحبه بالعشرة الطيبة ، وأن يتغاضى عما يصدر من بعض الزلات ؛ لتدوم الصحبة ؛ وليستمر صفو الحياة بينهما ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « لا يفرك مؤمن مؤمنة » أي : لا يبغض مؤمن مؤمنة ؛ من أجل خلق يكرهه منها ، فإن كره منها خلقًا فقد رضي منها خلقًا آخر .

فينبغي أن يكون الخلق الطيب الذي اتصفَتْ به محسنًا وشافعًا للخلق المكروه ، فيتغاضى عن الخلق المكروه من أجل الخلق الطيب الذي اتصفت به ، وهيهات أن توجد امرأة جميع صفاتها مقبولة ، وكل أخلاقها حسنة ، فهذا لا يحصل لأحد ، بل ولا يتأتى مع غير الزوجات من الأقارب والأصحاب والزملاء ، فكل منهم يكون فيه صفات محمودة ، وأخرى لا تحمد ، كما قال الشاعر :

---

(١) صحيح مسلم ، رقم (١٤٦٩) .

ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها كفى المــــرء نبلا أن تعـد معائبـه

ثم إنه ينبغي للمرء أن يوطن نفسه ، ويعلم علم اليقين أنه لا يمكن أن يوجد شخص يلائمه من جميع الوجوه ، ولكن الحازم هو الذي ينظر في صاحبه ، إن كانت الخصال الحميدة هي الغالبة عليه ، فهذا هو الذي ينبغي صحبته ، ومعاشرته ، والتمسك به ، وربما كان الرفيق أو المجالس فيه خصلة واحدة محمودة فتعاشره ، وتصافيه من أجلها ، وتحبه عليها ، كما قال ابن دريد في مقصورته:

كم من أخ مسخوطة أخلاقه ألفيتــــه الود لخلــق مرتضى

وهذا الحديث الذي نحن الآن بصدد الكلام على شيء من معناه يقرر هذا المعنى ويؤكده ، فعلى المؤمن أن يجعل هذا الحديث نصب عينيه في جميع أحواله ، لا مع زوجاته فقط ، بل مع كل مصاحب ومجالس وقريب .

والرسول الكريم ﷺ ذكر هذا بالنسبة للزوجة لشدة الحاجة إلى إصلاح أحوال الزوجين ، والسعي وراء ما يكون سببًا للألفة بينهما ، ودوام العشرة الحسنة ، وعدم تبرم كل منهما من صاحبه ، ولأن الزوجين مع كثرة المجالسة في أكثر الأحوال من ليل ونهار ، وشدة ورخاء ، ونعمة وبؤس إلى غير ذلك من الأمور التي لا ينفك عنها البشر ؛ لا بد أن يحصل منهما مع بعض ما يحصل من التضجر والملل من أحدهما لصاحبه ، وشدة الحاجة لوجود الألفة والوئام بينهما آكد من أي صحبة ؛ وذلك لوجود الروابط

والأواصر التي تجمعهما وتجمع معهما غيرهما من أبناء وبنات ، وأطفال صغار ، هم في أمس الحاجة إلى وجود من يقوم بالنفقة عليهم ، وعلى من يقوم بإصلاح شؤونهم وتربيتهم .

ومن أجل هذا وغيره كره الله ورسوله الطلاق ، فقد رُوي عن النبي ﷺ : «أبغض الحلال إلى الله الطلاق» رواه أبو داود وابن ماجة(١) ؛ لأن الطلاق في الغالب يفضي إلى تفكك الأسر ، وتشتيتها ، وبؤس الأطفال ، والمرأة غالبًا ، ولهذا حث أمته ﷺ على المعاشرة بالمعروف ، والتغاضي عن بعض ما يحصل من المرأة ، والصبر عليها ، وأخبر عن نقصان عقلها ، فقال ﷺ في الحديث المتفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «استوصوا بالنساء خيرًا ، فإن المرأة خلقت من ضلع ، وإن أعوج ما في الضلع أعلاه ، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج ، فاستوصوا بالنساء » رواه البخاري(٢) .

وفي رواية للبخاري أيضًا « المرأة كالضلع ، إن أقمتها كسرتها ، وإن استمتعت بها استمعت بها وفيها عوج »(٣) .

وفي رواية لمسلم : « إن المرأة خلقت من ضلع لن تستقيم لك على

---

(١) سنن أبي داود ، رقم (٢١٧٨) ؛ سنن ابن ماجه ، رقم (٢٠١٨) .
(٢) صحيح البخاري ، رقم (٣٣٣١) .
(٣) صحيح البخاري ، رقم (٥١٨٤) .

طريقة ، فإن استمتعت بها استمتعت بها وفيها عوج ، وإن ذهبت تقيمها كسرتها ، وكسرها طلاقها »[1] .

ولذلك أرشد ﷺ أيضًا في الحديث الذي تقدم إلى أنه ينبغي للزوج أن يحسن معاشرة زوجته ، ونهاه عن سوء عشرتها ، كما أمر بذلك المولى جل وعلا بقوله : ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ [النساء:١٩].

فينبغي للمسلم أن يلحظ ما فيها من الأخلاق الفاضلة والجميلة والأمور التي تناسبه ويرضاها منها ، وأن يجعلها في مقابل ما كره من أخلاقها ، فإن الزوج إذا تأمل ما في زوجته من الأخلاق الفاضلة ، والمحاسن التي يحبها منها ، ونظر إلى السبب الذي دعاه إلى التضجر منها ، وسوء عشرتها ، رآه شيئًا واحدًا ، أو اثنين مثلاً ، وما فيها مما يحب أكثر .

فإذا كان عاقلاً ومنصفًا غض عن مساوئها؛ لاضمحلالها في محاسنها، وبهذا تدوم الصحبة ، وتؤدى الحقوق الزوجية والمستحبة ، ويحصل الاتفاق ، ويسود الوئام ، ويسعد أهل البيت جميعًا ، وربما أنه لم يمض وقت كثير حتى يزول أيضًا ما يكره منها ، وأما من غض عن المحاسن ، ولحظ المساوئ ، ولو كانت قليلة ، فهذا من عدم الإنصاف ، وقلة التفكير في العواقب ، ولا يكاد يصفو مع زوجته .

---

(١) صحيح مسلم ، رقم (١٤٦٨) .

يوم لنا ويوم علينـــــا ويوم نُســـاء ويوم نُسر

والنبي ﷺ أرشدنا بهذه المعاملة للنساء ، وهي في الحقيقة عامة فيما ينبغي سلوكه واستعماله مع جميع المعاشرين والمعاملين والزملاء والجيران ، فإن الإنسان إذا أراد ترك كل شخص وجد فيه شيئًا من النقص كان ذلك سببًا لانقطاعه عن الناس ، وانقطاع الناس عنه ، وصار منفردًا بنفسه، ولم يكن له جليس ولا صديق ، وأصبح في عزلة دائمة كما قيل :

ولست بمســتبق أخًا لا تلمه على شعث أي الرجال المهذب[1]

هذا وأسأل الله سبحانه أن يحسن أخلاقنا ونياتنا وأعمالنا .

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه .

* * *

(١) القائل النابغة السفياني (البحر الطويل) . انظر أدب الدنيا والدين ١/ ٢١٥ .

(٣٤)

من حقوق الأبناء على الآباء

روى الترمذي عن أيوب بن موسى بن عمرو بن سعيد بن العاص عن أبيه عن جده : أن رسول الله ﷺ قال : « ما نحل والد ولده من نحل أفضل من أدب حسن »[1] .

هذا الحديث الشريف يدل على نصحه ﷺ وشفقته على أمته ومحبته لاستقامتهم وسلوكهم السبيل القويم والتمسك بالأخلاق الفاضلة والآداب السامية ، فلذلك حث الآباء على تأديب أبنائهم وتعليمهم التعاليم الحسنة التي تنفعهم في دينهم ودنياهم ، وجعل ﷺ ذلك من أفضل النحل والعطايا .

والنحل : هي الهبات والعطايا ، فالمعنى : أنه ما أعطى والد ولده شيئًا من الهبات والعطايا أفضل من أدب حسن ، فالآداب الحسنة خير للأولاد حالاً ومآلاً من إعطائهم الذهب والفضة وأنواع المتاع الدنيوي ؛ لأن المتاع عرض زائل لا يبقى بيد صاحبه ، بل ربما كان سببًا من أسباب الشقاوة الأبدية في الدين والدنيا ، وأما الآداب الحسنة والصفات الفاضلة والأخلاق الزاكية فإنه يحصل بها سعادة الدارين وينال بها المرء الذكر

---

(١) سنن الترمذي ، رقم (١٩٥٢) .

الحسن والمنزلة العالية في مجتمعه وبها يقوم المسلم بالحقوق الواجبة نحو دينه ونحو مجتمعه يؤدي حقوق الله وحقوق عباده وبها يجتنب الأضرار المضرة في دينه وعرضه وتحجزه عما يشينه بين الناس. ولذلك يقول عليه الصلاة والسلام في هذا الحديث : « ما نحل والد ولده أفضل من أدب حسن » .

والابن إذا اتصف بالأدب الحسن والمعاملة الطيبة مع الناس فلابد أن يكون الحظ الأوفر من هذا لأقرب الناس إليه وهم والداه وأبناؤه وأقرباؤه، ولا يتم بر الوالدين من الابن ما لم يكن قد أعطى الأدب الحسن والأخلاق الفاضلة وبالأدب الحسن يعرف حقوقهم وواجباتهم ، وبالأدب الحسن والعلم النافع يعرف عظم حق والديه وأن لا يقف في طريقهما بشيء بطلباته منه من عرض الدنيا، وقد روى الطبراني في الجامع الصغير عن جابر بن عبد الله قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله إن أبي أخذ مالي : فقال رسول الله ﷺ: اذهب فائتني بأبيك ، فنزل جبريل عليه السلام على النبي ﷺ فقال : إن الله يقرؤك السلام ويقول : إذا جاءك الشيخ فسله عن شيء قاله في نفسه ما سمعته أذناه ، فلما جاء الشيخ : قال له النبي ﷺ : ما بال ابنك يشكوك؟ أتريد أن تأخذ ماله ؟ فقال : سله يا رسول الله ؟ هل أنفقه إلا على عماته أو خالاته أو على نفس ؟ فقال النبي ﷺ : إيه ، دعنا من هذا ، أخبرنا بشيء قلته في نفسك ما سمعته أذناك ، فقال الشيخ : والله

يا رسول الله ما يزال الله يزيدنا بك يقينًا ، لقد قلت في نفسي شيئًا ما سمعته أذناي فقال : قل وأنا أسمع ، قال : قلت :

غذوتك مولودًا وعلتك يافعًا تعل بما أجني عليك وتنهل

إذا ليلة ضاقتك بالسقم لم أبت لسقمك إلا ساهرًا أتململ

كأني أنا المطروق دونك بالذي طرقت به دوني فعيناي تهمل

تخاف الردى نفسي عليك وإنها لتعلم أن الموت وقت مؤجل

فلما بلغت السن والغاية التي إليها مدى ما فيك كنت أؤمل

جعلت جزائي غلظة وفظاظة كأنك أنت المنعم المتفضل

فليتك إذ لم ترع حق أبوتي فعلت كما الجار المجاور يفعل

تراه معدًا للخلاف كأنه يرد على أهل الصواب موكل

قال : فحينئذ أخذ النبي ﷺ بتلابيب ابنه ، وقال : « أنت ومالك لأبيك » رواه الطبراني في المعجم الأوسط[1] .

ولكن إذا أهمل الوالد ولده ، ولم يؤدبه ، ولم يمرنه على الأخلاق الفاضلة ، والشيم المرضية ، وتركه سدى مهملاً ، لا يؤمر ولا ينهى ، يذهب حيث شاء ، لا رقيب ولا حسيب ، وهو لا يعرف مصلحة نفسه ،

(١) المعجم الأوسط ، رقم (٦٥٧٠) .

تتقاذفه النزعات ، وتعاوره الشهوات ، ثم يشب على ذلك ، ويعتاده ، ويصعب عليه مفارقته ، فهذه الجناية الأولى مهما كانت من قبل الأب ، لكن إذا أدبه الأدب الشرعي ، وعرفه حق الله أولاً ، ثم حق والديه وأقربائه ، وكره إليه الأمور السافلة ، وبين له أضرارها ، وسوء عاقبتها فإن ذلك سبب قوي من أسباب إصلاحه ، وفلاحه ، وقرة أعين والديه به ، وإن قدر عدم استقامته ، فيعذر الإنسان نفسه ، ولا يتأسف على ما مضى ، ولا يلوم نفسه، ويكون كما قيل :

على المرء أن يسعى إلى الخير جهده   وليس عليه أن تتم المقاصد

اللهم أصلح لنا ذرياتنا ، وأزواجنا ، واجعلهم قرة أعين لنا ، وآتنا في الدنيا حسنة ، وفي الآخرة حسنة ، وقنا عذاب النار .

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه .

* * *

(٣٥)

الحذر من التجسس على الناس وسوء الظن بهم

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : « إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ، ولا تجسسوا ، ولا تحسسوا ، ولا تباغضوا ، وكونوا عباد الله إخوانًا »[1] .

هذا الحديث الشريف من تعاليم الدين الإسلامي ومن إرشاداته ﷺ لأمته التي يحصل بها سلامة الدين وسلامة الصدور وسلامة المجتمع من التفكك والعداوة والبغضاء ، ففيه التحذير من الظن ، والإخبار بأنه من أكذب الحديث ، ومن المعلوم أن الكذب يهدي إلى الفجور ، وأن الفجور يهدي إلى النار كما أخبر المعصوم ﷺ بذلك ، وفيه النهي عن التجسس على الناس ؛ لأن هذا من التعدي على الناس ، ومن إساءة الظن بهم وسبب قوي من أسباب العداوة والبغضاء ، وفيه النهي عن التباغض وعن كل سبب يقرب منه ، فإن التباغض إذا حصل بين المسلمين فسدت ضمائرهم وساءت أخلاقهم وطمع فيهم أعداؤهم وضاعت مصالحهم ، فصلاة الله وسلامه على الناصح الأمين ، لقد أمر ﷺ كل شخص منا أن يشتغل بإصلاح عيب نفسه، ويتجنب التعرض لعيوب الناس ، والتجسس عليهم،

---

(١) صحيح البخاري ، رقم (٦٧٢٤) ؛ صحيح مسلم ، رقم (٢٥٦٣) .

يقول عليه الصلاة والسلام : « طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس » رواه البزار[1] . قال بعض العلماء على هذا الحديث : إنه يجب على المسلم البعد عن التجسس على الناس ، والبحث عن أحوالهم وعيوبهم ، بل يجب الاشتغال بإصلاح عيوب نفسه ، فإن من اشتغل بعيوبه عن عيوب الناس أراح نفسه ولم يتعب قلبه ، فكلما اطلع على عيب لنفسه هان عليه ما يرى من عيوب الناس ، وإن من اشتغل بعيوب الناس عن عيوب نفسه عمي قلبه وتعب بدنه ، وتعذر عليه ترك عيوب نفسه ، وإن من أعجز الناس من عاب الناس بما فيهم ، وأعجز منه من عابهم بما فيه ، ومن عاب الناس عابوه ، ومن ذمهم ذموه ، وقد قيل في هذا المعنى :

إذا أنت عبت الناس عابوا وأكثروا

عليك وأبدوا منك ما كان يستر

وقد قال في بعض الأقاويل قائل

له منطق فيه كلام محبر

إذا ما ذكرت الناس فاترك عيوبهم

فلا عيب إلا دون ما منك يذكر

---

(١) مسند البزار ، رقم (٦٢٣٧) .

فإن عبت قومًا بالذي ليـــس فيهم

فذلك عند الله والناس أكـــــــبر

وإن عبت قومًا بالذي فيك مثلـــه

فكيف يعيب العور من هو أعـــور

وكيف يعيب الناس من عيب نفسه

أشـــد إذا عد العيـــوب وأنكـــر

متى تلتمـــس للنـــاس عيبًا تجد لهم

عيوبًا ولكن الذي فيك أكـــــثر

فســــالمهم بالكــف عنهم فإنهم

بعيبك من عينيـــك أهـــدى وأبصر

وقد روي في الكتب الأولى : كما تدين تدان ، وبالكأس الذي تسقي به تشرب وزيادة ، لأن البادئ لابد له من أن يزاد .

قال بعض العلماء رحمه الله: التجسس من شعب النفاق، كما أن حسن الظن من شعب الإيمان ، والعاقل يحسن الظن بإخوانه ، وينفرد بهمومه وأحزانه،كما أن الجاهل يسيء الظن بإخوانه، ولا يفكر في جناياته وأشجانه.

فعليك أيها الأخ الناصح لنفسه أن تتفقد عيوبك ، وتحرص على

إصلاحها ، وتجتنب عيوب الناس والكلام في أعراضهم ؛ ليسلم لك دينك ومروءتك . وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه .

* * *

(٣٦)

النهي عن كثرة الكلام

يقول النبي ﷺ : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت » رواه البخاري ومسلم[١] .

في هذا الحديث إرشاد من النبي المصطفى ﷺ لأمته في حفظ اللسان وصونه عن الكلام في ما لا خير فيه ، وقد قال النبي ﷺ في الحديث الآخر لمعاذ بن جبل رضي الله عنه : « أخذ رسول الله ﷺ بلسانه ، وقال : كف عليك هذا، فقلت : يا نبي الله ! وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ فقال : ثكلتك أمك، وهل يكب الناس في النار على وجوههم، أو على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم ؟» رواه أحمد والترمذي وقال : حسن صحيح[٢] .

وقد قال بعض العقلاء : الواجب على العاقل أن لا يغالب الناس على كلامهم ، ولا يعترض عليهم فيه ؛ لأن الكلام وإن كان فيه حظوة جليلة فإن الصمت في وقته مرتبة عالية ، ومن نُسب إلى الجهل بسبب صمته فإنه قد يُرمي بالعيّ إذا أسرف في الكلام .

والإنسان إنما هو صورة ممثلة أو ضالة مهملة لولا اللسان ، والله عز

---

(١) صحيح البخاري ، رقم (٦٠١٨) ؛ صحيح مسلم ، رقم (٤٨) .

(٢) مسند أحمد ، رقم (٢٢٠١٦) ؛ سنن الترمذي ، رقم (٢٦١٦) .

وجل رفع درجة اللسان على سائر الجوارح ، فليس بشيء منها أعظم أجرًا منه إذا أطاع ، ولا أعظم ذنبًا إذا جنى .

ويروى عن الإمام مالك رحمه الله أنه قال : كل شيء يُنتفع بفضله إلا الكلام ، فإن فضله يضر . وقد قيل في هذا المعنى :

لئن كان يجني اللوم ما أنت قائل ولم يك منه النفع فالصمت أيسر

فلا تبد قولا من لسانك لم يرض مواقعه من قبل ذاك التفكر

ويروى عن الأحنف بن قيس أنه قال : الصمت أمانٌ من التحريف للفظ ، وعصمةٌ من زيغ المنطق ، وسلامةٌ من فضول الكلام ، وهيبةٌ لصاحبه .

وقال أبو حاتم رحمه الله : الواجب على العاقل أن يلزم الصمتَ إلى أن يلزمه الكلام ، فما أكثر من ندم إذا نطق ، وأقل من يندم إذا سكت . وأطول الناس شقاء ، وأعظمهم بلاء من ابتلي بلسان منطلق[1] ، وقلب منطبق ، لا يحسن أن يتكلم ، ولا يستطيع أن يسكت ، وقد قيل في المعنى :

ما ذل ذو صمت وما من مكثر إلّا يزل وما يعاب صموت

إن كان منطق ناطق من فضة فالصمت در زانه الياقوت

يروى أن شابًا كان يحضر مجلس عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ويحسن

---

(١) روضة العقلاء ١/ ٤٣ .

الاستماع ، ثم ينصرف من قبل أن يتكلم ، ففطن له عمر ، فقال له : إنك تحضر مجلسنا ، وتحسن الاستماع ، ثم تنصرف من قبل أن تتكلم ؟ فقال الشاب : إني أحضر فأتوقى ، وأتنقى ، وأصمت ، فأسلم .

ويروى عن الأوزاعي رحمه الله أنه كان يقول : ما بلي أحد في دينه ببلاء أضر عليه من طلاقة لسانه .

قال أبو حاتم رحمه الله : لسان العاقل يكون وراء قلبه ، فإذا أراد القول رجع إلى القلب ، فإن كان له تكلم ، وإلّا فلا ، والجاهل قلبه في طرف لسانه ما أتى على لسانه تكلم به ، وما عقل دينه من لم يحفظ لسانه[1] .

وروي عن عبد الله بن مسعود ﵁ أنه قال : والله الذي لا إله غيره ما شيء أحق بطول سجن من لسان .

وكان بعض العلماء رحمهم الله من أهل الحديث إذا رأى الرجل كثير الكلام لم يكتب عنه الحديث وإن كان من أهله ، احتياطًا للحديث ، وخوفًا من الزيادة فيه ممن هذا وصفه .

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

* * *

---

(١) روضة العقلاء ١ / ٤٧ .

(٣٧)

النهي عن التبذير

روى الإمام أحمد والنسائي وابن ماجه والبخاري تعليقًا عن عمرو ابن شعيب عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله ﷺ : « كلوا واشربوا وتصدقوا في غير إسراف ولا مخيلة »(١) .

هذا الحديث من الآداب الشرعية التي أدب بها ﷺ أمته وعلمها إياه ، فعلى المسلم الاقتداء والاهتداء بهديه ﷺ في جميع ما يأمر به أو يعلمه أو يفعله ، فإن فيه الخير والبركة والسعادة العاجلة والآجلة ، فهذا التعليم منه ﷺ في هذا الحديث يرشد إلى بيان استعمال المال في الطرق النافعة في دين المرء ودنياه ، وعدم استعماله فيما يعود بالضرر العاجل ، وذلك أن الله سبحانه أمر بالسعي في الأرض لطلب الرزق الحلال الطيب من طرقه التي شرعها الله لعباده ، من عمل بيد ، أو بيع ، أو شراء ، أو سعي في الأرض ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾ [المزمل:٢٠] ، وقال عز وجل : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة:١٠] ، ولما سئل ﷺ عن أفضل أنواع الكسب قال : «عمل الرجل بيده وكل بيع مبرور»

---

(١) مسند أحمد ، رقم (٦٦٩٥) ؛ سنن النسائي ، رقم (٩٥٥٩) ؛ سنن ابن ماجه ، رقم (٣٦٠٥) ، البخاري تعليقًا في كتاب اللباس ٧/ ١٤٠ .

رواه أحمد والطبراني والحاكم[(١)] . والبيع المبرور هو ما سلم من الغش والخداع والأيمان الكاذبة .

فالحاصل أنه ﷺ أمر بالاعتدال في النفقة ، وفي الكسوة ، والصدقة ، وأنه ينبغي للمسلم أن يكون معتدلاً في جميع شئونه في طلب الرزق وتحصيله ، وفي النفقة فيه ، والتصرف بمآله ، ولذلك نهى سبحانه وتعالى في عدة آيات عن الإسراف والتبذير ، وأخبر سبحانه أن المبذرين كانوا إخوان الشياطين .. وقال سبحانه : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ [الإسراء:٢٩] .

واعلم أن كثرة الأكل شؤم ، وقد كان العلماء من الصحابة وغيرهم يحذرون منها ، وينفرون من أصحابها ، ولا يحبون مجالسة من عرف بها .

روى مسلم عن نافع قال : رأى ابن عمر رضي الله عنهما مسكينًا فجعل يضع بين يديه ، ويضع بين يديه ، فجعل يأكل كثيرًا ، فقال : لا يدخلن هذا عليَّ ، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الكافر يأكل في سبعة أمعاء »[(٢)] .

وروى البخاري رحمه الله أن رجلاً كان يأكل أكلاً كثيرًا فأسلم فكان

---

(١) مسند أحمد ، رقم (١٧٢٦٥) ؛ المعجم الكبير للطبراني ، رقم (٤٤١١) ؛ المستدرك على الصحيحين ، رقم (٢١٥٨) .

(٢) صحيح مسلم ، رقم (٢٠٦٠)

يأكل أكلاً قليلاً ، فذُكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال : « إن المؤمن يأكل في معى واحد ، والكافر يأكل في سبعة أمعاء »[١] .

وفي رواية لمسلم قال : « أضاف رسول الله ﷺ ضيفًا كافرًا ، فأمر له رسول الله بشاة ، فحلبت ، فشرب حلابها ، ثم بأخرى ، فشرب حلابها ، ثم بأخرى ، فشرب حلابها ، حتى شرب حلاب سبع شياه ، ثم إنه أصبح فأسلم ، فأمر له النبي ﷺ بشاة فشرب حلابها ، ثم بأخرى فلم يستتمه ، فقال ﷺ : « إن المؤمن يشرب في معى واحد ، وإن الكافر يشرب في سبعة أمعاء »[٢] .

وروى الإمام أحمد وابن حبان وابن ماجة والترمذي وحسنه عن المقدام بن معدي كرب رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «ما ملأ آدمي وعاء شرًا من بطنه ، بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه ، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنَفَسِه »[٣] .

وأخرج ابن ماجة والبيهقي والترمذي وحسنه عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : تجشأ رجل عند رسول الله ﷺ فقال : « كف عنا جشأك فإن

---

(١) صحيح البخاري ، رقم (٥٣٩٧) .

(٢) صحيح مسلم ، رقم (٢٠٦٣) .

(٣) مسند أحمد ، رقم (١٧١٨٦) ؛ صحيح ابن حبان ، رقم (٦٧٤) ؛ سنن ابن ماجه ، رقم (٣٣٤٩) ؛ سنن الترمذي ، رقم (٢٣٨٠) .

أكثرهم شبعًا في الدنيا أطولهم جوعًا يوم القيامة »[(١)] .

قال الإمام ابن القيم رحمه الله في الهدي النبوي : مراتب الغذاء ثلاثة : أحدها : مرتبة الحاجة . والثانية : مرتبة الكفاية . والثالثة : مرتبة الفضيلة . فأخبر ﷺ أنه يكفيه لقيمات يقمن صلبه ، فلا تسقط قوته ولا يضعف جسمه ، فإن تجاوزهما فليأكل بثلث بطنه ويدع الثلث الآخر للماء ، والثالث للنفس . وهذا أنفع للبدن والقلب فإن البدن إذا امتلأ من الطعام ضاق عن الشراب ، فإذا ورد عليه الشراب ضاق عن النفس ، وعرض له الكرب والتعب ، يحمله بمنزلة الحمل الثقيل ، هذا مع ما يلزم ذلك من فساد القلب وكسل الجوارح عن الطاعات والعبادات ، فالامتلاء مضر للقلب والبدن. هذا إذا كان دائمًا ، وأما إذا كان في الأحيان فلا بأس به[(٢)] ، كما في حديث أبي هريرة وجاء أن الصحابة رضي الله عنهم مرارًا يشبعون بحضرته ﷺ، فهذا بعض منافع تقليل الغذاء وترك التملي من الطعام بالنسبة إلى صلاح البدن وصحته ، وأما منافعه بالنسبة إلى القلب وصلاحه فإن قلة الغذاء توجب رقة القلب ، وقوة الفهم ، وانكسار النفس ، وضعف الهوى والغضب. وكثرة الغذاء توجب ضد ذلك .

واعلم أن المراد من تقليل الغذاء هو في حد لا يحصل منه ضرر على

---

(١) سنن ابن ماجه ، رقم (٣٣٥١) ؛ الآداب للبيهقي ، رقم (٤٦٢) ؛ سنن الترمذي ، رقم (٢٤٧٨).

(٢) الطب النبوي لابن القيم ١/ ١٦ .

البدن ، فإن وصل إلى حد الإضرار بالبدن فإنه منهي عنه ؛ لأنه يلزم من ذلك التقصير عن القيام بالواجبات من حقوق الله سبحانه وحقوق عباده . روي عن الإمام أحمد رحمه الله أنه قيل له : هؤلاء الذين يأكلون قليلاً ويقللون طعامهم ، قال : ما يعجبني ، سمعت عبد الرحمن بن مهدي يقول: فعل قوم هكذا فقطعهم عن الفرض ، كما أن التقلل إذا تجاوز المشروع ربما دخل في التنطع[١] ، وجاء في الحديث : «هلك المتنطعون»[٢] وهم المبالغون في الأمور . ومن التنطع الامتناع عن المباحات كالذي يمتنع من أكل اللحم والخبز أو لبس الكتان أو شرب الماء البارد أو يمتنع من نكاح النساء وما أشكل ذلك ، ويزعم أن ذلك من الزهد المستحب ، وذلك جهل منه ، كما قال ذلك شيخ الإسلام وغيره ، وقد قال سبحانه وتعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا ﴾ [المؤمنون:٥١].

وفي الصحيحين : « أن نفرًا من أصحاب النبي ﷺ قال أحدهم : أنا أصوم ولا أفطر ، وقال الآخر : أما أنا فأقوم ولا أنام ، وقال الآخر : أما أنا فلا أتزوج النساء، وقال الآخر: أما أنا فلا آكل اللحم، فقام النبي ﷺ خطيبًا فقال: ما بال رجال يقول أحدهم كذا وكذا، لكني أصوم وأفطر وأقوم وأنام، وأتزوج النساء، وآكل اللحم، فمن رغب عن سنتي فليس مني»[٣] .

---

(١) تلبيس إبليس ١/ ١٩٢ .

(٢) صحيح مسلم ، رقم (٢٦٧٠) .

(٣) صحيح البخاري ، رقم (٥٠٦٣) ؛ صحيح مسلم ، رقم (١٤٠١) .

فهذا هديه ﷺ فليس فيه إفراط ولا تفريط ، ولا غلو ولا جفاء، وطريقه ﷺ هو الطريق الأقوم ، الجامع لمصلحة الدين والدنيا ، فمن فهم سيرته علم أنه ﷺ لم يمتنع عن أكل الأشياء الطيبة عند حضورها لديه ، لكنه لا يهتم لذلك كما يفعله أهل الترف ويسعى وراءها ، بل ما يحضره يأكله ، فقد ذكر ابن القيم رحمه الله في الهدى أن النبي ﷺ أكل لحم الجزور والضأن والدجاج ولحم الحبارى ولحم حمار الوحش والأرنب وطعام البحر ، وكذلك قد ورد أنه ﷺ أكل لحم الحجل ، وكان ﷺ يحب الحلوى والعسل ، ويأكل القثاء والتمر والزبيب ، ولم ينه عن شيء من أنواع الطعام إلا ما له رائحة تؤذي الناس كالثوم والبصل وإنما نهى وحذر من الانهماك في الشهوات ، واتخاذ اللذات ديدنا ، كما فعله المترفون ، وكذلك أمر بالتقلل من الطعام ، والاقتصاد في ذلك ، كما قال ﷺ في هذا الحديث : « كل واشرب والبس وتصدق من غير سرف ولا مخيلة » .

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه .

* * *

(٣٨)

الإيمان أساس الأعمال

قال الله عز وجل : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ﴾ [البينة:٥] ، ويقول سبحانه وتعالى : ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾ [البقرة:١٣٦] .

وقال جل شأنه : ﴿ لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [البقرة:١٧٧] .

هذه الآيات ونحوها تبين لنا معنى الإيمان ، وتوضح لنا قواعد الدين، وترسم لنا طريقه المستقيم ، وتبين ما يجب لله على عباده .

واعلم أن أهم ما تجب معرفته من أمور الدين هو معرفة التوحيد، الذي هو إفراد الله بالعبادة ، التي لم يخلق الخلق إلا من أجلها ، فالحكمة من خلق الجن والإنس هي عبادة الله . قال الله عز وجل : ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴾ [الذاريات:٥٦] ، ومعنى يعبدون : يوحدون .

فإذا علمت أن التوحيد هو إقرار الله بالعبادة ، فاعلم أن التوحيد

ينقسم إلى ثلاثة أقسام : توحيد الربوبية ، وتوحيد الألوهية ، وتوحيد الأسماء والصفات .

فتوحيد الربوبية : هو الاعتراف والإقرار بأفعاله سبحانه وتعالى ، وأن لا يضاف شيء منها إلى غيره ، وذلك كالخلق ، والرزق ، والإحياء ، والإماتة ، ونحو ذلك ، مما هو فعله سبحانه لا شريك له ، ولا معين ، ولا ظهير ، بل هو المتصرف سبحانه وتعالى ، وهذا النوع من أنواع التوحيد قد أقر به المشركون ، واعترفوا لله به ، ولكنهم لم يستجيبوا لدعوة الرسول بالنوع الثاني من أنواع التوحيد ، وهو توحيد العبادة ، الذي بعث الله به الرسل ، وأنزل به الكتب ، قال الله عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل:٣٦] ، ولذلك لما أمرهم ﷺ بذلك ، أي بعبادة الله وحده لا شريك له ، والكفر بجميع الآلهة التي تعبد من دون الله ، شق ذلك عليهم ، وقالوا : ﴿ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص:٥] ، ثم إن الله سبحانه أمر نبيه أن يجادلهم ، ويحتج عليهم بما هم معترفون به لله لا يشركون به أحدًا غيره ، فلذلك قال الله عز وجل لنبيه محمد ﷺ : ﴿ قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ

تَعۡلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ ﴾ [المؤمنون:٨٤-٨٩] ، فيأمر الله عز وجل نبيه ﷺ أن يقول لهم : ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [يونس:٣] أي كيف تعلمون ، وتقرون أن الله هو الذي خلق الأرض وما فيها ، ومن فيها ، وأنه ليس له شريك في ذلك ، ثم أنتم تعبدون غيره ، وتخضعون، وتذلون لغيره، وهو الذي خلق هذه الأشياء بما فيها تلك الأوثان التي تعبدونها من دون الله ، أفلا تذكرون وترجعون إلى أنفسكم وتعلمون أن من هذا فعله فهو المستحق للعبادة وحده لا شريك له .

ثم قال عز وجل : ﴿ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [المؤمنون:٨٦-٨٧] ، أي : ألا تتقون الله، وتخشون عقابه، وتجعلون بينكم وبين عذابه وقاية تقيكم إياه، وتؤمنكم من سخطه عليكم، وما هذه الوقاية؟ إنها عبادته وحده لا شريك له ، وامتثال أوامره ، والعمل بما يأمر به نبيه ﷺ ، فالذي خلق هذه السماوات السبع هو ربها ومالكها ، وخالق هذا العرش العظيم مالكه ، والجميع تحت قبضته سبحانه ، وتصرفه، ليس له فيه شريك ، ولا معين ، ولا ظهير ، إنه عز وجل هو المستحق للعبادة دون من سواه .

ثم قال عز وجل : ﴿ قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ ﴾ [المؤمنون:٨٨-٨٩] أين عقولكم ؟ كيف سلبت المعرفة والاستدلال منها ؟

هل أنتم مسحورون ؟ أين التفكير الصحيح؟ أين العقل السليم؟ أين المعرفة الصائبة؟ ألا ترجعون إلى ربكم ، وإلى عبادته وحده ، وتنبذون جميع الآلهة التي لا تملك لكم ضرًا ولا نفعا !! بل ولا تملك لأنفسها نفعا ، كما قال سبحانه : ﴿ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [الزمر:٣٨] فإذا كنتم تعرفون أن الله هو الذي خلق الأرض ومن فيها ، وخلق السماوات السبع ، وهو ربها ، ومالكها ، ومدبرها ، وما هو أعظم منها ، وهو عرشه العظيم الذي هو أعظم المخلوقات ، وأقربها إلى ربها، وأوسعها ، ثم هو سبحانه بيده ملك كل شيء، وكل شيء تحت تصرفه ، وهو الذي يجير ، ولا أحد يستطيع أن يجير عليه ، فهذا هو الذي يستحق أن يعبد ، فكما أقررتم له بهذه المخلوقات ، وأنه هو ربها ، ومالكها ، ومن جملتها أنتم وما تعبدون ، فلم لا تعبدونه حق عبادته ، وتقدرونه حق قدره ؟ ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الزمر:٦٧] .

نسأله سبحانه أن يلهمنا جميعا رشدنا ، ويقينا شر أنفسنا ، وأن يهدينا إلى الصراط المستقيم .

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه .

(٣٩)

من ثمرات الإيمان

إن الإيمان متى خالطت بشاشته القلوب ، وتمكن منها ، وظهر على الأبدان والجوارح ، حصل للمتصف به الطمأنينة الكاملة ، والأمن ، والاستقرار في كل أحواله ، وفي كل زمان ، فمهما كان فيه من المكدرات أو المنغصات فإنها لا تزعجه ، ولا تكدره ، بل هو مطمأن البال ، متلذذ بما هو فيه من نعيم الروح ، الذي لا يعدله نعيم ، نعيم عاجل قد تعلق قلبه بالله ، فعمله لله وبالله .

إن تكلم فبنور من الله ، وإن عمل فعلى نور من الله ، قد امتلأ قلبه أمنا، وإيمانا ، ويقينا ، ونورًا ، وهداية ، وتعبدًا لله ، وإنابة له في كل أحواله ، وتضرعًا إليه ، ولجوءًا إليه في كل مهماته ، وما ينزل به من النوازل ، مطمأنا إلى خالقه وبارئه ، مديمًا لذكره بقلبه ، وبلسانه ، وجوارحه ، مستعينًا به في مزاولة أعماله الدينية ، والدنيوية .

قد أمده هذا الإيمان الصادق بقوة وشجاعة في قلبه، فإذا قوى قلبه فإن الجوارح تابعة له ، وهو ملكها ، فتحصل القوة في الجوارح قوة على طاعة الله ، وقوة الصبر والتحمل في سبيله ، وقوة وبصيرة نافذة عند ورود الشبهات ، لا يلتبس عليه الحق بالباطل ، ولا الصدق بالكذب ، ولا يضعف أمام التهديدات والمخاوف ، بل صار له هذا الإيمان حصنًا منيعًا ،

يطمئن قلبه إليه ، وتسكن نفسه ، كما قال عز وجل في وصف عباده المؤمنين ووصف رسوله الكريم : ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾ [آل عمران:١٧٣-١٧٤].

فهذه القوة ، وهذه الشجاعة ، وهذا الاعتماد على الله من ثمرات الإيمان ، ومن قوته في القلوب .

ومن ثمراته : أنه يقوي الرغبة في فعل الخير ، والتزود من الأعمال الصالحة فترى صاحبه يكثر من الصدقة والبر والإحسان إلى الخلق ، والتلطف بهم ولهم ، ويكثر من الأعمال الصالحات ، يحافظ على المفروضات في أوقاتها ، وجميع ما يجب لها ، ويحافظ على السنن ، وفعل المستحبات يقويها عليه إيمانه ورغبته ورجاؤه لما عند ربه .

ومن ثمرات الإيمان : الكف عن الشرور والمعاصي والذنوب وجميع الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ويبتعد ويحذر من كل رذيلة ، ومن كل ما يكون سببًا لبعده عن إلهه وخالقه .

قال الله عز وجل : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾

[الأنفال:٢-٤] .

ففي هذه الآية الكريمة بيان ما يثمره الإيمان من أعمال القلوب والجوارح ، والقيام بحق الله ، وحق الخلق ، فهذه الأخلاق الحميدة ، والأوصاف الكريمة ، هل يتوصل إليها بغير الإيمان ؟ وهل يعصم العبد من انحلال الأخلاق المؤدية إلى الهلاك إلا هذا الإيمان الصادق؟ !!

ومن ثمرات الإيمان : أنه يصون النفوس والأخلاق عن الهبوط إلى المستوى الرذيل ، من الأمور المادية، والشهوات البهيمية ، والأخلاق السيئة ، هذه الأخلاق التي أهلكت الكثيرين ممن فقدوا روح الإيمان .

ومن ثمرات الإيمان : تثبيت القلوب وطمأنينتها ، وسكون النفس عند وروود المزعجات ، والمكدرات ، والمكروهات ، التي هي من طبيعة هذه الحياة ، ولا ينفك عنها أحد من البشر ، كما قال عز وجل : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴾ [البلد:٤] ، وكما يقول الشاعر في هذا المعنى :

طبعت على كدر وأنت تريدها صفوا من الأقذار والأكدار

ومكلف الأيام ضد طباعها متطلب في الماء جذوة نار

ومن ثمرات الإيمان : القناعة والرضا بما قسم الله من الرزق ؛ لأن المؤمن يعلم أن ما يقدر له لن يفوته ، وما لم يقدر له لن يناله ، فهو في راحة ، وفي طمأنينة ، إن جاءه خير حمد الله عليه ، وأيقن أنه من عنده ، وإن فاته

شيء لم يتلهف على فواته ، ولم يهتم ، ويغتم من أجل فواته .

ومن ثمرات الإيمان: اتصاف العبد بالصدق ، والوفاء في أقواله ، وأفعاله ، ومعاملاته ، واتصافه بالأمانة والشرف في معاملاته ، ووعوده ، والتزماته ، فإيمانه يحمله على الوفاء بكل ما يلتزم به ، وبذلك يكتسب الثناء الجميل ، والذكر الحسن ، ويكون موضع ثقة عند من عرفه ، وينال الأجر الوافر من الله ، والتوفيق والسداد في جميع أعماله .

وبالجملة فإن الإيمان هو الأساس الذي يبنى عليه كل عمل جليل، وكل خلق جميل .

والمؤمن يتبع هذا القرآن الكريم الذي قال الله في وصفه : ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء:٩] للتي هي أقوم في كل شيء : في العقائد ، والمعاملات ، والسلوك ، والسيرة الحسنة .

اقرأ قوله سبحانه عز وجل : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل:٩٠] ، واقرأ قوله عز وجل من سورة الإسراء : ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ

لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ [الإسراء:٢٣-٢٦] إلى آخر الآيات التي ختمت بقوله سبحانه : ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء:٣٩] والآيات في مثل هذه المعاني كثيرة معلومة.

رزقنا الله وإياكم الإيمان الصادق ، والعمل النافع ، والإخلاص ، وحسن الاتباع لهدي المصطفى صلى الله عليه ، وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرًا .

* * *

(٤٠)

من محاسن الإسلام

الإسلام هو المنهج القويم ، والصراط المستقيم ، هو طريق الحق الذي رضيه الله لنا ، واختاره سبحانه لعباده ، اختاره لهم لما فيه من المزايا التي لا توجد في سواه، اختاره ورضيه لنا دينًا ؛ لأنه شرعُه الذي شرعه لعباده ، شرعه الخالق العليم الذي خلق البشر ، ويعلم ما يصلحهم ، وما يسعدهم ، وما تقوم به حاجاتهم .

جعله صالحًا لجميع البشر في كل حين ، وفي كل مكان ، ولكل جنس مهما اختلفت بلادهم ، أو ألوانهم ، أو ألسنتهم .

انظر إلى ما يرسمه لك القرآن الكريم من الأخلاق النبيلة ، والتعاليم الجليلة ، اقرأ قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل:٩٠] .

يأمر بالعدل : وهذه الكلمة جامعة شاملة لأنواع العدل ، العدل فيما بينك وبين الله ، وهو أن تعلم أنه الخالق الرازق والمنعم على جميع الخليقة ، تعلم أنه واحد في ألوهيته ، فتصرف جميع أنواع العبادة له وحده لا شريك له ، فلا تلتفت بقلبك إلى أحد سواه ، ولا تعدل به أحدًا غيره ، كما قال

سبحانه ، ردا على الكفار الذين لم يعدلوا في حقه سبحانه ، بل عدلوا عنه إلى سواه ، وعدلوا به غيره ، فقال سبحانه مثنيًا على نفسه ، وحامدًا لها ، وهو المستحق لجميع أنواع المحامد جل وعلا : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأنعام:١] أي : ألا يتفكر أولئك الذين يعلمون أن الله هو الذي خلق السموات والأرض ، وهو الذي جعل الظلمات والنور ، ومع هذه الدلائل الواضحات البينات التي أقر بها المشركون مع هذا كله الذين كفروا بربهم يعدلون به غيره ، فيجعلون له نصيبًا من العبادة ، يدعونه ، ويرجونه ، وينذرون له ، ويخافونه، ويرهبون منه ، أفلا يعقل أولئك كيف يسوون الخالق بالمخلوق!! كيف يجعلون له عدلًا وندًا ، وهم يعلمون أنه لا ند له ، ولا عدل له ، يقول سبحانه : ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٢] تعلمون أنه الخالق الرازق، وأنه ينزل لكم المطر ، فينبت لكم به من الثمرات رزقًا لكم ، وأنه هو خالقكم ، وخالق مَنْ قبلكم .

فالواجب عليكم أن تتفكروا ، وتتذكروا ، وتفرقوا بين من يخلق ، ومن لا يخلق ، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل:١٧].

فمن علم أن الله وحده هو الخالق ، وأنه وحده هو المحيي ، وهو المميت ، وهو الذي خلق السموات والأرض ، وهو الذي ينزل الغيث ،

وينبت النبات ، ويخرج جميع أنواع الثمار والزروع لكم ، ولأنعامكم ، فمن صرف العبادة لغيره فقد أشرك بالله ، وهذا دليل على قلة الفهم وقلة التفكر والتذكر .

وإلا فإذا علم العبد أن الله هو الخالق لهذه الأشياء كلها ، فلابد أن يصرف له جميع أنواع العبادة ، كما قال الإمام ابن كثير رحمه الله لما تكلم على الآيات الدالة على توحيد الربوبية ، وخلقه سبحانه للسماوات والأرض ، والجبال والبحار ، وأمثال ذلك ، قال رحمه الله : الخالق لهذه الأشياء هو المستحق للعبادة ، ولا شك أن من لم يصرف العبادة لخالقه ورازقه ، فهو لم يقم بالعدل الذي أمره الله به في قوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ ﴾ [النحل:٩٠].

ودين الإسلام هو الدين الذي تكفل الله عز وجل لأتباعه بالسعادة في الدنيا والآخرة ، وهو الدين الذي يسمو بأتباعه العاملين به إلى الرفعة والعزة والخلق الكريم ومعالي الأمور وخيراتها .

وهذا الأمر أدركه الناس حتى من غير المسلمين ، وقد عرف ذلك كثير من عقلاء العرب في الجاهلية ، عندما سمعوا بدعوة المصطفى ﷺ عرفوا أنه حق ، وأنه يدعو إلى حق ، كما وقع للأحنف بن قيس وغيره ، وكما قال هرقل حينما قص أبو سفيان خبر الرسول ﷺ قال : «لئن كان كما تقول ليملكن موضع قدمي هاتين»[1] . ومقالة الأحنف بن قيس مشهورة

(١) صحيح البخاري ، رقم (٧) .

حينما أخبروه بما يدعوا إليه رسول الله ﷺ فقال لقومه : يا قوم إن هذا الرجل يدعو إلى مكارم الأخلاق ، فكونوا في هذا الأمر رؤوسًا ، ولا تكونوا أذنابًا.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

❊ ❊ ❊

(٤١)

الدين يسر

إن دين الإسلام دين اليسر والرفق ، ليس فيه حرج ولا ضيق ولا مشقة ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج:٧٨]، وكما قال جل شأنه : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة:٢٨٦] ، وقال سبحانه وتعالى : ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾ [التغابن:١٦].

وشرائع الإسلام ليس فيها ما يشق ولا ما يعجز عنه العبد ، ولهذا لما ذكر الله فرض الحج على الناس قيده بالمستطيع ، فقال سبحانه وتعالى : ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ [آل عمران:٩٧].

وقد فرض الله على عباده بعد الشهادتين الصلاة والزكاة والصوم والحج ، وما زاد على ذلك فهو تطوع يثاب على فعله العبد ، ولا يعاقب على تركه .

أما الصلاة المفروضة فهي خمس صلوات في اليوم والليلة فقط .

وأما الزكاة فإنها ربع عشر ما يملكه العبد من النقدين إذا تم له الحول عنده ، أو نصف العشر إذا كان من الحبوب والزروع ، أو العشر كاملًا إذا كان سقيه لا يحتاج إلى مؤنة وكلفة كالعثري ، وما يسقى بالأنهار والعيون .

والصيام المفروض منه شهر رمضان فقط .

والحج في العمر مرة واحدة .

فكل هذا والحمد لله في غاية السهولة واليسر لمن سهله الله عليه ، وكان مؤمنًا حقًا بالله ، يرجو ثواب الله ، ويخاف عقابه .

أما المنافق الذين ليس بمؤمن ، وإنما إيمانه بلسان فقط ، فكل شيء يشق عليه ؛ لأنه لا يرجو ثوابًا ، ولا يخشى عقابًا ، ولهذا أشق ما على المنافقين أداء الصلاة ، كما قال سبحانه وتعالى في وصفهم : ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء:١٤٢] .

أما المؤمنون الذين آمنوا بالله ، وصدقوا رسله ، فإنهم يؤدون عباداتهم بنشاط وفرح ؛ لما يرجون من الثواب عند الله ؛ ولتصديقهم بوعده ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [المؤمنون:١-١١].

فوعدهم سبحانه وتعالى جزاء عملهم من أداء الواجبات وترك

المحرمات بهذا الفضل العظيم ، وهو حصول الفردوس لهم ، وجنة الفردوس هي أعلى الجنة ، ومنها تفجر أنهار الجنة ، فإذا قام العبد بما أوجب الله عليه ، واجتنب ما حرم الله عليه ، حصل له هذا الثواب العظيم ، ولهذا قال ﷺ في حجة الوداع : « أيها الناس اتقوا الله ، وصلوا خمسكم ، وصوموا شهركم ، وأدوا زكاة أموالكم ، وأطيعوا ذا أمركم تدخلوا جنة ربكم » رواه الترمذي وحسنه وابن حبان والحاكم[(١)] .

وأخرج الإمام أحمد عن ابن المنتفق قال : أتيت النبي ﷺ وهو بعرفة فقلت : ثنتان أسألك عنهما : ما ينجيني من النار؟ وما يدخلني الجنة؟ قال : فنظر رسول الله ﷺ إلى السماء ، ثم نكس رأسه ، ثم أقبل عليَّ بوجهه ، قال : لئن كنت أوجزت في المسألة لقد أعظمت وأطولت ، فاعقل عني إذًا : اعبد الله لا تشرك به شيئًا ، وأقم الصلاة المكتوبة ، وأد الزكاة المفروضة ، وصم رمضان ، وما تحب أن يفعله بك الناس فافعله بهم ، وما تكره أن يؤتى إليك ، فذر الناس منه »[(٢)] .

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

* * *

---

(١) سنن الترمذي ، رقم (٦١٦) ؛ صحيح ابن حبان ، رقم (٤٥٦٣) ؛ المستدرك على الصحيحين للحاكم ، رقم (٦٧٤١) .

(٢) مسند أحمد ، رقم (٢٤١٥٣) .

(٤٢)

من صفات المنافقين

النفاق هو إظهار الخير وإبطان الشر ، إظهار الإسلام وستر الكفر ، والمنافق أعظم خطرًا وأشد كفرًا من الكافر المعلن لكفره ، فإن الكافر يحذره المسلمون ، ومعلوم لدى الجميع ، ولكن المنافق يخادع ، ويغش ، ويظهر النصح ، ويتربص بالمسلمين الدوائر .

وكما يختلف ويتفاوت المؤمنون في إيمانهم ، فإن المنافقين يتفاوتون في نفاقهم ، فمنهم أئمة الكفر ، وقاعدة المنافقين ، يخططون لهم ، ويبثون رسلهم بين المسلمين ؛ ليحصلوا على أخبارهم كلها ؛ ليحبطوا ما يستطيعون من الخطط التي يحكمها المسلمون ضد المشركين وأعداء الدين .

فنجد أن المنافقين الذين في زمن الرسول ﷺ إذا اجتمعوا مع أصحاب النبي ﷺ أظهروا الإسلام ، وقالوا : نحن معكم ، ونحن المؤمنون ، ونؤمن بالله واليوم الآخر ، ولكنهم عندما يجتمعون بكبرائهم من المنافقين وعند من يعلمون أنه لا يوجد من بينهم مؤمن ، يتندرون بالمؤمنين ، ويسخرون منهم ، ويستهزؤن بهم ، ويفخرون بهذه الصفة المذمومة عند قومهم من المنافقين ، كما قال سبحانه وتعالى في وصف حالتهم هذه : ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾ [البقرة:١٤] ، فقال الله سبحانه وتعالى : ﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ

﴿... يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة:١٥] .

والله عز وجل ذكر في القرآن كثيرًا من أوصافهم ، التي يتصفون بها في سورة البقرة ، وفي سورة التوبة ، وفي سورة المنافقين ، وغيرها ، وقال سبحانه وتعالى في سورة محمد : ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد:٣٠] .

فالنبي ﷺ يعلم الكثير من المنافقين ويجوز عليه ﷺ أن يخفى عليه بعضهم ؛ لأن النفاق الاعتقادي محله القلب ، ولا يعلم ما في القلوب إلا علام الغيوب ، وهو الله عز وجل ، كما قال سبحانه وتعالى في سورة التوبة: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ [التوبة:١٠١] .

ففي الآية الكريمة التصريح بأن الرسول ﷺ لا يعلمهم ، ولكن يعلمهم الله ، الذي لا تخفى عليه خافية ، وهو سبحانه الذي يعلم السر وأخفى .

ومع هذا فإن الله سبحانه وتعالى قد أطلع نبيه على كثير منهم ، كما حصل ذلك في غزوة تبوك ، حينما قفل راجعًا منها ، عليه الصلاة والسلام ، وصعد في الليل مع عقبة كانت في الطريق ، وتمالأ عليه مجموعة من المنافقين قد ركبوا رواحلهم ، وتلثموا ؛ حتى لا يعرفوا ، فنزل الوحي عليه ﷺ حينما

همُّوا بهذا العمل السيء ، وهو أنهم أرادوا أن ينفروا به بعيره؛ ليسقط منه في هذه العقبة ، فأمر النبي ﷺ عمار ابن ياسر وحذيفة بن اليمان أن يمشيا معه ، عمار آخذ بزمام الناقة ، وحذيفة يسوقها ، فبينما هم يسيرون، إذ سمعوا بالقوم قد غشوهم ، فغضب رسول الله ﷺ ، وأبصر حذيفة غضبه ، فرجع إليهم ومعه محجن ، فاستقبل وجوه رواحلهم بمحجنه ، فلما رأوا حذيفة ظنوا أنه قد أظهر على ما أضمروه من الأمر العظيم ، فأسرعوا حتى خالطوا الناس ، ثم إن النبي ﷺ سأل حذيفة : هل عرفتهم ؟ فقال : لا ، فأخبره ﷺ بأسمائهم ، ولهذا يقال لحذيفة : صاحب السر ؛ لأن الرسول ﷺ أخبره بهم سرًا[(١)] .

والمقصود من ذكر بعض صفات المنافقين أن يتنبه المسلم ، ويحذر من أن يتصف بشيء منها ، فإن المسلم العاقل يكون حذرًا من الوقوع فيما يبغض الله ؛ ولذلك كان أصحاب رسول الله ﷺ يحذرون من النفاق ، ويخافون من أن يقعوا في شيء منه ، وهم لا يعلمون ؛ وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يخاف من ذلك مع قوة إيمانه ، ومحبة الرسول ﷺ له ، وشهوده له بالجنة ، وإشارة المصطفى ﷺ إلى توليه أمر المسلمين ، وقيامه به أحسن قيام ، كما في الرؤيا التي قصها ﷺ على الصحابة ، ومع هذا كله فقد كان حذرًا ، خائفًا من النفاق ، فقد قال لحذيفة ﵁ : أسألك بالله ، هل

---

(١) انظر السيرة النبوية لابن كثير ٤/ ٣٤ .

سماني لك رسول الله من المنافقين ؟ قال : لا ، ولا أزكى بعدك أحدًا[1] .

وقد جاء أن النفاق ما أمنه إلا منافق ، وما خافه إلا مؤمن ، فالمؤمن لتفقده نفسه ، ومحاسبته لها ، وحذره وخوفه من الله ، يخشى أن يدخل عليه أمر من الأمور التي تنقص إيمانه ، وبهذا الحذر الشديد والخوف يكون يقظًا حذرا ، فيسلم مما يخاف منه .

أما المنافق فإنه ميت القلب ، لا يحس بشيء مما يحس به المؤمن ، فهو كما قيل : ما لجرح بميت إيلام ، فتجد المنافق يعمل الأعمال القبيحة ولا يخاف ولا يحذر من عقاب الله ؛ لموت قلبه ، وعدم إحساسه ، وإذا نوقش ووبخ على ارتكابه الجرائم ، نفى ذلك ، وكذب ، وازداد إثمًا ، وكأنه لم يعمل شيئًا ، وهو مع ذلك غير خائف ، وغير مكترث بعقوبة ما صدر منه ، فيحلف الأيمان المغلظة أنه ما قال ، وأنه ما فعل ، وهو يعلم كذب نفسه ، ويعلم صدور ما صدر منه ، ولهذا وصف الله المنافقين بهذه الصفات ، فقال سبحانه وتعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ۝٧٣ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ وَهَمُّواْ بِمَا لَمۡ يَنَالُواْ ﴾ [التوبة:٧٣-٧٤] .

فالله عز وجل يخبر عنهم أنهم يتكلمون بالكلام الموجب للكفر ، ومع ذلك يحلفون الأيمان الكاذبة أنهم ما قالوا ، فكذبهم القرآن بقوله : ﴿ وَلَقَدۡ

---

(١) انظر شرح رياض الصالحين للعثيمين ، باب الأمر بأداء الأمانة ٢/ ٤٧٢ .

قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ ﴾ ، ثم أخبر عنهم أيضًا أنهم يهمون بها يهمون به من السوء ، والإضرار بالنبي ﷺ ، وأصحابه ، فيمنعهم من ذلك ما يمنعهم ، ولا يخافون ولا يخجلون ، ويستمرون على نفاقهم .

وقد نزلت هذه الآية الكريمة ، وهي قوله تعالى : ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ ﴾ [التوبة:٧٤] في عبد الله بن أبيّ ، وذلك أنه اقتتل رجلان جهني وأنصاري ، فقال عبد الله للأنصاري : ألا تنصرون أخاكم ، والله ما مثلنا ومثل محمد إلا كما قال القائل : سمن كلبك يأكلك . وقال : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، فسعى بها رجل من المسلمين إلى النبي ﷺ، فأرسل إلي ، فسأله ، فجعل يحلف بالله ما قاله[(١)] ، فأنزل الله هذه الآية : ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ ﴾ .

وقد جاء أنها نزلت في رجل من المنافقين سمع رسول الله ﷺ يخطب فقال ؛ لئن كان صادقًا لنحن شر من الحمير ، فقال له زيد بن أرقم : فهو والله صادق ، ولأنت شر من الحمار ، ثم رفع ذلك للنبي ﷺ ، فجحده القائل ، فأنزل الله هذه الآية تصديقًا لزيد بن أرقم رضي الله عنه[(٢)] ، وهي قوله : ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ ﴾ .

أعاذنا الله وإياكم من النفاق ، وجنبنا سيء الأخلاق . وصلى الله على

---

(١) تفسير ابن كثيرة ، سورة التوبة ٤/ ١٧٩ .

(٢) فتح القدير للشوكاني سورة التوبة ، ٣/ ٤٣٧ .

نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

* * *

(٤٣)

فضل الصلاة على رسول الله ﷺ

لقد جاء الأمر من الله عز وجل في محكم كتابه بالصلاة والسلام على رسول الله ، عليه من الله أفضل الصلاة والتسليم ، فقال عز وجل : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾ [الأحزاب:٥٦] ، فأخبر عز وجل أنه سبحانه وملائكته يصلون عليه ﷺ ، ثم بعد هذا الخبر المتضمن الحث والمبادرة بالصلاة عليه ، اقتداء برب العالمين وملائكته المقربين ، بعد هذا يأتي الأمر الصريح المقتضي للوجوب في مواضع معروفة، سيأتي بيانها إن شاء الله .

قال القرطبي في تفسيره[١] على هذه الآية الكريمة : أمر الله تعالى عباده بالصلاة على نبيه محمد ﷺ دون أنبيائه تشريفًا له ، ولا خلاف في أن الصلاة عليه فرض في العمر مرة ، وفي كل حين من الواجبات ، وجوب السنن المؤكدة التي لا يسع تركها ، ولا يغفلها إلا من لا خير فيه .

ثم نقل رحمه الله عن الزمخشري الخلاف في مواطن الوجوب ، أي وجوب الصلاة عليه ﷺ ، وملخصه أن بعض أهل العلم أوجبها ، كلما ذكر اسمه ﷺ ؛ لحديث : « من ذكرت عنده فلم يصل علي خطئ طريق الجنة »

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٤/ ٢٠٥ .

رواه الطبراني[(١)] ، وقال الحافظ : وهو حديث حسن بطرقه .

ومنهم من قال : تجب في كل مجلس مرة ، وإن تكرر ذكره .

ومنهم من أوجبها في العمر مرة .

ثم قال : والذي يقتضيه الحال الاحتياط الصلاة عند كل ذكر ؛ لما ورد من الأخبار في ذلك .

ثم قال رحمه الله في فضل الصلاة على النبي ﷺ : ثبت أنه ﷺ قال : «من صلّى عليَّ صلاة صلى الله عليه بها عشرا » رواه مسلم[(٢)] .

وقال سهل بن عبد الله : الصلاة على محمد ﷺ أفضل العبادات ؛ لأن الله تعالى تولاها هو وملائكته ، ثم أمر بها المؤمنين ، وسائر العبادات ليست كذلك[(٣)] .

قال أبو سليمان الداراني : من أراد أن يسأل الله حاجة فليبدأ بالصلاة على النبي ﷺ ، ثم يسأل الله حاجته ، ثم يختم بالصلاة على النبي ﷺ ، فإن الله يقبل الصلاتين ، وهو أكرم من أن يرد ما بينهما[(٤)] .

وروي عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه قال : « الدعاء يحجب دون السماء

---

(١) المعجم الكبير للطبراني ، رقم (٢٨٨٧) .

(٢) صحيح مسلم ، رقم (٣٨٤) .

(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٤/ ٢٠٥ .

(٤) المصدر السابق .

حتى يصلى على النبي ﷺ ، فإذا جاءت الصلاة على النبي رفع الدعاء»[١] .

وروي عنه ﷺ أنه قال : « من صلى عليَّ في كتاب لم تزل الملائكة يصلون عليه ما دام اسمي في ذلك الكتاب »[٢] .

وروى مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنه سمع النبي ﷺ يقول : « إذا سمعتم المؤذن ، فقولوا مثل ما يقول ، ثم صلوا عليَّ ، فإنه من صلى عليَّ صلاة ، صلى الله عليه بها عشرا ، ثم سلوا الله لي الوسيلة ، فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون أنا هو ، فمن سأل لي الوسيلة حلت له الشفاعة » رواه مسلم[٣] .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم علي صلاة » رواه ابن حبان والترمذي[٤] .

وعن أبي بردة بن دينار رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من صلى عليَّ من أمتي صلاة مخلصا من قلبه ، صلى الله عليه بها عشر صلوات ، ورفعه بها عشر درجات ، وكتب له بها عشر حسنات ، ومحا عنه عشر سيئات » رواه النسائي وغيره[٥] .

---

(١) المصدر السابق .
(٢) المعجم الأوسط ، رقم (١٨٣٥) .
(٣) صحيح مسلم ، رقم (٣٨٤) .
(٤) صحيح ابن حبان ، رقم (٩١١) ؛ سنن الترمذي ، رقم (٤٨٤) .
(٥) السنن الكبرى للنسائي ، رقم (٩٨٩٢) .

فكل هذه الأحاديث تدل على فضل الصلاة عليه ﷺ ، وقد وردت عدة أحاديث أخرى بهذا المعنى .

وصلى الله وبارك على نبينا محمد ، وعلى آله وصحبه وسلم .

* * *

(٤٤)

الله أعلم حيث يجعل رسالته

لما كان علم الله محيطا بكل شيء ، يعلم السر وأخفى ، يعلم الأمور على حقائقها ، وهو خلق الخلق كلهم ، وركب فيهم ما ركب من الطباع التي تميل إلى الخير ، وتميل إلى الشر ، وجبل بعض عباده على محبة الخير وفعله ، وعلى الشجاعة ، والصبر ، والتحمل ، والحلم ، والأناة ، وجعلهم مفاتيح للخير ، مغاليق للشر .

وكان من عباده من هو بعكس ذلك ، يميل إلى الشر ويحبه ، ويناسبه ويفعله ، بعيدًا عن الخير وفعله ، يحب اللهو ، والفجور ، والكبر ، والتطاول على الناس ، قليل الصبر ، قليل التحمل ، لا حلم فيه ، ولا علم عنده ، أشبه شيء بالحيوان ﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان:٤٤] .

فصار هؤلاء أعداء لله ولأنبياء الله ورسله وعباده المؤمنين ؛ لأن رغباتهم وميولهم إلى الفساد والبغي في الأرض ، والعتو والتجبر ، فلذلك صاروا أبعد الناس عن العلم النافع ، والهداية والبصيرة ، والله سبحانه حكيم عليم ، وقد قال عز وجل : ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا

وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ﴾ [الأنفال:٢٢-٢٣] .

فهم لا يعقلون من أمر الله شيئًا ، وغير لائقين لذلك ، وليسوا بمهيئين للفهم ؛ لأنهم صم عن سماع الحق ، بكم عن التكلم به ، ما عندهم عقول زاكية ، فهم مثل السباخ ، مهما نزل عليها من الماء لا تأثير له عليها ؛ لأن المكان غير قابل للإنبات ، وغير صالح للزرع ، وغرس الأشجار ، وما ينفع الناس .

وهناك نوع من الخلق جبلهم الله على محبة الخير ، وفعل الخير ، والإحسان إلى الناس ، يتحملون المصاعب والمشاق في سبيل راحة غيرهم ، وطمأنينتهم ؛ فلذلك نجد الأنبياء من أشد الناس بلاء في هذه الدنيا ؛ لما يبذلون للخلق من الدعوة والنصح لهم ؛ ومن أجل هذا اختارهم الله لرسالاته ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [الأنعام:١٢٤].

قال ابن القيم رحمه الله :

« فهو أعلم بمن يصلح لتحمل رسالته ، فيؤديها إلى عباده بالأمانة والنصيحة ، وتعظيم المرسل سبحانه وتعالى ، والقيام بحقه ، والصبر على أوامره ، والشكر على نعمه وإحسانه . وهو سبحانه وتعالى أعلم بمن يصلح لتحمل ميراثهم ، والقيام بتبليغ ما جاءت به الأنبياء ؛ ولهذا جاء في الحديث عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال : « إن الله نظر في قلوب العباد ،

فرأى قلب محمد ﷺ خير قلوب أهل الدنيا ، فاختصه برسالته ، ثم نظر في قلوب العباد، فرأى قلوب أصحابه خير قلوب العباد، فاختارهم لصحبته»[١] .

وفي الأثر الإسرائيلي : إن الله قال لموسى : أتدري لما اخترتك لكلامي؟ قال : لا يا رب ، قال : إني نظرت إلى قلوب العباد ، فلم أر فيها أخضع من قلبك لي[٢] .

فالرب سبحانه إذا علم من محل أهلية لفضله ومحبته ومعرفته وتوحيده ، حبب إليه ذلك ووضعه فيه ، وكتبه في قلبه ، ووفقه له ، وأعان عليه ، ويسر له طرقه ، وأغلق دونه الأبواب التي تحول بينه وبين ذلك ، ثم تولاه بلطفه ، وتدبيره ، وتيسيره ، وتربيته ، فلا يزال يعامله بلطفه ، ويختصه بفضله ، ويؤثره برحمته ، ويمده بعونه ، ويؤيده بتوفيقه ، ويريه مواقع إحسانه إليه ، وبره به ، فيزداد العبد معرفة بربه ، ومحبة ، وإنابة ، وتوكلا عليه ، ولا يلتفت بقلبه إلى أحد غير الله سبحانه وتعالى» اهـ[٣] .

اللهم وفقنا للإيمان ، والعمل الصالح ، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

* * *

(١) مسند أحمد ، رقم (٣٦٠٠) .
(٢) طريق الهجرتين وباب السعادتين ١٧/ ١٠ .
(٣) المصدر السابق .

(٤٥)

أدب الصحابة مع النبي ﷺ

جاء القرآن الكريم بتعليم أصحاب النبي ﷺ الآداب ، وكيف يعاملون نبيهم ، وكيف يعامل بعضهم بعضًا ، فقال سبحانه وتعالى في سورة الأحزاب : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّ ﴾ [الأحزاب:٥٣].

هذا في حق المصطفى ﷺ ، وبيان حسن الأدب معه ، وسبب نزول هذه الآية هو كما جاء في صحيح البخاري عن أنس رضي الله عنه قال : « لما تزوج رسول الله زينب بنت جحش ، دعا القوم فطعموا ، ثم جلسوا يتحدثون ، فإذا هو يتهيأ للقيام ، فلم يقوموا ، فلما رأى ذلك قام ، فلما قام قام من قام ، وقعد ثلاثة نفر ، فجاء النبي ﷺ ليدخل ، فإذا القوم جلوس ، ثم إنهم قاموا، وانطلقوا ، فجئت ، فأخبرت النبي ﷺ أنهم قد خرجوا ، فجاء حتى دخل ، فذهبت أدخل ، فألقى الحجاب بيني وبينه ، فأنزل الله هذه الآية »[1] .

هكذا يؤدب رب العزة أصحاب رسوله ﷺ، ويعلمهم كيف يعاملون

---

(١) صحيح البخاري ، رقم (٤٧٩١) .

نبيه ﷺ .

وقد قال سبحانه في سورة الحجرات : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخۡرُجَ إِلَيۡهِمۡ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ ﴾ [الحجرات:٢-٥] .

وفي هذه الآيات ما يدل على وجوب تعظيم رسول الله ﷺ ، وتوقيره، واحترامه ، وخفض الصوت عنده ، وبحضرته ، وحال مخاطبته ، فالقرآن يؤدبهم ، ويعلمهم ، إذا نطقتم فعليكم ألا تبلغوا بأصواتكم فوق الحاجة ، ووراء الحد الذي يحصل به سماع الكلام ، وأن تقضوا فيها ، بحيث يكون كلامه غالبًا لكلامكم ، وجهره فوق جهركم .

وقد ذكر كثير من العلماء أن هذه المزية له ﷺ مستمرة إلى يومنا هذا حول قبره ﷺ ، فينبغي عدم رفع الصوت حول قبره ، سواء كان دعاء ، أو غيره من الذكر .

وذكر بعض أهل العلم أن على قياس ذلك يكره رفع الصوت في مجالس العلماء ؛ لأن العلماء ورثة الأنبياء ، فتحترم مجالسهم تشريفًا وتكريمًا للعلم الذين يحملونه عن صاحب الرسالة ﷺ .

وبعد نزول هذه الآيات كان كثير من الصحابة رضوان الله عليهم يخفضون أصواتهم عند رسول الله ﷺ ، حتى إنه يستفهم منهم عليه الصلاة والسلام بعضَ كلامهم ، من شدة الامتثال لأمر الله ، والاحترام لرسوله ، كما وقع ذلك لعمر بن الخطاب رضي الله عنه وغيره .

فعلى المعلم الاقتداء بأصحاب رسول الله ﷺ في شدة الاحترام لرسول الهدى ﷺ ، والتمسك بهديه ، وعدم الاعتراض عليه في شيء من أوامره أو نواهيه ، فإن احترامها من احترامه .

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

❋ ❋ ❋

(٤٦)

وجوب التوبة من الذنوب

تمر الليالي والأيام والعبد في سهو ولهو وغفلة عما أريد به ، وعما خلق له ، كأنه آمن من العقاب ، غير مكترث بالحساب ، يضحك بملء فيه ، ولا يفكر في بقية عمره وتلاقيه ، إن جاءته مصيبة من مصائب الدنيا أثرت فيه، وضاقت عليه الأرض بما رحبت ، أما ما يتعلق بمعاده فهو ساهٍ لاهٍ ، ينسى ذنوبه ولا يفكر في عيوبه، إن ذُكّر بالله لم يتذكر ، وإن خُوّف من الموت وما بعده سَوَّف بالتوبة وماطل ، وكأنه لثقل ما عليه من الذنوب يرى أن التوبة إلى الله صعبة المنال ، أو أن الله لا يغفر له لعظم ذنبه ، وما درى أن الله سبحانه وتعالى يعفو عن عباده ، ويقبل التوبة ، ويفرح بتوبة عبده إليه ، وما يدري هذا الغافل عن نفسه أن القنوط من رحمة الله من أعظم الذنوب ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر :٥٦] .

وكأنه لم يسمع قوله تعالى ، وهو ينادي عباده المسرفين على أنفسهم ، يناديهم عز وجل ، ويأمرهم بالتوبة إليه ، والإقبال عليه ؛ ليتفضل عليهم بالتوبة والمغفرة ، ويقول سبحانه وتعالى: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن

يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزمر:٥٣-٥٧] .

فهل يسمع هذه الآيات أحد في قلبه شيء من الإيمان بربه ، ويسترسل في عصيانه وذنوبه ، ولا يرجع إلى ربه إلا من كان محرومًا ، أو كتبت عليه الشقاوة ، أجارنا الله منها .

تفكر أيها المسلم في نفسك وحالتك ، من حين نشأت إلى أن كنت ذا عقل وعلم ، تعرف ما ينفعك وما يضرك ، فمَن الذي خلقك ، ورباك ، وركب فيك العقل والمعرفة ؟

إن كل عاقل يعرف أن هذا كله من الله ، ولكن النفس والشيطان والهوى تكتنفه من كل جانب ، وليس لديه عزيمة على التخلص من هذه الشرور . وضعف هذه العزيمة ناشئ من الكسل ، وحب الشهوات والركون إلى العجز والبطالات .

وهو أيضًا يعلم أن الله يراه ومطلع على عمله ، ولكنه يعلم حلم الله وستره ، فغرّه ذلك .

وكم ليلة قد بات عار من التقى يغطيه ستر الحلم يا ليته درى

لو درى وعَلِمَ عِلْم اليقين من أن الله يراه ، ويطلع عليه في خلواته

وجلواته ، وخاف من عقابه ، ورجا ثوابه ؛ لآثر ما عند الله ، واقتصر على ما أباحه الله له ، فحصلت له السعادتان :

سعادة الدنيا بالسمعة الطيبة ، والثناء الجميل ، والتلذذ بعبادة الله ، وانشراح الصدر بها ، والفرح والاستبشار بذلك ، ﴿ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس:٥٨] .

وحصلت له سعادة الآخرة والأمن من عذاب الله فعما قليل هو ذاهب عن دنياه ، ومستقر في أخراه ، أول مرحلة من هذه المراحل هو القبر الذي أضيق ما يكون على العاصين ، وأوسع ما يكون على الطائعين :

والقبر إما روضة للمتقي   أو حفرة النار تصيب الظالما

ثم بعد هذا المنزل الأهوال العظام من حشر ، ونشر ، وحساب دقيق، وميزان للأعمال ، ومرور على جسر جهنم .

فعليك أيها المسلم بالمبادرة إلى التوبة ، والاستغفار ، والرجوع إلى الله، فإن أيامك قلائل ، ولا تدري إذا أصبحت هل تدرك المساء ، أو تكون من أهل الآخرة قبله .

اللهم أيقظنا من سنة الغفلة ، ونبهنا من هذه الرقدة ، فإنه لا حول ولا قوة لنا إلا بإعانتك يا أرحم الراحمين . وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

(٤٧)

شروط التوبة من الذنوب

التوبة من الذنوب واجبة على كل مسلم ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ [النور:٣١] ، وقد قال ﷺ : «أيها الناس توبوا إلى ربكم فإني أتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة » رواه البخاري[١] .

فعلى كل مسلم أن يبادر بالتوبة إلى الله ، ويسأله أن يعينه ، وأن لا يكله إلى نفسه طرفة عين ، ولا أقل من ذلك .

أما شروط التوبة فهي :

أولًا : أن يندم غاية الندم على ما وقع منه .

ثانيًا : أن يقلع عن الذنب الذي ارتكبه ، فإن كان مقيمًا على الذنب ، ويقول : أستغفر الله وأتوب إليه ، بلسانه وهو بفعله مقيم على ذنبه ، فهذا لا ينفعه ذلك ، بل يكون كالمستهزئ بربه ، وقد قال بعض العلماء رحمهم الله :

استغفر الله من استغفر الله   من قولة قلتها خالفت معناها

ثالثًا : أن يعزم أن لا يعود لذلك الذنب .

---

(١) صحيح البخاري ، رقم (٦٣٠٧) .

فهذه شروط التوبة فيما بينك وبين الله .

وإن كان الذنب مما فيه حق لغير الله كما لو غصب مال أحد ، أو ضربه، أو تكلم بعرضه ، فهذا يحتاج إلى شرط رابع ، وهو أن يرد المال الذي أخذه من غيره ، وأن يمكن من ضربه بالاقتصاص منه ، أو يطلب منه المسامحة ، ويرضيه عنه حتى يرضى .

أما بالنسبة لمن تكلم في عرضه ، فقد اختلف العلماء رحمهم الله في كيفية تكفير الغيبة ، وهل يكفي مجرد التوبة ، أو أنه لابد من إعلامه ، وطلب التحلل منه .

والراجح في ذلك ما ذكره ابن القيم رحمه الله بقوله : الصحيح أنه لا يحتاج إلى إعلامه ، بل يكفيه الاستغفار له ، وذكر محاسنه في المواطن التي كان يغتابه فيها .

وذكر أنه اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية وكثير من العلماء.

وقال رحمه الله أيضًا : والذين قالوا لابد من إعلامه جعلوا الغيبة كالحقوق المالية ، والفرق بينهما ظاهر ، فإن الحقوق المالية ينتفع المظلوم بعود نظير ما ظلم به ، فإن شاء أخذها وانتفع بها ، وإن شاء تصدق بها .

وأما في الغيبة فلا يمكن ذلك ، ولا يحصل له بإعلامه بذلك ، إلا عكس مقصود الشارع ، فإنه يوغر صدره ، ويؤذيه إذا سمع ما رمي به ،

ولعله يهيج عداوته ، ولا يصفو له أبدًا ، وما كان هـذا سـبيله فـإن الشـارع الحكيم لا يبيحه ، ولا يجوزه ، فضـلًا عـن أن يوجبـه ، ويـأمر بـه ، ومـدار الشريعة على تعطيل المفاسد ، وتغليقها ، لا على تحصيلها وتكميلها[١] .

وقد روي أحاديث تـدل عـلى أن مـن كفـارة الغيبـة أن تسـتغفر لمـن اغتبته، لكنها أحاديث ضعيفة ، إلا أنها بكثرتها تبلـغ حـد الحـديث الحسـن لغيره عند بعض العلماء .

وقد روي عن حذيفة ﷺ أنه قال : كفارة من اغتبته أن تستغفر له .

وقد اجتمع سفيان وعبد الله بن المبارك رحمهما الله ، فقال عبـد الله بـن المبارك : التوبة من الغيبة أن تستغفر لمن اغتبته ، فقال سفيان : بـل تسـتغفره مما قلت ، أي تطلب منه ذلك . فقال عبد الله بن المبارك : لا تؤذيـه مـرتين[٢] أي أنك إذا أعلمته أنك اغتبته ، وجئت تطلبه المسامحة فقد آذيته ؛ لأنـه قبـل أن تعلمه لم يعلم عن ذلك ، فلم يتأذ به ، ولكن الآن آذيته بالأولى والثانيـة ، وقديمًا قيل : مُبلغك الشرَّ كباغِيهِ لك . والله أعلم .

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

---

(١) انظر : الوابل الصيب من الكلم الطيب لابن القيم ، الفصل الخامس والستون ١/ ١٤١-١٤٣ .

(٢) انظر بهجة المجالس وأنس المجالس لابن عبد البر ١/ ٨٦ ، وغذاء الألباب للسفاريني ٣/ ٤٥٣-٤٥٤ .

(٤٨)

الدعاء في الشريعة

يقول الله تعالى : ﴿ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر:٦٠] ، فسمى الله جل وعلا دعاءه عبادة . وفي الحديث «الدعاء هو العبادة » رواه أبو داود والترمذي وابن ماجة[١] .

وفي حديث علي رضي الله عنه عند الحاكم قال : قال رسول الله ﷺ: « الدعاء سلاح المؤمن ، وعماد الدين ، ونور السماوات والأرض »[٢] .

فالدعاء يدفع البلاء ، ويعالجه ، ويمنع نزوله ، ويرفعه ، أو يخففه إذا نزل .

والدعاء من أنفع الأدوية لعلاج المرض الحسي والمعنوي ، وفي نفس الوقت هو عبادة من أنفع العبادات، ففيه حصول المطلوب ، ودفع المكروه، ورضا الله عز وجل ، فإن الرسول الكريم ﷺ قال : « إن الله يحب الملحين في الدعاء» رواه البيهقي[٣] .

---

(١) سنن أبي داود ، رقم (١٤٧٩)؛ سنن الترمذي ، رقم (٣٢٤٧) ؛ سنن ابن ماجه، رقم (٣٨٣٨).

(٢) المستدرك على الصحيحين ، رقم (١٨١٢) .

(٣) شعب الإيمان للبيهقي ، رقم (١١٠٨) .

قال ابن القيم رحمه الله[١] :

للدعاء مع البلاء ثلاث مقامات :

أحدها : أن يكون أقوى من البلاء فيدفعه .

الثاني : أن يكون أضعف من البلاء فيقوى عليه البلاء ، فيصاب به العبد ، ولكن قد يخففه ، وإن كان ضعيفًا .

الثالث : أن يتقاوما ، ويمنع كل واحد منهما صاحبه .

وقد روى الحاكم في صحيحه من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ : « لا يغني حذر من قدر ، والدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل ، وإن البلاء لينزل فيلقاه الدعاء، فيعتلجان إلى يوم القيامة »[٢] .

وثبت أيضًا من حديث ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : «الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل ، فعليكم عباد الله بالدعاء » رواه الترمذي والحاكم وصححه[٣] .

وعنه عن النبي ﷺ : « لا يرد القدر إلا الدعاء ، ولا يزيد في العمر إلا البر ، وإن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه » رواه الحاكم[٤] .

---

(١) انظر : الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي لابن القيم ١/ ١٠ .
(٢) المستدرك على الصحيحين ، رقم (١٨١٣) .
(٣) سنن الترمذي ، رقم (٣٥٤٨) ؛ المستدرك على الصحيحين ، رقم (١٨١٥) .
(٤) المستدرك ، رقم (١٤١٤) .

وترك الدعاء سبب من أسباب سخط الله ؛ ولهذا ورد في الحديث الذي رواه أحمد من حديث أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ « من لم يدع الله غضب الله عليه »[١] .

واعلم أيها الأخ المبارك أن هناك آفات تمنع قبول الدعاء :

منها : كون المطعم والمشرب والملبس حرام ، فإن هذا سبب قوي لعدم استجابة الدعاء .

ومنها : الاعتداء في الدعاء .

ومنها : استبطاء الإجابة والعجلة .

أما أكل الحرام : فقد جاء في الحديث « الرجل يطيل السفر أشعث أغبر ، يمد يديه إلى السماء ، يا رب يا رب ، ومطعمه حرام ، ومشربه حرام، وملبسه حرام ، وغذي بالحرام ، فأنى يستجاب لذلك » رواه مسلم[٢] .

فالرسول ﷺ يستبعد إجابة مثل هذا على ما هو فيه من العبادة والجهاد في سبيل الله .

وأما الاعتداء في الدعاء فإن الله عز وجل يقول : ﴿ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾ [الأعراف:٥٥] .

---

(١) مسند أحمد ، رقم (٩٧١٩) و (١٠١٧٨) .

(٢) صحيح مسلم ، رقم (١٠١٥) .

وأما العجلة واستبطاء الإجابة : ففي صحيح البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « يستجاب لأحدكم ما لم يعجل ، يقول : دعوت ودعوت فلم يستجيب لي »(١) .

وفي المسند عن أنس ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ « لا يزال العبد بخير ما لم يستعجل ، قالوا : يا رسول الله كيف يستعجل ؟ قال يقول : قد دعوت ربي فلم يستجيب لي »(٢) .

وهذه في الحقيقة آفة من الآفات التي يسوقها الشيطان ، ويحسنها لمن ضعفت بصائرهم ؛ حتى يصدهم عن الخير ، والصبر على طاعة الله عز وجل .

ثم قد يكون العائق عن قبول الدعاء هو إما عدم الإخلاص ، أو عدم الرغبة الصادقة ، وعدم الإقبال على الله بكل قلبه ، كما يجري على ألسن كثير من الناس الدعاء من طرف اللسان ، بدون استحضار لما يدعو به ، وكما يفعل كثير من الناس بالتوبة والاستغفار من طرف اللسان ، وهو مقيم على حاله التي يستغفر منها .

أما إذا حصل الدعاء مع حضور القلب ، والالتجاء إلى الله حقيقة ، لا سيما إذا صادف وقتًا من أوقات الإجابة، كثلث الليل الأخير ، وبين

---

(١) صحيح البخاري ، رقم (٦٣٤٠) .
(٢) مسند أحمد ، رقم (١٣٠٠٨) .

الأذانين ، وإدبار الصلوات ، وآخر ساعة من يوم الجمعة ، فقلما تتخلف الإجابة .

والله الموفق . وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

❊ ❊ ❊

(٤٩)

منافع الدعاء والالتجاء إلى الله

اعلم أن كل خير إنما هو من الله تبارك وتعالى ، وإن أكبر أسباب حصول الخيرات هو الدعاء ؛ لأن الله وعد الداعين بالإجابة ، وهو سبحانه وتعالى لا يخلف الميعاد ، وقد قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر:٦٠] .

وفي البخاري ومسلم عن النبي ﷺ أنه قال : « ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا ، حين يبقى ثلث الليل الآخر ، يقول : من يدعوني فأستجيب له ؟ من يسألني فأعطيه ؟ من يستغفرني فأغفر له؟ »[١] .

والمؤمن يعلم أن الأمر بيد الله ، ولا يكون شيء إلا بمشيئته ، ولا يحصل خير إلا منه وحده لا شريك له ، يقول سبحانه وتعالى : ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران:٢٦] .

فأساس كل خير أن تعلم أن ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، فتتيقن أن الحسنات من نعمة الله ، فتشكره عليها ، وتتضرع إليه أن لا

---

(١) صحيح البخاري ، رقم (١١٤٥) ؛ صحيح مسلم ، رقم (٧٥٨) .

يقطعها عنك ، وأن السيئات من خذلانه وعقوبته ، فتبتهل إليه أن يحول بينك وبينها ، ولا يكلك في فعل الحسنات ، وترك السيئات إلى نفسك .

وقد اتفق المؤمنون على أن كل خير فأصله بتوفيق الله للعبد ، وكل شر فأصله خذلان لعبده ، وأجمعوا على أن التوفيق أن لا يكلك الله إلى نفسك ، وأن الخذلان هو أن يخلي بينك وبين نفسك ، فإذا كان كل خير فأصله التوفيق ، وهو بيد الله ، لا بيد العبد ، فمفتاحه الدعاء ، والافتقار، وصدق اللجوء ، والرغبة إليه .

فمتى أعطي العبد هذا المفتاح الذي هو الدعاء ، ووفقه الله له ، فقد أراد الله به الخير ، وهيأ له فتح أبواب الخيرات ، ومتى لم يرد الله بعبده خيرًا أضله عن هذا المفتاح ، وجعله ثقيلًا عليه ، فبقيت أبواب الخيرات مرتجة بوجهه ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ : « إني لا أحمل همَّ الإجابة، ولكن هم الدعاء ، فإذا ألهمت الدعاء فإن الإجابة معه » .

وعلى قدر همة العبد ونيته ورغبته في ذلك يكون توفيقه سبحانه ، وإعانته له ، فالمعونة من الله تنزل على العباد على قدر هممهم ، ونياتهم ، ورغبتهم ، ورهبتهم إلى ربهم . قال سبحانه وتعالى في وصف بعض عباده المؤمنين: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ [الأنبياء:٩٠] .

فما أوفى من أوفى ، ولا ظفر بحاجاته من ظفر بها ، إلا بإعانة الله له، وإلهامه للدعاء ، والتضرع إلى ربه .

هذا إذا كان من أعمال الخير والبر والإحسان والتوفيق الديني ، وإن كان من أمور الدنيا فقد يكون كذلك ، إذا كان العبد مطيعًا لربه، ممتثلا أوامره ، متبعًا لهدي نبيه ﷺ ، فتحصل له سعادة الدنيا والآخرة . وإن كان غير مستقيم في دينه ، مطيعًا هواه ، مفرطًا في حقوق الله ، مؤذ لعباده ، فإنه قد يحصل له من الدنيا أشياء تكون سببًا في زيادة غفلته ، وطغيانه ، ونسيانه لأمر الله ، فيكون ذلك عقوبة له ، واستدراجًا له ؛ لأنها سبقت عليه الشقاوة ، كما قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام :٤٤-٤٥] .

فعلى العبد أن يكثر من الدعاء ، ويسأل الله التوفيق ، والهداية إلى الصراط المستقيم ، فمتى وفقه الله في دينه ، واستقام على طاعة الله ، فقد حصلت له سعادة الدين والدنيا ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةًۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل:٩٧] .

اللهم وفقنا لما تحب وترضى يا رب العالمين ، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.

(٥٠)

الإيمان بالقدر

أخبر الله جل وعلا في كتابه أنه قدّر الأشياء في الأزل ، وأنه لا يخرج أحد عما قدّره له سبحانه ، أو قدّره عليه ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [الحديد:٢٢].

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو ﷺ عن النبي ﷺ قال : « إن الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة» [١] .

وعند مسلم أيضًا عن جابر بن عبد الله ﷺ « أن رجلًا قال : يا رسول الله ، فيما العمل اليوم ، أفيما جفت به الأقلام ، وجرت به المقادير ، أم فيما يستقبل؟ قال : لا ، بل فيما جفت به الأقلام ، وجرت به المقادير ، قال : ففيم العمل ؟ قال : اعملوا فكل ميسر لما خلق له » [٢] .

وروى الإمام أحمد وأبو داود والترمذي من حديث عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ قال : « إن أول ما خلق الله القلم ، ثم قال له : اكتب

---

(١) صحيح مسلم ، رقم (٢٦٥٣) .
(٢) صحيح مسلم ، رقم (٢٦٤٨) .

فكتب في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة »[(١)] .

وهذا الحديث يدل على أن أول المخلوقات هو القلم ، ومفهومه أن العرش متأخر عنه ، وهذه المسألة فيها خلاف بين العلماء رحمهم الله ، منهم من قال : أول المخلوقات العرش ؛ لما ورد في ذلك من الأحاديث ، ومنهم من قال : أولها القلم ؛ لهذا الحديث .

والأرجح والله أعلم أن العرش هو أول المخلوقات ، وأن المراد من أولية القلم كتابته في أول ما خلق ، فالمعنى أول ما خلق القلم أُمر بالكتابة .

ويستأنس لذلك بقوله : « فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة » وهذا هو الذي رجحه الإمام ابن القيم رحمه الله في الكافية الشافية حيث يقول رحمه الله فيها :

والناس مختلفون في القلم الذي ... خط القضاء به من الديان

هل كان قبل العرش أو هو بعده ... قولان عند أبي العلا الهمدان

والحق أن العرش قبل لأنه ... وقت الكتابة كان ذا أركان

وكتابة القلم الشريف تعقبت ... إيجاده من غير فصل زمان[(٢)]

فالحاصل أنه لابد للمؤمن أن يؤمن بالقضاء والقدر ، وأن الله

---

(١) مسند أحمد ، رقم (٢٢٧٠٥) ؛ سنن أبي داود ، رقم (٤٧٠٠) ؛ سنن الترمذي ، رقم (٢١٥٥) .
(٢) نونية ابن القيم (الكافية الشافية) ص ٦٥ .

سبحانه قدر الأشياء قبل خلق السماوات والأرض ؛ ولذلك قال النبي ﷺ لعبد الله بن عباس رضي الله عنهما : « جف القلم بما هو كائن »[١] وفي رواية أخرى : « رفعت الأقلام وجفت الصحف »[٢] وهو كناية عن تقدم كتابة المقادير كلها ، والفراغ منها من أمد بعيد ، فإن الكتاب إذا فُرغ من كتابته ، ورفعت الأقلام عنه ، وطال عهده ، فقد رفعت عنه الأقلام ، وجفت الأقلام التي كتب بها ، وكذلك جفت الصحف التي كتب فيها بالمداد المكتوب به فيها ، وهذا من أحسن الكنايات وأبلغها .

وورد عند أحمد من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « إن لكل شيء حقيقة ، وما بلغ عبد حقيقة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وأن ما أخطأه لم يكن ليصبه » .

فجميع ما تقدم من الآيات والأحاديث تدل على وجوب الإيمان بالقضاء والقدر ، وقد أخبر ﷺ أنه أحد أركان الإيمان الستة .

وإذا علم العبد ذلك وآمن به ، هان عليه كل شيء ، ووطن نفسه على ذلك ، ولم تأته أموره بغتة ، بل كل ما يطرأ عليه من أمور الدنيا من خير وشر فهو في ذهنه متوقع حصوله ، فلا يحزن كما يحزن غيره ، ولا يفرح كغيره .

---

(١) مسند أحمد ، رقم (٢٨٠٤) .

(٢) مسند أحمد ، رقم (٢٦٦٩) ؛ سنن الترمذي ، رقم (٢٥١٦) .

أما من يتناسى الأقدار ، ويحاول دفع المكروهات ، معتمدًا على حولِه وقوته ، ويرى أن ما حصل له من خير فهو بسبب فعله ، وحسن تدبيره ، فهذا إذًا جاهل مسكين ما عرف حقيقة الإيمان بالقضاء والقدر .

ولكن الذي يعلم أنه مهما عمل لا يحصل له إلا ما قدّر له ، ومهما احتاط عن الشيء الذي يكرهه يعلم أن المقدر كائن لا محالة ، ولا مفر منه ، تخف عنه الآلام ؛ لتوطين نفسه على ذلك .

ثم إن المؤمن يعلم أن جميع ما يحصل عليه من مكدرات ومنغصات في هذه الحياة ، إنما هي زيادة أجر له إذا صبر ، واحتسب ، فينظر نظرتين يخففان عنه ما يجد :

أحدهما : علمه أن ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، أو ما قدر فسيكون .

والثانية : يعلم أن ما يصيب المؤمن من همٍّ ، ولا نصب ، ولا غم إلا كفر الله عنه به خطيئته ، حتى الشوكة يشاكها ، فإذا تذكر هذا الفضل خف عليه ما يحس به ، وانشرح صدره ، وهذه الخصلة ليست لأحد إلا للمؤمن.

وكلما قوى إيمان العبد زادت ثقته ، واطمئنانه لهذا الفضل العظيم ، ولهذا جاء في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال : « عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله خير ، إن أصابته سراء شكر ، فكان خيرًا له ، وإن أصابته ضراء صبر ،

فكان خيرًا له ، وليس هذا إلا للمؤمن » رواه مسلم[1] .

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

❋ ❋ ❋

(١) صحيح مسلم ، رقم (٢٩٩٩) .

(٥١)

قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا

الإيمان بقضاء الله وقدره أحد أصول الإيمان التي علمنا إياها رسول الله ﷺ ، وقد بين النبي ﷺ أن الإيمان بالقدر خيره وشره ركن من أركان الإيمان، كما بين ﷺ في حديثه لابن عباس رضي الله عنهما هذا الأصل فقال : « واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء، قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف» رواه أحمد والترمذي وحسنه والحاكم[١] .

قال ابن رجب رحمه الله[٢] : « واعلم أن مدار هذه الوصية التي أوصى بها ﷺ ابن عمه عبد الله بن عباس رضي الله عنهما مدارها على هذه الجملة ، وما قبلها وما بعدها فهو متفرع عنها ، وراجع إليها ، فإن العبد إذا علم أنه لا يصيبه إلا ما كتبه الله له من خير وشر ونفع وضرر ، وأن اجتهاد الخلق كلهم على خلاف المقدر غير مفيد البتة ، علم حينئذ أن الله وحده هو الضار النافع المعطي المانع ، فأوجب ذلك للعبد توحيد ربه عز وجل ، وإفراده بالعبادة والطاعة ، وحفظ حدوده ، فإن المعبود إنما يقصد بعبادته جلب

---

(١) مسند أحمد ، رقم (٢٦٦٩) ؛ سنن الترمذي ، رقم (٢٥١٦) ؛ المستدرك ، رقم (٦٣٠٣) .
(٢) انظر جامع العلوم والحكم ١/ ١٩٣-١٩٤ .

المنافع ودفع المضار ؛ ولهذا ذم الله من يعبد من لا ينفع ولا يضر ، ولا يغني عن عباده شيئًا ، فمن يعلم أنه لا ينفع ولا يضر ولا يعطي ولا يمنع إلا الله أوجب له ذلك إفراده بالخوف ، والرجاء ، والمحبة ، والسؤال ، والتضرع ، والدعاء ، وتقديم طاعته على طاعة الخلق أجمعين ، ويتقي سخطه ، ولو كان فيه سخط الخلق جميعًا ، وإفراده بالاستعانة به ، والسؤال له ، وإخلاص الدعاء له في حال الشدة وحال الرخاء .

وهذا خلاف ما كان المشركين عليه من إخلاص الدعاء عند الشدائد، ونسيانه في الرخاء ، ودعاء من يرجون نفعه من دونه ، قال عز وجل : ﴿ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [الزمر:٣٨] .

وقال ﷺ : « واعلم أن في الصبر على ما تكره خيرًا كثيرًا »[(١)] يعني الذي يصيب العبد من المصائب المؤلمة المكتوبة عليه إذا صبر عليها كان له في الصبر خير كثير ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾ [التغابن:١١].

قال علقمة : هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله ، فيرضى

(١) مسند أحمد ، رقم (٢٨٠٤) .

ويسلم[(١)] .

وروى الترمذي عن أنس ﷺ قال : « إن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا ، ومن سخط فله السخط »[(٢)] .

وكان ﷺ يقول في دعائه : « أسألك الرضا بالقضاء »[(٣)] ، ومما يزيد إيمان المؤمن ، ويدعوه للرضا بالقضاء تصديقه وإيمانه بقوله ﷺ : « لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيرًا له ، إن أصابته سراء شكر ، فكان خيرا له ، وإن أصابته ضراء صبر ، وكان خيرا له ، وليس ذلك إلا للمؤمن» رواه مسلم[(٤)] .

وقد جاء رجل للنبي ﷺ فسأله أن يوصيه وصية جامعة موجزة فقال: «لا تتهم الله تبارك وتعالى في شيء قضى لك به » رواه أحمد[(٥)] ، وأخذ بعضهم هذا المعنى ونظمه بقوله :

من عرف الله أزال التهمة   وقال كل فعلـــه لحكـــمة

وقال ابن مسعود ﷺ : «إن الله بقسطه وعدله جعل الرَّوْح والفرح في

---

(١) انظر جامع العلوم والحكم ١/ ٣١ .
(٢) سنن الترمذي ، رقم (٢٣٩٦) ؛ سنن ابن ماجه ، رقم (٤٠٣١) .
(٣) السنن الكبرى للنسائي ، رقم (١٢٣٠) .
(٤) صحيح مسلم ، رقم (٢٩٩٩) .
(٥) مسند أحمد ، رقم (٢٢٧١٧) .

اليقين والرضا ، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط» رواه الطبراني[1] .

اللهم ارزقنا الرضا بالقضاء ، وأعذنا من شماتة الأعداء .

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

* * *

---

(١) المعجم الكبير للطبراني ، رقم (١٠٥١٤) .

(٥٢)

الأعمال بحقائقها لا بظواهرها

كان في زمن النبي ﷺ قوم أظهروا الإسلام ، ولم تؤمن قلوبهم ، ولم يدخل الإيمان الحقيقي في صدورهم ، ولكنهم استسلموا لما رأوا أمر رسول الله ﷺ يزداد ويقوى ، وكان من جملة أولئك رجال في المدينة ، كما أخبر القرآن عنهم بقوله : ﴿ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ ﴾ [التوبة:١٠١] ، وكان منهم أناس جاهروا رسول الله بالعداوة ، وأعلنوا له العداوة .

والمنافقون الذين أظهروا الإسلام يميلون إلى أولئك بقلوبهم ، ويختلفون إليهم سرًا ، ويحرضون على قتال الرسول ﷺ .

وكان من المبارزين بالعداوة للرسول ﷺ رجل يدعى أبا عامر الراهب، كان معلنًا العداء، ولما ظهر رسول الله ﷺ على المشركين يوم بدر غاظه ذلك، واشتد حنقه على الإسلام ، وخرج إلى المشركين يحرضهم على قتال الرسول ﷺ ، فأتى إلى مكة ، وشجع كفار قريش على ذلك ، فنشطوا ، والتف حولهم من أحياء العرب من وافقهم ، فأتوا إلى المدينة ، وذلك في غزوة أحد ، فكان من أمر المسلمين ما كان ، وامتحنهم الله ، ولله الحكمة البالغة .

وكان أبو عامر قد حفر حفرًا فيما بين الصفوف ، فوقع ﷺ في واحدة منها ، فجرح وجهه ، وكسرت رباعيته ، وشج رأسه ، صلوات الله وسلامه

عليه .

وقام الخبيث أبو عامر يدعو قومه من الأنصار ، يخاطبهم ، ويستميلهم إليه ، وإلى موافقته ، ونصرته ، فلما عرفوه ، وسمعوا كلامه ، قالوا : لا أنعم الله بك عينًا يا فاسق يا عدو الله ، ونالوا منه ، وسبوه . وكان رسول الله ﷺ قبل ذلك قد دعاه إلى الله ، وقرأ عليه القرآن ، فأبى أن يسلم ، وتمرد ، وألب على رسول الله من ألب ، فلما رأى عداوته للإسلام دعا عليه ﷺ أن يموت بعيدًا طريدًا ، فنالته هذه الدعوة ، وأهلكه الله على هذه الصفة.

فإنه ذهب يستنصر بملك الروم على رسول الله ﷺ ، وأمر قومه من المنافقين أن يبنوا مسجدًا يكون مقرًا لهم ، ومجتمعًا يجتمعون فيه ، قريبًا من مسجد قباء ، ففعلوا ، وطلبوا من الرسول ﷺ أن يصلي لهم بهذا المسجد ، فأظهروا عملا صالحًا ، وقصدوا بذلك عملًا سيئًا .

فبناء المساجد من أفضل الأعمال لمن قصد الخير ، والنصح لعباد الله ، وللإسلام ، ولكن إذا كان المقصود منه إدخال الضرر على المسلمين ، والاستعداد لمحاربة الله ورسوله ، فإن بناءه -وإن كان مسجدًا- من أظلم الظلم ، وأسوأ الأعمال .

فأطلع الله نبيه على مرادهم بعمارة هذا المسجد ، وأنهم إنما أرادوا بذلك محاربة الله ورسوله ، فنهى نبيه عن الصلاة والقيام فيه ؛ لأنه أسس

على فجور ومعصية ، ولم يؤسس على تقوى من الله ورضوان ، كما أسس مسجد قباء على التقوى والرضوان ، وأنزل على نبيه الآيات في سورة التوبة ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ ۖ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴾ [التوبة:١٠٧-١٠٨] .

فمن هنا يتبين لك أن الأمور بمقاصدها وحقائقها ، لا بظواهرها . فهؤلاء قاموا ببناء مسجد ظاهره الخير والصلاح ، ولكن باطنه الشر ومحاربة الله ورسوله .

اللهم ارزقنا الإخلاص في القول والعمل ، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

* * *

(٥٣)

كراهية الإكثار من المزاح

كثير من الناس يمزحون ، ويبالغون في المزح ، وربما أدى ذلك إلى تكدير البال ، وتغيير الحال ، ووقوع الجفاء والبغضاء بسبب ذلك .

وقد قال الحكماء : إن المزاح مثل الملح في الطعام ، القليل منه يصلحه، والكثير منه يفسده .

وهذا هو الواقع ، وهو المشاهد ، فكثير المزاح غالبًا ما يتقيه الناس ويتجنبونه ، ويكرهون مخالطته ، ويخشون من مزحه ، وربما عدوا ذلك من سيئاته ، ووصفوه بالتعرض للناس والأذية لهم . فالمسلم في غنى عن ذلك، وعليه أن يبتعد عن كل ما يدنس عرضه، أو يكون سببًا في وقوع الناس فيه.

وكم حصل التفريق بين شخصين وتباعدهما ، بسبب كلمة مزح خرجت من أحدهما من غير أن يحسب لها حسابًا ، وربما ندم المازح ندامة شديدة على كلمة تخرج منه من غير روية وتفكير .

ويروى أن مجاهدًا رحمه الله كان له صديق ، فمازحه ، فأعرض كل واحد منهما عن صاحبه ، فما زاده عن السلام حتى مات .

قال بعض العلماء : إن المزاح ربما أثار العداوة ، وإنَّ منْ أكثرَ منه جرأ عليه السفهاء ، وأحقد عليه العقلاء ، وإنه يذهب البهاء ، ويجلب العداء ،

ويبعد الصديق .

وقيل : لا تمازح الشريف فيحقد عليك ، ولا تمازح الوضيع فيجترئ عليك .

وقال بعضهم : المزاح مسلبة للبهاء ، مقطعة للصداقة ، يورث الضغن ، ويثبت الغل . وقد قيل في هذا المعنى :

أكرم جليسك لا تمازح بالأذى   إن المزاح ترى به الأضغان

كم من مزاح جذ حبل قرينه   فتجذمت من أجله الأقران

قال أبو حاتم رحمه الله : المزاح إذا كان فيه إثم فهو يسود الوجه ، ويدمن القلب ، ويورث البغضاء ، وإذا كان من غير معصية ، يسلي الهم ويوقع الخلة ، ويحيي النفوس ، ويذهب الحشمة .

فالواجب على العاقل أن يستعمل من المزاح ما ينسب بفعله إلى الظرافة والحلاوة ، ولا ينوي به أذى أحد ، ولا سرور أحد بمساءة أحد .

وقال عمر بن الخطاب ﵁ : من كثر ضحكه قلت هيبته ، ومن مزح استخف به ، ومن أكثر من شيء عرف به .

وربما كان المزاح سببًا إلى المهارات والمجادلة المنهي عنهما شرعًا ، فإن المازح ربما أتى بالكلام على وجه المداعبة ، ثم حمله بعض الحاضرين على الجد لغرض سيء ، أو لغير غرض ، فاضطر المازح إلى الاعتذار ، أو تثبيت

ما قال ، ولو عن طريق الخصام والمجادلة ، فوقع في مكروه يصعب التخلص منه ، وقال بعضهم في هذا المعنى :

وإياك من حلو المـزاح ومره ومن أن يراك الناس فيه ممارِيًا

وإن مراء المرء يخـــلق وجهه وإن مزاح المرء يبدي التشـافيا

دعاه مزاح أو مراء إلى الـتي بها صـــار مقلى الإخاء وقاليا

لكن إذا كان المزاح قليلاً ، ولا يحصل منه ضرر ، ولا يتجاوز المازح فيه الحد المشروع ، فهذا غير منهي عنه ، وربما كان حسنًا ؛ لأنه ربما أدخل السرور والانبساط على الجليس ، وكان النبي ﷺ يستعمل شيئًا من ذلك ، ولكنه لا يقول إلا حقًا ، وخير الهدى هدى محمد ﷺ .

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

* * *

(٥٤)

ذم الحرص وطول الأمل

إن الحرص على الدنيا سبب للوقوع فيما يخاف منه ويحذر ، وهو الغفلة عن الله ، وعن ذكره ، وتناول ما لا يحل أخذه من المال .

فعلى المسلم أن يتعاهد نفسه ويمسك بزمامه عن شدة الحرص على المال ؛ لأن المال ليس مقصودًا لذاته ، وإنما هو وسيلة ؛ لحصول ما يقوم به البدن من المأكل ، والمشرب ، والملبس ، والمسكن .

وهذه الأمور تحصل بالسعي في طلب المال في حدود الشرع ، ولو لم يتجاوز المرء حدود الأدب في طلبه ، أو يتجاوز الأمر المشروع ، وفي حدود المأذون به شرعًا لا يلام المسلم على ذلك ، بل هذا محمود ، فإن النبي ﷺ لما سئل عن الكسب الطيب قال : « عمل الرجل بيده وكل بيع مبرور » رواه أحمد[1] ، والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾[الجمعة:١٠] يعني : بالبيع والشراء ؛ لطلب الكسب الحلال ، وقال سبحانه وتعالى : ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾ [المزمل :٢٠] .

فكل هذا غير مذموم ، بل هو مأمور به على وفق التعاليم الشرعية ،

---

(١) مسند أحمد ، رقم (١٧٢٦٥) .

ومنها : أن يكون سالمًا من الغش ، والخداع ، والكذب ، والأيمان الفاجرة .

وإنما المذموم هو الحرص الزائد ، الذي يحمل الإنسان على الغش ، والخداع ، أو يحمله على ترك الواجب ، والانشغال عنه بطلب التجارة ، أو أي نوع من أنواع المكاسب .

وقد أخبر ﷺ أن ابن آدم كلما تقدم به السن اشتد حرصه على المال ، وطال أمله في طول العمر وبقائه .

فقد روى الإمام أحمد في مسنده : « يهرم ابن آدم ، ويشب معه اثنتان الحرص ، وطول الأمل »[(١)] . وفي لفظ للبخاري : « يكبر ابن آدم ، ويكبر معه اثنان حب المال وطول العمر »[(٢)] .

وفي لفظ لمسلم وغيره : « يهرم ابن آدم ، وتشب معه اثنتان : الحرص على المال ، والحرص على العمر »[(٣)] .

وله طرق كثيرة سوى ما ذكرنا .

يقول أبو العتاهية :

---

(١) مسند أحمد ، رقم (١٣٩١٧) .
(٢) صحيح البخاري ، رقم (٦٤٢١) .
(٣) صحيح مسلم ، رقم (١٠٤٧) .

قد شاب رأسي ورأس الحرص لم يشب

إن الحريـص على الدنيـا لفي تــعب

ما لي أرانــي إذا حاولــت مــنزلة

فنلتهــا طمحت نفســي إلى رتــب

لو كان ينفعنــي علمــي وتجربتــي

لم أشــف غيظي من الدنيـا ولا كلبي

اللهم ارزقنا القناعة ، ووفقنا للعمل الصالح الذي يرضيك عنا يا حي يا قيوم .

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

❋ ❋ ❋

(٥٥)

مضار الغضب

الغضب خلق رذيل ، وصفة ذميمة ، تؤدي بصاحبها إلى الخسارة في دينه ودنياه ، وتدخل عليه الضرر في نفسه ، وما تمكن الغضب من امرئ إلا وقل صديقه ، وكثر معاديه ، وخف ميزانه في مجتمعه .

ولقد حذر النبي ﷺ من الغضب ، وبين عليه الصلاة والسلام أن القوي والشديد هو من يملك نفسه عند الغضب يقول النبي ﷺ : « ليس الشديد بالصرعة وإنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب » رواه البخاري ومسلم[1] .

والغضب ينشأ أحيانًا من الكبر والعظمة ، وكون الإنسان يرى أن له الحق في كل شيء ، وأن معاكسة هواه وإرادته ازدراءٌ به ، وعدم توقير له . وما يدري الغاضب أنه إذا احتدم غيظه ، وشاطت نفسه غضبًا تكلم بكلام لا يعقله ، وزال حلمه ، وفقد الرشد والصواب فيما يفعل أو يقول ، وأصبح في عداد الحمقى ، وتكلم بكلام السفه من سب وشتم ، وربما بلغ به الحال إلى أن يسب صديقه أو قريبه أو نفسه .

وقد يقال : إن الغضب غريزة ليست في مقدور الإنسان ، يحصل منه

---

(١) صحيح البخاري ، رقم (٦١١٤) ؛ صحيح مسلم ، رقم (٢٦٠٩) .

بغير اختياره، فيقال: نعم لاشك أنه خلق، ولكن القرآن والسنة النبوية جاء فيهما الأمر بكظم الغيظ ، والنهي عن الغضب ، وما ذاك إلا لمحاولة البعد عن هذه الصفة وتوطين النفس على الصبر،وعدم تنفيذ ما يقتضيه غضبه .

ولذلك يقول سبحانه في صفة عباده المؤمنين : ﴿ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ ﴾ [الشورى:٣٧] ، ويقول سبحانه : ﴿ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ﴾ [آل عمران:١٣٤] ، وقال ﷺ : « ليس الشديد بالصرعة ، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب» متفق عليه[(١)] ، وكذلك لما طلب أحد الصحابة منه ﷺ الوصية فقال : يا رسول الله أوصني، قال : « لا تغضب ، فكررها عليه ثلاثًا ، وهو يقول : لا تغضب » رواه البخاري[(٢)] .

فالشرع يأمر بالبعد عن الغضب ، وضبط النفس ، وذلك لما للغضب من مفاسد دينية وخلقية واجتماعية ، فكم جر على الناس حروبًا بسبب غضب رئيس أو مسئول ، وكم فرق أسرًا، وكم شتت شملًا ، وكم حال بين صديق وصديق ، وحبيب وحبيب . ما أكثر ما يحصل الطلاق بسبب الغضب ، فتقع التفرقة بين المرء وزوجه ، فيبقى كل منهما في حسرة ، ويتفرق أولادهما ، ويتشتت شملهما بعد الانسجام والوئام ، وربما بقي

---

(١) تقدم تخريجه ص ٢٣٨ .

(٢) صحيح البخاري ، رقم (٦١١٦) .

سائر دهره في قلق ونكد ، وسبب ذلك هو الغضب ، وعدم ضبط النفس ، ولذلك يقول بعض الحكماء في هذا المعنى :

ولم أر فضـــلًا تم إلا بشـــــيمة

ولم أر عقــلًا صح إلا عــلى الأدب

ولم أر في الأعداء حـــين اختبرتهم

عدوًا لعقل المرء أعدى من الغضب

فعلى العاقل أن يملك نفسه عند الغضب ، وأن يحذر من أن يتكلم أو يفعل شيئًا في حال غضبه يكون بعد ذلك وبالاً عليه .

قيل للأحنف بن قيس : ما أحلمك ، ألا تحس بالغضب ؟ قال : بلى أحس بما تحسون به ، ولكني أملك نفسي .

ويروى أنه مكتوب في الإنجيل : ابن آدم اذكرني حين تغضب، أذكرك حين أغضب ، فلا أمحقك فيمن أمحق ، وإذا ظلمت فلا تنتصر ، فإن نصرتي لك خير من نصرتك لنفسك .

وقد قالت الحكماء : الغضب بذر الندم ، فالمرء على تركه قبل أن يغضب أقدر على إصلاح ما أفسد به بعد الغضب .

وكم كان الغضب سببًا للوقوع في المكروه ، أو في المحرم ، أو في

الندامة المستمرة للمرء طول حياته .

فعلى العاقل أن يحاول تجنب الغضب بكل ما يستطيع ، ولا يرخي لنفسه الزمام بمجاراة الغضب ؛ ولذلك أثنى الله عز وجل على الكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ، فإن المسلم إذا كظم غيظه أرضى ربه ، وأخزى الشيطان ، وأرغم عدوه ، وسر صديقه ، وسلم من الإثم ، وفاز بالآخرة ، وإذا قدر أن يستخفك سفيه أو لئيم ، فينبغي أن لا تجاريه ، بل تهجره ، وتترك إجابته ؛ لأنك متى أجبت اشتد عليك ، واستمر في سوء أدبه ، أما إذا تركته ، ولم تجبه ، فإنه يكون أسلم لك من ستره ، وأبلغ في حكايته ، وإن رددت عليه كلامه وجاريته ، فلا فرق بينك وبينه ، وقد قيل :

إذا جاريت في خلق دنيء فأنت ومن تجاريه سواء

فعلى المسلم التقيد بأوامر القرآن ، والاهتداء بهدي سيد الأنام ، عليه من الله أفضل الصلاة والسلام ، وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان .

* * *

(٥٦)

التحذير من آفات اللسان

إن للسان آفات كثيرة فوق ما يتصورها كثير من الناس ، ولذلك كان ﷺ كثيرًا ما يحذر أصحابه من آفات اللسان ، وقال لمعاذ رضي الله عنه : «وهل يكب الناس في النار على وجوههم -أو قال : على مناخرهم- إلا حصائد ألسنتهم» رواه أحمد وأصحاب السنن الأربعة[١] .

وقال ﷺ : « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه » رواه مالك والترمذي[٢] .

وجاء في مسند الإمام أحمد رحمه الله : « من حسن إسلام المرء قلة الكلام فيما لا يعنيه »[٣] .

وروى عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : « جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : إني مطاع في قومي فما آمرهم به ؟ قال له : مرهم بإفشاء السلام ، وقلة الكلام إلا فيما يعنيهم » رواه الخرائطي في مكارم الأخلاق[٤] .

وفي صحيح ابن حبان عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال :

---

(١) مسند أحمد ، رقم (٢٢٠١٦) ، سنن الترمذي ، رقم (٢٦١٦) ؛ سنن ابن ماجه ، رقم (٣٩٣٧).

(٢) موطأ الإمام مالك ، رقم (١٦٠٤) ؛ سنن الترمذي ، رقم (٢٣١٧) .

(٣) مسند أحمد ، رقم (١٧٣٢) .

(٤) مكارم الأخلاق ، رقم (٣٩٦) .

«كان في صحف إبراهيم عليه السلام : وعلى العاقل ما لم يكن مغلوبًا على عقله أن يكون له ساعات ، ساعة يناجي فيها ربه ، وساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يتفكر فيها في صنع الله ، وساعة يخلو فيها لحاجته من المطعم والمشرب ، وعلى العاقل أن لا يكون طاعنا إلا لثلاث : تزود لمعاد ، أو مرمة لمعاش ، أو لذة في غير محرم . وعلى العاقل أن يكون بصيرًا بزمانه ، مقبلا على شأنه ، حافظا للسانه ، ومن حسب كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه »[١] .

وروى الترمذي عن أنس رضي الله عنه قال : « توفي رجل من أصحاب النبي ﷺ فقال رجل : أبشر بالجنة ، فقال رسول الله ﷺ : أو لا تدري فلعله تكلم فيما لا يعنيه ، أو بخل بما لا ينقصه »[٢] .

وأخرج العقيلي عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا : « أكثر الناس ذنوبًا أكثرهم كلامًا فيما لا يعنيه»[٣] .

وقال الحسن البصري رحمه الله : من علامة إعراض الله عن العبد أن يجعل شغله فيما لا يعنيه .

وقال معروف الكرخي : كلام العبد فيما لا يعنيه خذلان من الله عز

(١) صحيح ابن حبان ، رقم (٣٦١) .
(٢) سنن الترمذي ، رقم (٢٣١٦) .
(٣) الضعفاء للعقيلي ٣/ ٤٢٤ .

وجل[١] .

وروى عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه : من كثر كلامه كثر سقطه ، ومن كثر سقطه كثرت ذنوبه ، ومن كثرت ذنوبه كانت النار أولى به[٢] .

وكان أبو بكر رضي الله يأخذ بلسانه ، ويقول : هذا الذي أوردني الموارد[٣] .

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان يأخذ بلسانه ، وهو يقول : ويحك قل خيرا تغنم ، أو اسكت عن شر تسلم ، وإلا فاعلم أنك ستندم . وقيل له : يا ابن عباس ، لم تقول هذا ؟ قال : إنه بلغني أن الإنسان أُراه قال : ليس على شيء من جسده أشد حنقًا أو غيظًا يوم القيامة منه على لسانه ، إلا قال به خيرًا ، أو أملى به خيرًا[٤] .

وقال بعض السلف : لو أنكم كنتم تشترون الكاغد -أي الورق- للحفظة لأمسكتم عن كثير من الكلام .

ولما قيل لبعضهم : لم لزمت السكوت ؟ قال : إني لم أندم على

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٨/ ٣٦١ .

(٢) المعجم الأوسط للطبراني ، رقم (٦٥٤١) .

(٣) أخرجه مالك في الموطأ ، رقم (٢٨٢٥) .

(٤) أخرجه : أحمد في الزهد (١٠٤٧) ، وأبو نعيم في حلية الأولياء ١/ ٣٢٧ - ٣٢٨ .

السكوت قط ، وقد ندمت على الكلام مرارًا.

وقد قال الحكماء : جرح اللسان أعظم من جرح اليد .

وقد روى عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال:

يموت الفتى من عثرة من لســـانه

وليس يموت المرء من عثرة الرجل

فعثرته من فيـــه ترمي برأســـه

وعثرة الرجل تـــبرى على مهـــل

وكل ما تقدم لنا في ذم الكلام فإنما المراد منه الكلام فيما لا يعني ، أما الكلام الحق ، كالذكر ، والتسبيح ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتلاوة القرآن ، وتعليم العلم ، فهذا مما حث عليه الشارع ﷺ ، وأمر به ، وإنما النهي هو فيما وردت فيه الأحاديث بالنهي عنه من الغيبة ، والنميمة، والخوض في فضول الكلام ، التي لا تنتج إلا شرًا ، فكثرة الكلام شؤم على صاحبها ، فكم كلمة قالت لصاحبها : دعني ، وكم كلمة صارت سبب حتف قائلها ، كما قيل :

احفظ لســانك أيها الإنسـان لا يلدغنـــك إنـــه ثـــعبان

كم في المقابر من صريع لسانه كانت تهـاب لقاءه الشـجعان

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه .

(٥٧)

التحذير من الكذب

إن الكذب من الخصال المذمومة المحرمة شرعًا ، نهى عنه رسول الله ﷺ ، وحذر منه ، والكذب يعظم ويكبر أمره بحسب المكذوب فيه ، والمكذوب عليه ، فإن كان الكذب على الله، فهذا أعظم أنواع الكذب، يقول الله عز وجل: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ [الأنعام:٢١] ، وكذلك الكذب على رسوله ﷺ ، فقد قال عليه الصلاة والسلام : « من كذب عليّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار » رواه البخاري ومسلم[١] .

وقد أخبر ﷺ أن الكذب يهدي إلى الفجور ، والفجور يهدي إلى النار ، وقد قال سبحانه في حق الفجار : ﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [المطففين :٧-١٠] .

وروى البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « عليكم بالصدق ، فإن الصدق يهدي إلى البر ، والبر يهدي إلى الجنة ، وما يزال الرجل يصدق ، ويتحرى الصدق ، حتى يكتب عند الله صديقًا ، وإياكم والكذب ، فإن الكذب يهدي إلى الفجور ، والفجور يهدي إلى النار ، وما يزال الرجل يكذب ، ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله

---

(١) صحيح البخاري ، رقم (١٠٧) ؛ صحيح مسلم ، رقم (٣) .

كذابًا »[١] .

وروى أبو يعلى والحاكم وغيرهما عن أنس ﷺ مرفوعًا : « تقبلوا لي ستا أتقبل لكم الجنة : إذا حدث أحدكم فلا يكذب ، وإذا وعد فلا يخلف ، وإذا اؤتمن فلا يخن، وغضوا أبصاركم،وكفوا أيديكم،واحفظوا فروجكم»[٢] .

وجاء عنه ﷺ أنه قال : « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك ، فإن الصدق طمأنينة ، والكذب ريبة »رواه النسائي والترمذي وصححه[٣] .

وفي مسند أحمد عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يؤمن العبد الإيمان كله، حتى يترك الكذب في المزاح، والمراء وإن كان صادقًا »[٤] .

وفي المسند أيضًا عن أبي أمامة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « يُطبع المؤمن على الخلال كلها ، إلا الخيانة والكذب »[٥] .

وفي المسند ورواه الحاكم وصححه عن عائشة ﷺ قالت : « ما كان من خلق أبغض إلى رسول الله ﷺ من الكذب ، ما اطلع على أحد من ذلك

---

(١) صحيح البخاري ، رقم (٦٠٩٤) ؛ صحيح مسلم ، رقم (٢٦٠٧) .
(٢) مسند أبي يعلى ، رقم (٥٧١١) ؛ سنن الترمذي ، رقم (٢٥١٨) .
(٣) سنن النسائي ، رقم (٥٧١١) ؛ سنن الترمذي ، رقم (٢٥١٨) .
(٤)مسند أحمد ، رقم (٨٧٦٦) .
(٥) مسند أحمد ، رقم (٢٢١٧٠) .

بشيء ، فيخرج من قلبه ، حتى يعلم أنه قد أحدثه بقربه »[(١)] .

وأخرج أبو داود والترمذي وحسنه والنسائي والبيهقي عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ويل للذي يحدث بالحديث ليضحك به القوم ، فيكذب ، ويل له ، ويل له »[(٢)] .

وأخرج مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ، ولا يزكيهم ، ولا ينظر إليهم ، ولهم عذاب أليم : شيخ زان ، وملك كذاب ، وعائل مستكبر»[(٣)] .

فهذه الأحاديث أيها المسلم كلها تدل على تحريم الكذب ، وشدة الوعيد فيه ، فعليك أن تتقي الله عز وجل ، وتحاذر عذابه ، فإن الله سبحانه وتعالى توعد المكذبين بالويل يوم القيامة ، كما قال سبحانه وتعالى في عدة آيات من سورة المرسلات : ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ .

وإنه كثيرًا ما يقع الكذب بأسباب منها: كثرة الكلام ، ومحبة التحدث بين الناس ، فربما حمل بعض الناس محبة التحدث إلى الناس ، ويعجبه إصغاؤهم إليه ، فيريد أن يأتي لهم بشيء مما لا يعرفون ، فيحمله ذلك على

---

(١) مسند أحمد ، رقم (٢٥١٨٣) ؛ المستدرك على الصحيحين للحاكم ، رقم (٧٠٤٤) .

(٢) سنن أبي داود ، رقم (٤٩٩٠) ؛ سنن الترمذي ، رقم (٢٣١٥) ؛ السنن الكبرى للنسائي ، رقم (١١٠٦١) ؛ السنن الكبرى للبيهقي ، رقم (٢١٣٤٦) .

(٣) صحيح مسلم ، رقم (١٠٧) .

الكذب، وبسبب هذا وقعت أحاديث كثيرة مكذوبة على الرسول ﷺ ، وضعها القصاصون ، الذين يحبون أن يقصوا الأخبار على الناس ، ويعظوهم ويخوفونهم ، فربما تعمدوا لجهلهم وقلة علمهم وضعف إيمانهم الكذب على الرسول ﷺ من أجل أن يقبل كلامهم بزعمهم ، أو من أجل تخويف الناس ، أو لا يكذب من عنده ، ولكنه ينقل الكذب ، ويأتي بأحاديث مكذوبة وهو يعلم ذلك ، ولكن يقصد بها الاستغراب أو تخويف الناس ، وقد قال ﷺ : « من كذب علي متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار »[(١)] ، وقال ﷺ : « بحسب المرء من الكذب أن يحدث بكل ما سمع » رواه مسلم[(٢)] . وهذا فيه الزجر الشديد ، والوعيد على من حدث بكل ما يسمع .

اللهم ارزقنا الصدق والإخلاص في القول والعمل .

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

* * *

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، رقم (١٢٢٩) ؛ ومسلم في صحيحه ، رقم (٣) .
(٢) صحيح مسلم ، رقم (٥) .

(٥٨)

إن في المعاريض مندوحة عن الكذب

كثيرًا ما يُحرج بعض الناس في بعض الأسئلة والاستفسارات ، ولا يستطيع أن يخبر بالواقع لأمر ما ، إما للخوف على نفسه ، أو للخوف على غيره ، كقريبه ، أو صديقه ، أو خوفًا من إظهار سر من أسراره ، أو أسرار عمله ، أو ما يهم المسلمين ، فيقع في هذه الحالة في حرج ، إن كذب خاف من الله ، ومن الاتصاف بالكذب الذي نهي عنه رسول الله ﷺ ، وذمه الله في محكم كتابه ، وبين شدة الوعيد فيه ، وإن أخبر بالواقع حصل عليه ضرر في دينه ودنياه ، فلما كانت هذه مشكلة قائمة ، ولا يخلو من الوقوع فيها أحد ، فقد جاء ما يدل على جواز استعمال المعارض إذا لم تحل حرامًا ، ولم تحرم حلالًا .

فقد روى البخاري في الأدب المفرد عن عمران بن حصين ﵁ قال : قال رسول الله ﷺ : « إن في المعاريض لمندوحة عن الكذب »[(١)] .

وقال عمر بن الخطاب ﵁ : « ما يسرني أن لي بها أعلم من معاريض القول مثل أهلي ومالي »[(٢)] .

---

(١) الأدب المفرد ، رقم (٨٨٥) .

(٢) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه ، رقم (٢٦٦١٨) .

وقال النخعي رحمه الله : « لهم كلام يتكلمون به ، إذا خشوا من شيء يدرؤون به عن أنفسهم مخافة الكذب »[١] .

وقال ابن سيرين : « الكلام أوسع من أن يكذب ظريف »[٢] .

ومن هذا الباب ما يفعله النبي ﷺ في بعض الأوقات من المزح مع بعض أصحابه ولا يقول إلا حقًا عليه الصلاة والسلام ، فقد قال مرة لامرأة عجوز : «إن الجنة لا يدخلها عجوز»[٣] ، وكلامه ﷺ حق ، فإن مراده أن العجوز في الدنيا لا تكون عجوزًا عند دخول الجنة ، فإن نساء أهل الجنة ليس فيهن عجوز.

ومثل هذه قوله ﷺ للرجل الذي طلب من الرسول بعيرًا يركبه ، فقال له رسول الله ﷺ : « إنا حاملوك على ولد ناقة ، فقال الرجل: يا رسول الله ، ما يفعل بي ولد الناقة -أي أنه لا يحملني- فقال رسول الله ﷺ : وهل تلد الإبل إلا النوق »[٤] أي : إنه مهما كان من الإبل ، ومهما بلغ من السن ، فإنه ولد ناقة ، ولكن الرجل فهم من كلمة الولد أنه ولد صغير ، والنبي ﷺ لم يرد ذلك .

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه ، رقم (٢٦٦٢٢) .

(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان ، رقم (٤٨٩٨) .

(٣) رواه الطبراني في الأوسط ، رقم (٥٥٤٥) .

(٤) رواه أحمد في مسنده ، رقم (١٣٨٤٤) ؛ وأبو داود، رقم (٤٩٩٨) ؛ والترمذي ، رقم (١٩٩١) .

ومثل هذا كثير ، يقع من بعض الصحابة .

ومنه ما رواه عكرمة قال : « كان ابن رواحة مضطجعا إلى جنب امرأته، فقام إلى جارية له في ناحية الحجرة ، فوقع عليها ، وفزعت امرأته ، فلم تجده في مضجعه ، فقامت وخرجت ، فرأته على جاريته ، فرجعت إلى البيت ، فأخذت الشفرة ، ثم خرجت وفرغ ، فقام فلقيها تحمل الشفرة ، فقال: مهيم، فقالت : مهيم ، لو أدركتك حيث رأيتك لوجأت بين كتفيك بهذه الشفرة ، قال: وأين رأيتني؟ قالت : رأيتك على الجارية ، فقال : ما رأيتني وقد نهى رسول الله ﷺ أن يقرأ أحدنا القرآن وهو جنب ، قالت : فاقرأ ، فقال :

أتانا رسول الله يتلو كتابه كما لاح مشهور من الفجر ساطع

أتى بالهدى بعد العمى فقلوبنا به موقنات أن ما قال واقع

يبيت يجافي جنبه عن فراشه إذا استثقلت بالمشركين المضاجع

فقالت : آمنت بالله ، وكذبت البصر ، ثم غدا على رسول الله ﷺ فأخبره ، فضحك حتى رأيت نواجذه ﷺ » رواه الدارقطني في سننه[(١)] .

وروى البخاري في صحيحه عن كعب بن مالك رضي الله عنه قال: «لم يكن

---

(١) سنن الدارقطني ، رقم (٤٣٢) .

رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا ورَّى بغيرها»[(١)]، يريد أنه ﷺ كان يستعمل التورية من أجل أن لا تصل الأخبار إليهم أنه ﷺ سائر إليهم، فيحذروا، ويتأهبوا لقتاله.

وصفة التورية التي كان يستعملها عليه الصلاة والسلام أنه إذا أراد غزوة إلى جهة الشمال مثلًا، جعل ﷺ يسأل عن الطرق، وموارد المياه التي في جهة الجنوب، حتى يظن الناس أنه إنما يريد أن يتجه إلى تلك الجهة، فيحصل مقصوده ﷺ، بأن يتحدث الناس أنه يسأل عن المياه التي في تلك الجهة فهو يريد الذهاب إليها، وهم لا يعلمون عن إرادته، ولكنهم استوحوها من سؤاله عن جهة الجنوب مثلًا، فيحصل مقصوده من التهيئة على العدو من دون أن يكذب.

ومن هذا الباب لما سأله العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه عن عمه أبي طالب، فقال له: ما ترجو لأبي طالب؟ قال: كل الخير أرجو من ربي»[(٢)]، ولاشك أنه ﷺ يرجو الخير من ربه، لكنه لم يخبر عن أبي طالب بشيء، وربما فهم العباس من ذلك كل خير أرجوه من ربي، ولكن رسول الله ﷺ لم يقل لأبي طالب إنما أخبر أنه يرجو الخير من ربه، وإلا فأبو طالب قد نهاه الله أن يستغفر له، بقوله: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ

---

(١) صحيح البخاري، رقم (٢٩٤٧).

(٢) أخرجه ابن سعد في طبقاته ١/ ١٢٤؛ وابن عساكر ٦٦/ ٣٣٦.

لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ ﴾ [التوبة:١١٣] ، فبعد نزول هذه الآية قطع الاستغفار له ﷺ ، وقبله كان يستغفر له ؛ لقوله عليه الصلاة والسلام : « لأستغفرن لك ما لم أنه عنك » رواه البخاري ومسلم[(١)] ، فلما نُهي كف عن ذلك .

ومن المعاريض ما روي عن شريح القاضي أنه دخل على زياد يزوره في مرض موته ، ولما خرج من عنده سأله بعض الناس ، فقال : كيف الأمير؟ قال : تركته يأمر وينهى ، فلما توفى قالوا له : إنك قلت كذا وكذا فقال: ما كذبت تركته يأمر بالوصية ، وينهي عن النوح عليه[(٢)] .

ومن المعاريض القصة المشهورة أن رجلًا من العسس عثر على رجل يدور في الليل ، فقال : ما الذي أخرجك في هذا الوقت ؟ ومن أنت ؟ فقال له :

أنا ابن الذي لا ينزل الدهر قدره وإن نزلت يوما فسوف تعود

ترى الناس أفواجًا إلى ضوء ناره فمنهم قيام عندها وقعود

فظن أنه رجل من الأشراف ، فاستحي منه ، ثم تركه ، ولما أصبح وسأل عنه ، قيل له : إنه ولد فلان الذي يبيع الباقلاء والفول .

---

(١) صحيح البخاري ، رقم (٦٤٧٥) ؛ صحيح مسلم ، رقم (٢٤) .
(٢) تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ١/ ٤٠ .

فالحاصل أن المعاريض في الكلام التي لا تتضمن تحريم حلال ، أو تحليل حرام ، أو ذهاب حق لأحد ، فإنها جائزة ، وبها مندوحة ، وتخلص من الوقوع في الكذب . والله الموفق سبحانه وتعالى .

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

❋ ❋ ❋

(٥٩)

خطر النميمة

إن النميمة خطرها جسيم ، وضررها عظيم ، كم فرقت من جماعات، وكم خربت من ديار، وأفسدت من مجتمعات ، كان يسودها الوئام والمحبة، كما أن صاحبها متوعد بالعذاب في القبر ، وعدم دخول الجنة .

وقد كان النبي ﷺ ينهي أصحابه أن ينقلوا له عن أحد من أصحابه كلامًا ، فقد قال ﷺ : « لا يبلغني أحد من أصحابي عن أحد منهم شيئًا ، فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم صدر » رواه أبو داود والترمذي[1] .

هذا هو الأدب العالي الرفيع الذي ينهجه المصطفى ﷺ ، صاحب الخلق العظيم ، الذي وصفه الله به في قوله : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم:٤] ، وهذه الأخلاق العالية التي اتصف بها رسول الله ﷺ ، المأخوذة من تعاليم القرآن ، الذي كان خلقًا للنبي عليه الصلاة والسلام ، كما قالت عائشة : «كان خلقه القرآن» رواه مسلم[2] .

والقرآن يقول في هذا الموضوع مخاطبًا رسول الهدى ، والمراد به جميع الأمة : ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءِ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ

---

(١) سنن أبي داود ، رقم (٤٨٦٠) ؛ والترمذي ، رقم (٣٨٩٦) .
(٢) صحيح مسلم ، رقم (٧٤٦) .

أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ [القلم:١٠-١٣] .

هذه الأوصاف الذميمة وإن كانت نزلت في شخص معين ، ولكنها عامة في كل من يتصف بهذه الأوصاف أو بعضها ، فالله عز وجل يقول لنبيه ، وهو تعليم عام لجميع أمة الإسلام : ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴾ [القلم:١٠] كثير الحلف ، يخبر بالخبر ، ويعززه بأيمانه الكاذبة .

ومن صفاته أنه مهين ، لا يحترم نفسه ، ولا يحترم الناسُ قوله لما جربوه عليه من الكذب ، ومن مهانته ، وكثرة الحلف ، وعدم ثقته بنفسه ، ولما يرى من عدم ثقة الناس به .

ومن صفاته أنه همّاز ، يهمز الناس ، ويعيبهم بالقول والإشارة في حضورهم وغيابهم ، وهذا خلق رذيل يكرهه الإسلام ، ويبغضه ، وتوعد عليه القرآن كما في قوله سبحانه : ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾ [الهمزة:١] ؛ لأنه يخالف المروءة ، ويخالف الأدب الرفيع ، الأدب القرآني ، الأدب النبوي الذي كان يتصف به أشرف الخلق ﷺ .

ومن صفات ذلك الحلاف المهين ، أنه مشاء بنميم ، يمشي بالنميمة بين الناس ، بما يفسد قلوبهم ، ويقطع صلات بعضهم ببعض ، ويذهب موداتهم ، وهو خلق ذميم ناشئ عن مهانة صاحبه ، ومحبته للإفساد ، ومن نقل إليك كلام الناس ، فهو جدير بأن ينقل عنك لهم ما تكره .

ثم إن مَن هذا وصفه قد أخبر عنه الرسول الكريم ﷺ أنه من شرار الناس ، فكيف يأمنون من هو من شرار الناس .

فقد روى الإمام أحمد أن النبي ﷺ قال : « ألا أخبركم بشراركم ؟ المشاءون بنميمة ، المفسدون بين الأحبة ، الباغون للبرآء العنت »[(١)] .

وفي أكثر المجتمعات يوجد أناس عندهم أسلوب حسن ، ويحسنون الدخول على الأمراء والكبراء والقضاة ، إلا أنهم استغلوا أساليبهم في الباطل ، لم يستعملوها فيما يعود عليهم بالنفع ، أو فيما يعود على مجتمعهم بالخير ، فهم وظفوا أنفسهم بنقل الكلام من شخص إلى آخر، ينقلون الكلام بدون أمانة ، يزيدون وينقصون على حسب ما يرون أنه لائق لهذا الشخص المنقول إليه الكلام ، فهم يجمعون في ذلك بين النميمة والكذب ، وهذا هو الغالب على من اعتاد نقل الكلام ، أنه لا يقتصر على الواقع .

وهذا النوع من الناس خطره عظيم على المجتمعات وعلى الدين وعلى المروءة ، كم فرق بين قبائل ، وباعد بين رؤساء ومرؤوسيهم ، وأوغر صدور الأمراء والوجهاء على كثير من الناس، وكم فرق بين العلماء، وجعلهم يتباغضون ويختلفون ، ينقل كلام هذا إلى الآخر، فيغير ، ويبدل فيه ، ويزيد وينقص ، ويقول : قال فلان كذا في مسألة كذا ، فيثق السامع ، ويحمل على زميله ، ظنًا منه وتصديقًا لهذا النمام الكذاب ، بأن هذا كله واقع

---

(١) مسند أحمد ، رقم (٢٧٥٩٩) .

من نظيره في العلم ، فيحقد عليه ، ويخطئه ، ويحصل الخلاف بينهما ، وربما أنه لم يحصل بينهم خلاف في الحقيقة ، وأن الجميع متفقون على هذه المسألة ، ولكن الخلاف فيما زاده ذلك النمام أو نقصه .

وهذا الصنف من الناس لا يحترم أحدًا ، ولا يحترم مجلسًا ، ولا مسجدًا ، بل ربما دخل المسجد وخرج منه مأزورًا بما يتكلم به ، وبما ينقل عن بعض الخطباء والمدرسين والوعاظ فيه ، مما لم يفهمه ، أو مما فهمه ، ولكنه لم يقتصر على الواقع ، فيزيد وينقص ، حتى يتم له ما يريد من إساءة الظن بهذا المتكلم .

وقد ورد أن النمام يفسد في ساعة ما لا يفسده الساحر في سنة .

وكم وقعت بين الملوك والرؤساء والدول من الفتن العظيمة ، وجرت الدماء ، وسلبت الممالك بسبب النميمة والكذب .

فعلى العاقل التفطن ، والتيقظ لهذا الأمر ، ويتمثل قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ﴾ [الحجرات:٦] .

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

* * *

(٦٠)

التحذير من الرياء

سبحان من يعلم السر وأخفى ، سبحان من يعلم ما توسوس به النفس ، وما يختلج بالضمير ، إن الله عليم خبير ، فعلام يعمد العبد إلى فعل شيء ظاهره طاعة لله ، وهو لم يقصد به وجه الله ، ولكن قصد به التزين عند بعض المخلوقين ، الذين لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا ، ولا يملكون موتًا ولا حياة ولا نشورًا .

إن أخطر شيء على المسلم أن يعمل عملا ، أو يقول قولا ، لا يريد به الله ، ولا الدار الآخرة ، يعمل عملا ظاهره جميل ، وباطنه قبيح ، يظهر خلاف ما يسر ، ويسر خلاف ما يعلن ، يسبح ، ويهلل ، ويقرأ القرآن ، ويعظ الناس ، ويرشد ، ويعلم ، ويدعو إلى الله بلسانه وقلبه بعيد عن الله ، مشغول بالخلق ، معول على غير خالقه وبارئه .

لقد توعد الله سبحانه المرائين في محكم كتابه ، فقال سبحانه : ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ [الماعون:٤-٧] .

لقد قال ﷺ كما في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم : « من سمَّع

سمع الله به ، ومن يرائي يرائي الله به »[١] .

إن من الرياء والسمعة أن يعمل المسلم عملًا يبتغي به الشهرة ، وثناء الناس عليه ، إذا كان بين الناس عملَ الخيرَ ، وحث عليه ، وترك الشر ، وحذر منه ، وإذا خلا بنفسه ارتكب العظام ، واقترف الجرائم ، وقصر في الواجبات ، يحسن صلاته حيث يراه الناس ، ويسيء فيها حيث يخلو وحده، ألم يعلم بأن الله يرى أنها استهانة استهان بها ربه ؟ إن هذه الصفة من صفات المنافقين الذين يخادعون الله وهو خادعهم ، وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى ، يراؤون الناس ، ولا يذكرون الله إلا قليلا .

وقد أخبر ﷺ أنه يخرج في آخر الزمان رجال ، يختلون الدنيا بالدين ، يلبسون للناس جلود الضأن من اللين ، ألسنتهم أحلى من العسل ، وقلوبهم قلوب الذئاب ، يقول الله عز وجل : أبي يغترون ، وعليَّ يجترئون ، فبي حلفت لأبعثن على أولئك منهم فتنة ، تدع الحليم حيرانًا .

ينبغي للمسلم أن يتفقد نفسه عن الرياء والسمعة ، فإن الرياء نوع من أنواع الشرك الأصغر ، وإن الرسول ﷺ خافه على أمته ، بل خافه على الصالحين منهم ، وحذر منه غاية التحذير .

فقد روى الإمام أحمد وابن ماجه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال :

---

(١) صحيح البخاري ، رقم (٦٤٩٩) ؛ صحيح مسلم ، رقم (٢٩٨٦) .

قال رسول الله ﷺ : « ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : الشرك الخفي ، يقوم الرجل ، فيصلي ، فيزين صلاته ، لما يرى من نظر رجل »[1] .

فسماه ﷺ شركا خفيًا ؛ لأن محله القلب ، لا يعلم عنه إلا الله ، والله سبحانه لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصًا لوجهه ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ [الكهف:١١٠] .

والله جل وعلا طيب لا يقبل إلا طيبًا ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾ [فاطر:١٠] ، وكل ما عمله الإنسان وهو مراء فيه، فإنه من السيئات ، وإن كان ظاهره العبادة ، والطاعة ، والله لا تخفى عليه خافية .

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يمن علينا بالإخلاص ، ويعيذنا من شر الرياء والسمعة ، وما توفيقي إلا بالله ، عليه توكلت ، وإليه أنيب .

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

* * *

---

(١) مسند أحمد ، رقم (١١٢٥٢) ؛ سنن ابن ماجه ، رقم (٤٢٠٤) .

(٦١)

المرء على دين خليله

يتأثر الإنسان بجليسه أكثر مما يتأثر بعلمه غالبًا ، لأن كثيرًا من الناس تغلب عليه المجاملة ، ويكون عاطفيًا ، فيتأثر بأخلاق جلسائه ، فإن كانوا صالحين تأثر بصلاحهم ، واكتسب من أخلاقهم ، وإن كانوا سوى ذلك كان هو كذلك ، كما في الحديث : « المرء على دين خليله ، فلينظر أحدكم من يخالل »رواه أبو داود والترمذي[1] ، وقد روي في هذا المعنى قول الشاعر :

عن المرء لا تسـل وسل عن قرينـه
فكل قريـن بالمقـارن يقتـدي

فإن كان ذا شـر فجنبـه سـرعة
وإن كان ذا خـير فقـارنه تهتدي

إذا كنت في قوم فصاحب خيارهم
ولا تصحب الأردى فتردى مع الردي

ولابد للجليس أن يكتسب من أخلاق جليسه مهما كان ، ومهما احترس منها ، فقد قيل في المثل : الطبع لص ، أي أن الطبع لابد من التأثر،

---

(١) سنن أبي داود ، رقم (٤٨٣٣) ؛ سنن الترمذي ، رقم (٢٣٧٨) .

والأخذ من أخلاق الجليس من الناس ، ولو لم يشعر صاحبه بذلك ، وأبلغ من هذا كله وأصدق قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴾ [الفرقان:٢٧-٢٩] .

فعلى المسلم أن يحرص على الجلساء الصالحين ، الذين يأمرون بفعل ما يزينه ، وينهون عن فعل ما يشينه ، ويروضونه على الصبر ، والحلم ، والأناة .

قال بعض العلماء : على العاقل أن يستعيذ بالله من صحبة من إذا ذكر الله لم يعنه ، وإذا نسي لم يذكره ، وإن غفل حرضه على ترك الذكر ، ومن كان أصدقاؤه أشرارًا كان هو شرهم ، وكما أن الخيِّر لا يصحب إلا البررة ، كذلك الردي لا يصحب إلا الفجرة .

وروي عن عبد الواحد بن زيد أنه قال : جالسوا أهل الدين من أهل الدنيا ، ولا تجالسوا غيرهم ، فإن كنتم لابد فاعلين ، فجالسوا أهل المروءات ، فإنهم لا يرفثون في مجالسهم ، وقد قيل في هذا المعنى :

اصحب خيار الناس أين لقيتهم   خير الصحابة من يكون ظريفًا

والناس مثل دراهم ميزتها   فرأيت فيها فضة وزيوفا

وفي حديث أبي موسى ﵁ قال : قال رسول الله ﷺ : « مثل الجليس الصالح مثل العطار ، إن لم ينلك منه أصابك من ريحه ، ومثل جليس السوء مثل القين ، إن لم يحرق بشرره علق به من ريحه » رواه ابن حبان[1] .

والله سبحانه وتعالى وصف عباده المؤمنين بأنهم ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴾ [الفرقان:٧٢] .

فهؤلاء هم الذين يحرص العاقل على مجالستهم ؛ للانتفاع بهم ، والسلامة من الشرور بسببهم ، فإن الله أخبر أنهم لا يشهدون الزور ، أي لا يحضرون المجالس التي فيها الزور والبهتان، بل يبتعدون عنها، وعن أهلها، فإن من شارك في مثل هذه المجالس ناله ما ينالهم من السوء والفحشاء ، وإذا مروا باللغو مروا كرامًا ، أي أنهم إذا مروا بمجالس اللغو مروا كراما ، أي مجرد مرور ، بدون أن يجلسوا معهم ، مكرمين نفوسهم ، ومترفعين عن مجالس اللغو ، هم أرفع قدرًا ، وأجل منزلة من منزلة أولئك ، فلا يلوثون أنفسهم بمثل هذه المجالس ، التي تحط من قدر أهلها ، ومن جالسهم فهم بعيدون كل البعد عن مجالس الزور ، ومجالس اللغو والفجور .

ويروى عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﵁ أنه قال :

يقاس المــرء بالمــرء إذا ما هــو ما شــاه

---

(١) صحيح ابن حبان ، رقم ٥٧٩ .

وللشيء على الشيء مقاييس وأشباه

وللقلب على القلب دليل حين يلقاه

فاحرص أن يكون صديقك وجليسك ممن عرفوا بالاستقامة في دينهم ، وفي أخلاقهم ، وفي معاملتهم مع الغير ؛ لأنه متى كان جليسك ممن يكرهه الناس كرهوك ، وإن كان ممن يؤذي عباد الله أبغضوك ، هذا بالنسبة إلى حالك وحالة الناس ، أما بالنسبة لنفسك فإنه يجني عليك بسوء فعله ، وربما ورطك في أمور أنت لا تفعلها ، ولا تحب من يفعلها ، وربما تطاول على الناس بلسانه ، وأنت تماشيه فينسب الكلام لكما ، وربما جنى عليك أنت بنفسك ، أو جنى على غيرك وأنت معه ، فنسب الفعل لكما جميعًا .

قال سعيد بن أبي أيوب : لا تصاحب صاحب سوء ، فإنه قطعة من النار لا يستقيم وده ، ولا يفي بعهده .

قال بعضهم : من علامات الحمق أن الأحمق قلبه في طرف لسانه ، ما خطر على قلبه نطق به لسانه ، وربما تكلم بكلام يعجز عنه سحبان وائل، وربما تكلم في الساعة الأخرى بكلام لا يعجز عنه باقل . وأنشد بعضهم في هذا المعنى :

احذر الأحمق أن تصحبه إنما الأحمق كالثوب الخَلِق

كلما رقعته من جانب حركته الريح وهنا فانخرق

أو كصدع في زجاج فاحــش هل ترى صدع زجـاج يلتصق

كحمار السوء إن أطعمتــــه رَمَحَ النــاس وإن جـــاع نهق

تأمل وفقك الله ما سقنا لك من كلام العلماء في اختيار الجليس والحذر من مصاحبة الأحمق وجليس السوء ، وما ضربه العلماء من الأمثال في مصاحبة ومجالسة هؤلاء ، فلعل ذلك يكون فيه عبرة ، وتبصرة لمن وفقه الله .

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

❊ ❊ ❊

(٦٢)

الخوف من الله

كان العلماء العاملون رحمهم الله يحاسبون أنفسهم ، ويتفقدون أحوالهم في غالب أوقاتهم ، فلا يغفلون مع الغافلين ، ولا يغترون في هذه الحياة الدنيا مع المغترين ، فتجد أحدهم مع اجتهاده في العمل ، وخوفه من الله ، يلوم نفسه ، ويصفها بالتفريط ، وعدم الخوف ، وأكثر اهتمامهم بملازمة الخوف من الله ؛ لأنه من لازم الخوف ترك الذنوب وفعل الطاعات ، وصار على حذر في كل حالاته .

ثم إن الله سبحانه وعد الخائفين الجنة ، فقال سبحانه : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن:٤٦] ، فذكر أوصافها ، ثم قال : ﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن:٦٢] وكل هذه الجنات التي وصفت في الآيات من سورة الرحمن ، أعدها الله للخائفين ؛ ولهذا ورد في الحديث القدسي : « قال الله عز وجل : و عزتي لا أجمع لعبدي أمنين و لا خوفين ، إن هو أمنني في الدنيا أخفته يوم أجمع فيه عبادي ، و إن هو خافني في الدنيا أمنته يوم أجمع فيه عبادي » رواه أبو نعيم[1] .

وكان السلف الصالح كثيرًا ما يذكرون الخوف ويسألون عنه:

---

(١) الحلية ١/ ١٧٠ .

وقد سئل ابن عباس رضي الله عنهما عن الخائفين ؟ فقال: « هم الذين صدقوا الله في مخافة وعيده ، فقلوبهم بالخوف قريحة ، وأعينهم على أنفسهم باكية ، ودموعهم على خدودهم جارية ، يقولون كيف نفرح والموت من ورائنا ، والقبور أمامنا ، والقيامة موعدنا ، وعلى جهنم طريقنا ، وبين يدي ربنا موقفنا » .

ووعظ منصور بن عمار رحمه الله قومًا في مجلسه ، فقال لهم : « إن لله عبادًا ، جعلوا ما كتب عليهم من الموت مثالًا بين أعينهم ، وقطعوا الأسباب المتصلة بقلوبهم من علائق الدنيا ، فهم أنضاءُ عبادته ، حلفاء طاعته ، قد نضحوا خدودهم بوابل دموعهم ، وافترشوا جباههم في محاريبهم ، يناجون ذا الكبرياء والعظمة في فكاك رقابهم » .

وقال محمود الوراق رحمه الله في محاسبته لنفسه وخوفه من الله عز وجل :

يا غـــافلًا ترنـــو بعيني راقـــد ومشـــاهدا للأمر غير مشـاهد

تصل الذنوب إلى الذنوب وترتجي درك الجنـــان بها وفـــوز العابد

ونســـيت أن الله أخـــرج آدمـــا منها إلى الدنيا بذنب واحـــد

وروي عن الفضيل بن عياض رحمه الله أنه قال : « إني لأستحي من الله أن أقول : توكلت على الله ، ولو توكلت عليه حق التوكل ، ما خفت ،

ولا رجوت غيره » .

وقال : « من خاف الله أخاف الله منه كل شيء ، ومن لم يخف الله أخافه الله من كل شيء » .

وقال : « وعْد من الله لمن خافه أنه يدخله الجنة ، وتلا قوله تعالى : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن:٤٦] .

وكان أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز كثيرًا ما يلوم نفسه، ويوبخها، ويخيفها في الله ، وكان كثيرًا ما ينشد هذه الأبيات :

نهارك يا مغرور سهو وغفلة   وليلك نوم والردى لـك لازم

يغرك ما يغني ويشغل بالمنى   كما غر باللذات في النوم حـالم

وتشغل فيما سوف تكره غبه   كذلك في الدنيا تعيش البهائم

هكذا كان السلف رضوان الله يعرفون معنى الخوف من الله وهي حالة من نوَّر الله بصائرهم ، وعرَّفهم بعواقب الأمور ؛ لأنهم آمنوا بالله ، وصدقوا رسوله ﷺ ، ولِقوَّة إيمانهم وتصديقهم كأنهم يشاهدون ما وعدوا ، وينظرون إلى يوم القيامة بأهواله وعجائبه ، فلذلك لم تشغلهم هذه الحياة بزينتها ، ولم تلههم بزخارفها ، بل صحبوا أهلها بأبدانهم ، وقلوبهم مع الله، بين الخوف من عذابه ، ورجاء ما عنده ، كما وصف الله سبحانه بعض أنبيائه بقوله : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا

وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾ [الأنبياء: ٩٠] .

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

* * *

(٦٣)

الكف عما حرم الله

الكف عما حرم الله سبحانه وتعالى من أفضل الأعمال ، سواء كانت من الأعمال التي بينك وبين الله ، أو بينك وبين نفسك ، أو بينك وبين عباد الله.

أما التي بينك وبين الله عز وجل : فأعظمها على الإطلاق الشرك بالله، وهو أكبر الكبائر ، وأعظم المحرمات ، وصاحبه إذا مات عليه فهو خالد مخلد في النار، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء:٤٨] ، وقد سمى الله سبحانه وتعالى الشرك ظلم عظيم ، كما قال سبحانه عن لقمان عليه السلام : ﴿ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ﴾ [لقمان:١٣].

ولما سئل ﷺ : أي الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله ندًا وهو خلقك» متفق عليه[(١)] .

فعلى العبد المؤمن الحرص على تحقيق التوحيد ، والعبادة لله وحده لا شريك له ، وليحاسب نفسه كل وقت وحين ، مخافة أن يدخل في شيء من ذلك ، وهو لا يشعر .

---

(١) صحيح البخاري ، رقم (٦٠٠١) ؛ صحيح مسلم ، رقم (٨٦) .

فإن الشرك أنواع : منه أكبر ، يخرج عن دائرة الإسلام ، كصرف شيء من أنواع العبادة لغير الله ، ومنه شرك أصغر ، وهو خفي قد يقع فيه الإنسان وهو لا يشعر ؛ ولذلك روي عنه ﷺ أنه قال : « أيها الناس اتقوا هذا الشرك فإنه أخفى من دبيب النمل » رواه أحمد[(١)] .

ولما قال له بعض الصحابة : وكيف نتقيه وهو أخفى من دبيب النمل؟ ، قال : قولوا : « اللهم إنا نعوذ بك أن نشرك بك شيئًا نعلمه ، ونستغفرك لما لا نعلم » رواه أحمد والطبراني وابن أبي شيبة[(٢)] .

ويدخل في هذا النوع من الشرك الرياء ، والسمعة ، والحلف بغير الله، ونحو ذلك ، نسأل الله السلامة .

وأما ظلم العبد نفسه : فهو ما يحصل على العبد من الذنوب والمعاصي ، من الصغائر ، أو من الكبائر التي دون الشرك ، فهذا صاحبه على خطر ، ما لم يبادر إلى التوبة ، والرجوع إلى الله مما اقترف .

أما الصغائر من الذنوب : فقد أخبر ﷺ أن ذلك يُكفر بالصلوات ، والمشي إلى المساجد ، وما يحصل للمسلم من هم وغم .

وأما الكبائر : فإنها لا تكفر إلا بالتوبة النصوح منها .

---

(١) مسند أحمد ، رقم (١٩٦٠٦) .

(٢) مسند أحمد ، رقم (١٩٦٠٦) ؛ المعجم الأوسط ، رقم (٣٤٧٩) ؛ مصنف ابن أبي شيبة (٢٩٥٤٧) .

فعلى المسلم أن يبادر بالتوبة إلى الله عندما يلم بمعصية من المعاصي ، فإن الله أخبر أنه يقبل التوبة عن عباده ، ويعفو عن السيئات ، وأخبر سبحانه أن من تاب وأناب إليه فإنه يعفو عنه زلاته ، ويبدل سيئاته حسنات كما قال سبحانه : ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الفرقان:٧٠] .

وأما الظلم الذي بين العبد وبين عباد الله : فهذا قد وردت فيه عدة آيات من كتاب الله ، وأحاديث كثيرة عن سيد المرسلين عليه من الله أفضل الصلاة والتسليم .

يقول سبحانه وتعالى : ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [المطففين:١-٦] .

وفي الحديث القدسي : « يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرما ، فلا تظالموا » رواه مسلم[1] .

ويقول عليه الصلاة والسلام لمعاذ بن جبل : « واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب » رواه البخاري ومسلم[2] .

وقال عليه الصلاة والسلام : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه

(١) صحيح مسلم ، رقم (٢٥٧٧) .
(٢) صحيح البخاري ، رقم (١٤٩٦) ؛ صحيح مسلم ، رقم (١٩) .

ويده» رواه البخاري ومسلم[(١)]. فقد جعل ﷺ المسلم الحقيقي الذي تم إسلامه هو الذي يسلم المسلمون من لسانه ويده .

وبمفهومه يدل على أن من لم يَسلم المسلمون من لسانه ويده ، أنه ناقص الإسلام ، وذلك أن الإسلام الحقيقي هو الاستسلام لله ، وتكميل عبوديته ، والقيام بحقوقه وحقوق المسلمين ، ولا يتم ذلك إلا بسلامتهم من شر لسانه وشر يده ؛ ولأن الرسول ﷺ أخبر في الحديث الآخر أنه لا يتم إيمان المؤمن حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، فكما يحب السلامة من شرور الناس ، فعليه أن يكف شره عنهم ، فسلامتهم من شره القولي والفعلي عنوان على كمال إسلامه ، والتوفيق بيد الله .

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

* * *

---

(١) صحيح البخاري ، رقم (٦٤٨٤) ؛ صحيح مسلم ، رقم (٤٢) .

(٦٤)

الاستقامة

الاستقامة من أهم مقاصد الشريعة، وهي الاستقامة على دين الإسلام ، الذي اختاره لنا ، ورضيه لنا دينا ، فيستقيم العبد على الإيمان الذي علمنا نبينا عليه الصلاة والسلام حينما سأله جبريل عليه السلام عن الإيمان فقال ﷺ : « أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره »[(١)] فإذا استقام المؤمن على هذا ، وعمل بمقتضى إيمانه بالله ، بأن يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، لا يعبد إلا إياه ، ولا يرجو سواه ، مخلصًا له جميع أنواع العبادة ، وحقق إيمانه بملائكة الرحمن ، الذي خلقهم سبحانه ، ووصفهم ببعض صفاتهم ، بقوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ٢٦ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ٢٧ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ ﴾ [الأنبياء:٢٦-٢٨] .

ويؤمن العبد كذلك بأن منهم جبريل عليه السلام ، وميكائيل عليه السلام ، وإسرافيل ، وكلهم عباد الله ، يسبحون الليل والنهار ، لا يفترون .

---

(١) صحيح مسلم ، رقم (٨) .

وكذلك حقق إيمانه بالكتب المنزلة ، التي أنزلها الله على أنبيائه ، ورسله ، وأفضلها ، وأكملها ، هذا القرآن العظيم ، الذي أنزله الله هداية للمؤمنين ، وهدى وشفاء لما في الصدور ، يخرج به عباده من الظلمات إلى النور ، ومن الجهالة إلى نور العلم ، وسلوك الطريق الأقوم .

وكذلك الإيمان برسل الله ، الذي أرسلهم لهداية البشر ، فمنهم من آمن بالمرسلين ، وحاز الفوز العظيم ، ومنهم من كفر بهم ، فاستحق العقاب العاجل في الدنيا ، والآجل في الآخرة ، ومن أفضلهم وأعلاهم رتبة ، وأرفعهم منزلة ، سيدهم أجمعين محمد بن عبد الله ، عليه من الله أفضل الصلاة والسلام .

ومعنى الإيمان بالرسل : تصديقهم في جميع ما يخبرون عن الله عز وجل ، من علم الغيب ، مما كان ومما يكون ، ومما هو حاصل في الدنيا ، وفي الآخرة ، وطاعتهم فيما يأمرون به من عبادة لله وحده ، وصرف جميع العبادة له ، وفعله ما أمروا به من صلاة ، وزكاة ، وصيام ، وحج ، وغير ذلك مما أوجبه الله على عباده ، وكذلك اجتناب جميع ما ينهون عنه ، من الإشراك بالله سبحانه وتعالى ، وهو أعظم الذنوب على الإطلاق ، وغيره من المعاصي والذنوب .

ومن جملة الإيمان : الإيمان باليوم الآخر ، وهو يوم القيامة ، الذي أعده الله لفصل القضاء بين عباده ، ذلك اليوم الذي هو يوم التغابن ، يوم

تعرضون لا تخفى منكم خافية ، في ذلك اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب .

ويدخل في ذلك جميع ما أخبر به الرسول ﷺ في ذلك اليوم من الحساب ، والميزان ، والصراط ، والجزاء على الأعمال ، ووضع الكتاب باليمين أو الشمال ، والجنة والنار ، وغير ذلك مما جاء في القرآن الكريم ، ومما جاء عن سيد المرسلين .

ومن الإيمان أيضًا : الإيمان بالقدر خيره وشره ، كل ذلك من الله سبحانه قدّره قبل خلق السماوات والأرض ، كما قال سبحانه : ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر:٤٩] ، فيعلم المؤمن أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه . إذا آمن المرء بكل ذلك واستقام عليه فقد فاز .

ولما جاء رجل إلى النبي ﷺ وطلب منه الوصية ، قال له عليه الصلاة والسلام : «قل آمنت بالله ثم استقم»[1] أي استقم على ذلك الإيمان ، واعمل بمقتضاه ، حتى تلقى ربك ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ [الحجر:٩٩] . وأنت ترى هذا الرجل الذي سأل النبي ﷺ ، وبالغ في طلب ما ينفعه في إسلامه ، وأكد أنه لا يسأل أحدًا غير رسول الله ﷺ ، كل ذلك ليؤكد اهتمامه بهذا الأمر ، حتى تحصل له الوصية من الرسول الكريم ﷺ على قدر اهتمامه ، فقال له ﷺ قولًا بليغًا مختصرًا ، محتويًا

(١) السنن الكبرى للنسائي ، رقم (١١٤٢٥) ؛ صحيح ابن حبان ، رقم (٩٤٢) .

على أساس الدين ، جامعًا شاملًا ، وهو قوله ﷺ: «قل آمنت بالله ثم استقم» أي: استقم على الإيمان، استقم عليه بقولك وعملك واعتقادك ، فإذا استقمت على ذلك فلا تسأل أحدًا ، فقد تحصلت على الخير كله .

إذا آمنت بالله ، وبملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وبالقدر خيره وشره ، وصدقت نبيك ﷺ بجميع ما جاء به ، وأولى وأول ما يدخل في ذلك هذا القرآن العظيم ، الذي أنزله الله على رسوله ، وعملت بمقتضى إيمانك ، وتصديقك به ، وبما جاء به ﷺ من الحكمة ، واجتنب ما نهى الله عنه وما نهى عنه رسوله ﷺ ، فهذا غاية ما يتسابق إليه المتسابقون ، وغاية ما يطلبه المؤمنون .

ثم بعد العمل به الاستقامة عليه ، والمداومة على القيام به قولًا واعتقادًا وعملًا ، فإذا فعلت ذلك حصل لك وعد الحق سبحانه ، والله لا يخلف الميعاد ، يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأحقاف:١٣] ، ويقول عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ [فصلت:٣٠-٣٢].

فهذه الوصية جمعت كل خير ، فإن الإيمان يشمل جميع أنواع

الطاعات ، مما تضمنته العقائد الصحيحة ، وكذلك أعمال القلوب : من الرغبة في الخير ، وإرادته ، وفعله ، ومن كراهية الشر ، وكراهية فعله، واجتنابه ، ومن أعمال الجوارح : كأداء الواجبات من صلاة، وصيام ، وزكاة ، وحج ، وغير ذلك ، ومن أعمال اللسان : من ذكر ، وتسبيح ، وتهليل ، وتحميد .

اللهم وفقنا للاستقامة على دينك ، والعمل بكتابك وسنة نبيك .

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

* * *

(٦٥)

الصبر حليفه النصر

لقد جاء ذكر الصبر في القرآن في مواضع كثيرة ، وأخبر سبحانه وتعالى أنه يوفي الصابرين أجرهم بغير حساب ، وقد علم من القرآن والسنة أن الصبر سبب قوي من أسباب النصر على الأعداء والظفر بالحاجات :

جاء في حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما حينما أوصاه النبي ﷺ ، وكان من جملة وصيته له : « واعلم أن النصر مع الصبر » رواه الطبراني في المعجم الكبير[1] .

وهذا إخبار منه ﷺ ، وهو ﷺ ما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى ، ثم يشهد لهذا أيضًا قوله تعالى : ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةَۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة:٢٤٩] ، وقال سبحانه وتعالى : ﴿ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ [الأنفال:٦٥] .

وهذا الصبر الذي حث عليه ﷺ يشتمل على أنواع :

الصبر على المكاره ، والصبر على الأعداء في جهادهم وقتالهم ،

---

(١) المعجم الكبير ، رقم (١١٢٤٣) .

والصبر على مجاهدة النفس ، فمن صبر على أقدار الله ، وعلم أنها من عند الله ، وأن الله يعوضه عما أصابه قوى إيمانه ورجاؤه بربه . وإذا صبر على طاعة الله ، وجاهد نفسه في ذلك ، نصره الله على نفسه ، وملك زمامها ، ولم تستول عليه بحب الشهوات وملاذها ، وكذلك من صبر على الأعداء ، حصل له العون والمدد والنصر من الله سبحانه وتعالى .

اصبر ففي الصبر ما يغنيك عن حيل وكل صعب إذا حاولته هانا

وإذا اشتد الكرب على المؤمن ، فصبر وكظم غيظه ، أتاه الفرج من الله، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح:٥-٦] ، وقال سبحانه وتعالى : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [الشورى:٢٨] ، وقال سبحانه وتعالى : ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ [يوسف:١١٠] . وقال النبي ﷺ : «وإن الفرج مع الكرب» رواه أحمد وعبد ابن حميد[١] .

وقد أخبر الله سبحانه وتعالى عن عدد من الأنبياء في قصصهم ، وعن كيفية نصرهم لما اشتد بهم الأمر ، كما قال سبحانه وتعالى عن بعض أنبيائه وأصحابهم في قوله سبحانه وتعالى : ﴿وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة:٢١٤].

---

(١) مسند أحمد رقم (٢٨٠٤) ؛ مسند عبد بن حميد ، رقم (٦٣٦) .

وكما قال سبحانه عن يعقوب عليه السلام أنه قال لبنيه : ﴿ يَـٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ﴾ [يوسف:٨٧].

وأخبر سبحانه وتعالى عن تفريج كربات أنبيائه عند تناهي الكرب وشدته ، كما في قصة نوح عليه السلام وإنجائه ومن معه في الفلك .

وإنجاء إبراهيم عليه السلام ، وإنقاذه من النار ، وجعلها عليه بردًا وسلامًا .

وكذلك في قصة ذبحه لإسماعيل ، حينما وضع السكين على حلقه ، واشتد الكرب عليه وعلى ابنه ، جاء الفرج من عند الله بالفداء بذبح عظيم فداء لإسماعيل .

وكما نجا الله سبحانه موسى عليه السلام وأصحابه حينما اشتد بهم الكرب ، البحر أمامهم ، وفرعون وجنوده خلفهم ، فانفلق البحر لهم ، وأنجاهم الله ، وأغرق فرعون وقومه .

وكما في قصص محمد ﷺ وأصحابه وماذا حصل لهم من النصر ، كما في قصة الغار ، وقصة الأحزاب ، وبدر ، وحنين ، وغير ذلك ، وكل هذا مصداق قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ [البقرة:١٥٣] .

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

* * *

(٦٦)

استحباب المداراة وكراهية المداهنة

كثير من الناس لا يفرق بين المداراة والمداهنة ، فلهذا نجد كثيرًا منهم يقع في الخطأ من حيث لا يشعر ، إما باستعمال المداهنة المنهي عنها ، فيرتكب إثمًا ، أو يقع في ترك المدارات ، فليحقه الضرر .

واعلم أن الفرق بينهما : أن المداهنة هي السكوت عن تغيير المنكر ، وإقرار فاعله عليه ؛ خوفًا من غضبه ، أو تأليفًا له ، ونحو ذلك ، فهذا شيء محظور شرعًا ، ومخالف لهدي الرسول ﷺ .

والنبي عليه الصلاة والسلام يقول : « من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطيع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان» رواه مسلم[1] .

وكتبت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها لمعاوية رضي الله عنه أن رسول ﷺ قال: « من التمس رضا الناس بسخط الله ، سخط الله عليه ، وأسخط عليه الناس ، ومن التمس رضا الله بسخط الناس ، رضي الله عنه ، وأرضى عنه الناس » رواه ابن حبان[2] .

---

(١) صحيح مسلم ، رقم (٤٩) .

(٢) صحيح ابن حبان ، رقم (٢٧٦) .

فلا يجوز للمسلم أن يترك ما تحقق أنه منكر خوفًا من الناس ، واستجلابًا لمودتهم ومحبتهم ، فإنهم لا ينفعون ولا يضرون ، إنما النفع والضر بيد الله وحده ، كما قال ﷺ لعبد الله بن عباس رضي الله عنه : « واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك » رواه أحمد والترمذي وصححه .

فكل ما يتعلق بما بينك وبين الله فلا تداهن فيه أحدًا .

وأما المدارات : فهي التساهل فيما بينك وبين الناس ، وعدم التقصي في الأمور ، والمناقشة عند أدنى الأسباب ؛ ولذلك سمى النبي ﷺ المدارات صدقة ، كما في الأثر الذي رواه الطبراني وأبو نعيم وابن حبان عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « مدارات الناس صدقة» ؛ ولأن العبد يسلم بمداراته للناس من شرهم ، وتدفع مداراته عنه عداوتهم وأذيتهم له ، كما قيل :

ما دمت حيًا فدار الناس كلهم
فإنما أنت في دار المدارات

من يدري دارا ومن لم يدر سوف يرى
عما قليل نديما للندامات

وعلى كل فالمداراة لا يحتملها إلا العقلاء ؛ لأنها تحتاج إلى صبر،

وتحمل ، وإغضاء عن بعض الأمور ، التي لا يحتملها كل أحد .

قال أبو حاتم رحمه الله : الواجب على العاقل أن يداري الناس مداراة الرجل السابح في الماء الجاري ، ومن ذهب إلى عشرة الناس من حيث هو، كدّر على نفسه عيشه ، ولم تصْف له مودته ؛ لأن وداد الناس لا يستجلب إلا بمساعدتهم على ما هم عليه، إلا أن يكون مأثما ، فإن كانت حالة معصية فلا سمع ولا طاعة ، والبشر قد ركب فيهم أهواء مختلفة ، وطبائع متباينة . فكما يشق عليك ترك ما جبلت عليه ، فكذلك يشق على غيرك مجانبة مثله ، فليس إلى صفو ودادهم سبيل ، إلا بمعاشرتهم من حيث هم ، والإغضاء عن مخالفتهم في كثير من الأوقات[1] ؛ ولهذا قيل في المعنى :

دار من النــاس ملالاتهم   من لم يدار النـــاس ملـوه

ومكرم الناس حبيب لهم   من أكرم النـــاس أحبـوه[2]

فلابد لمن يخالط الناس أن يصبر على ما يحصل منهم عليه ، ويتغاضى عن كثير من الأمور ، فقد قيل : العاقل هو الفطن المتغافل .

وقال الشاعر :

(١) روضة العقلاء ١/ ٧١ .

(٢) القائل هو علي بن محمد البتامي . انظر روضة العقلاء ١/ ٧٠ .

إذا أنت لم تشرب مرارًا على القذى

ظمئت وأي الناس تصفو مشاربه

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

❊ ❊ ❊

(٦٧)

التوجه بالسؤال إلى الله وحده

يقول ربنا تبارك وتعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة:١٨٦].

وحقيقة السؤال الاعتراف بالعجز والتقصير عن بلوغ المقصد بالنسبة للداعي ، والاعتراف بتمام القدرة والتفضل بالنسبة للمدعو ، فالله سبحانه وتعالى هو الذي بيده مفاتيح كل شيء، وخزائنه ملأى، ويحب منا أن نسأله، وأن نلتجئ إليه ، وأَمَرَنا بدعائه وسؤاله ، وهذه حقيقة العبادة ؛ ولذلك سمي الدعاء عبادة .

فإذا سأل العبد ربه فقد أظهر من نفسه ، واعترف بالذل ، والمسكنة ، والخضوع ، والافتقار ، والحاجة إلى ربه ، واعترف أيضًا بقدرة الله على رفع هذا الضر ، أو تحقيق هذا المطلوب ، وجلب المنافع ، ودرء المفاسد ، ولا يصح الذل والافتقار إلا لله وحده ؛ لأن ذلك حقيقة العبادة ، وهو سبحانه يقول : ﴿فَإِيَّـٰىَ فَٱعْبُدُونِ﴾ [العنكبوت:٥٦] ، ويقول سبحانه : ﴿ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن:١٨] .

ولذلك كان الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله يقول : اللهم كما صنت وجهي عن السجود لغيرك ، فصنه عن المسألة لغيرك ، ولا يقدر على جلب

النفع ودفع الضر سواك[١] .

وقد قال سبحانه : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ﴾ [يونس:١٠٧] ، وقال سبحانه وتعالى : ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ [فاطر:٢].

وهو سبحانه يحب من عباده أن يسألوه ، ويرغبوا في طلب الحوائج إليه ، ويلحوا في سؤاله ودعائه ، ويغضب على من لا يسأله ، بخلاف المخلوقين فهم يغضبون على من سألهم ، ويتبرمون من أسئلتهم ، كما قيل :

الرب يغضب إن تركت سؤاله وبني آدم حين يسأل يغضب

ولأن المخلوق مفتقر وعاجز ومحتاج إلى الله ، فلا تنزل به حاجتك ، بل أنزلها بالمقتدر الغني .

قال وهب بن منبه لرجل كان يأتي الملوك ويسألهم : ويحك تأتي من يغلِق دونك بابَه ، ويُظهر لك فقره ، ويواري عنك غناه ، وتَدَع من يفتح لك بابه نصف الليل ونصف النهار ، ويظهر لك غناه ، ويقول : ادعني استجب لك[٢] .

---

(١) انظر : جامع العلوم والحكم ١/ ٤٨١ .

(٢) انظر المصدر السابق .

وقال طاووس لعطاء : إياك أن تطلب حوائجك إلى من أغلق دونك بابه ، ويجعل دونها حجابه ، وعليك بمن بابه مفتوح إلى يوم القيامة ، أمرك أن تسأله ، ووعدك أن يجيبك[1] ، وقد قيل في هذا المعنى :

إذا عرضت لي في زمــاني حاجـة وقد أشكلت فيها علي المقاصد

وقفت بباب الله وقفــة ضــارع وقلـت إلهي إنني لك قاصـــد

ولست تراني واقفا عند باب من يقول فتـاه ســيدي اليوم راقـد

وليعلم العبد أنه لا مُعين له على مصالح دينه ودنياه إلا الله عز وجل ، فمن أعانه الله فهو معان ، ومن خذله فهو المخذول ، وهذا تحقيق معنى لا حول ولا قوة إلا بالله ، فلا تحول للعبد من حالة إلى حالة أخرى إلا بإعانة الله وحده .

اللهم لا حول ولا قوة إلا بك ، اللهم لا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ولا أقل من ذلك .

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

* * *

(١) ذكره أبو نعيم في الحلية ٤/ ١١ ؛ وابن الجوزي في صفة الصفوة ٢/ ١٧٢ .

(٦٨)

البر بالوالدين

من آكد الحقوق بعد حق الله تعالى حق الوالدين ، بل هو آكدها بعد حق الله سبحانه وتعالى ، يقول الله : ﴿ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ﴾ [النساء:٣٦] ، ويقول سبحانه وتعالى : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ﴾ [الإسراء:٢٣]، وقال عز وجل : ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [لقمان:١٤] .

وقد وردت عدة أحاديث بالأمر ببرهما والنهي عن عقوقهما ، ففي الصحيحين عن ابن مسعود ﵁ قال : « سألت رسول الله ﷺ : أي العمل أحب إلى الله ، قال : الصلاة على وقتها ، قلت : ثم أيّ ؟ قال : بر الوالدين ، قلت: ثم أيّ؟ قال : الجهاد في سبيل الله »[١] .

وفي صحيح مسلم وغيره عن أبي هريرة ﵁ قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يجزي ولد والده إلا أن يجده مملوكًا فيشتريه فيعتقه »[٢] .

وفي الصحيحين عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: «جاء رجل إلى النبي ﷺ ، فاستأذن في الجهاد ، فقال : أحيّ والداك ؟

---

(١) صحيح البخاري ، رقم (٥٢٧) ؛ صحيح مسلم ، رقم (١٣٩) .
(٢) صحيح مسلم ، رقم (٢٥) .

قال : نعم . قال : ففيهما فجاهد »[١] .

وفي لفظ لمسلم : « أقبل رجل إلى رسول الله ﷺ ، فقال : أبايعك على الهجرة والجهاد ابتغي الأجر من الله ، قال : فهل من والديك أحد حيّ ؟ قال : نعم ، بل كلاهما حيّ ، قال : فتبتغي الأجر من الله ؟ قال : نعم ، قال : فارجع إلى والديك فأحسن صحبتهما »[٢] .

وروى ابن ماجة والنسائي والحاكم وصححه عن معاوية بن جهامة أن جهامة جاء إلى النبي ﷺ فقال : « يا رسول الله ﷺ أردت أن أغزو ، وقد جئت استشيرك ، فقال : هل لك من أم ؟ قال : نعم ، قال : فالزمها ، فإن الجنة عند رجلها »[٣] .

وفي المسند عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « من سره أن يمد له في عمره ، ويزداد في رزقه ، فليبر والديه ، وليصل رحمه »[٤] .

وعند أبي يعلى والحاكم عن معاذ بن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «من بر والديه طوبى له زاد الله في عمره »[٥] .

وروى ابن حبان والحاكم وقال : صحيح على شرط مسلم عن عبد

---

(١) صحيح البخاري ، رقم (٣٠٠٤) ؛ صحيح مسلم ، رقم (٥) .
(٢) صحيح مسلم ، رقم (٦) .
(٣) سنن ابن ماجه ، رقم (٢٧٨١) ؛ سنن النسائي ، رقم (٣١٠٤) ؛ المستدرك ، رقم (٢٥٠٢) .
(٤) مسند أحمد ، رقم (١٣٨١١) .
(٥) مسند أبي يعلى ، رقم (١٤٩٤) ؛ المستدرك ، رقم (٧٢٥٧) .

الله بن عمر ﷺ مرفوعًا : « رضا الله في رضا الوالدين ، وسخط الله في سخط الوالدين »[1] .

فهذا بعض ما ورد عن النبي ﷺ من الأحاديث في وجوب بر الوالدين ، والإحسان إليهما ، والأمر بذلك ، وما يترتب عليه من الجزاء في الدنيا والآخرة .

وإذا كان هذا في بيان حقهما وتأكده ، فمن المعلوم أن من قصر في شيء من ذلك ، ولم يراع حقهما ، فإن الله سبحانه وتعالى سيعاقبه على ذلك، لتركه أوامر الله ، والإساءة إلى والديه .

أما ما ورد من الوعيد الشديد في ذلك مما بينه لنا رسول الله ﷺ فنذكر الآن بعض الأحاديث الواردة في النهي عن عقوقهما ، وما جاء في ذلك من الوعيد ، فمنها :

ما رواه البخاري ومسلم رحمهما الله عن أبي بكرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ - ثلاثا - : الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وكان رسول الله ﷺ متكئًا ، فجلس ، فقال : ألا وقول الزور وشهادة الزور ، فما زال يكررها حتى قلنا : ليته سكت »[2] .

وروى النسائي والبزاز والحاكم عن ابن عمر ﷺ أن رسول الله ﷺ

---

(١) صحيح ابن حبان ، رقم (٤٢٩) ؛ المستدرك ، رقم (٧٢٤٩) .

(٢) صحيح البخاري ، رقم (٦٩١٩) ؛ صحيح مسلم ، رقم (١٤٣) .

قال : « ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة : العاق لوالديه ، ومدمن الخمر، والمنان بعطائه . وثلاثة لا يدخلون الجنة : العاق لوالديه ، والديوث ، والرجلة من النساء »[١] أي : التي تشبه الرجال .

وعن ثوبان ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « ثلاث لا ينفع معهن عمل : الشرك بالله ، وعقوق الوالدين ، والفرار من الزحف » رواه الطبراني في الكبير[٢] .

وروى البخاري ومسلم وغيرهما عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « من الكبائر شتم الرجل والديه ، قالوا : يا رسول الله ، وهل يشتم الرجل والديه ؟ قال : نعم ، يسب أبا الرجل فيسب أباه ، ويسب أمه فيسب أمه »[٣] .

وروى الحاكم وقال : صحيح الإسناد ، عن أبي بكر ﷺ مرفوعًا : «كل الذنوب يؤخر الله منها ما شاء إلى يوم القيامة ، إلا عقوق الوالدين ، فإن الله يعجله لصاحبه في الحياة قبل الممات »[٤] .

فهذه الأحاديث وغيرها تدل على تحريم عقوق الوالدين ، ووجوب

---

(١) سنن النسائي ، رقم (٢٥٦٢) ؛ مسند البزار ، رقم (٦٠٤٩) ؛ المستدرك ، رقم (٢٤٤) .
(٢) المعجم الكبير للطبراني ، رقم (١٤٢٠) .
(٣) صحيح البخاري ، رقم (٥٩٧٣) ؛ صحيح مسلم ، رقم (١٤٦) .
(٤) المستدرك ، رقم (٧٢٦٣) .

البر بهما ، والسمع والطاعة لهما في كل ما يأمران به ، ما لم يكن معصية ، فإن أمراه بمعصية فلا طاعة لهما في ذلك ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [لقمان:١٥] .

فطاعة الوالدين واجبة في غير المعصية ، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، ولذلك لو منعاه عن أداء فريضة الحج ، فإنه لا يجوز له الامتناع ، بل يجب عليه الحج ، ولو لم يرضيا بذلك ، فإن كان الحج تطوعًا ومنعاه منه وجب عليه طاعتهما .

قال الإمام الموفق رحمه الله في حج التطوع : إن للوالدين منع الولد من الخروج إليه ؛ لأن لهما منعه من الغزو ، وهو من فروض الكفاية ، فالتطوع أولى[١] .

وقال رحمه الله : لا يجاهد مَنْ أبواه مسلمان إلا بإذنهما -يعني تطوعًا- وأن ذلك يروى عن عمر وعثمان ، وهو قول مالك والشافعي ، وسائر أهل العلم .

وقد جاء في هذا المعنى عدة أحاديث ، وقد قال ﷺ للرجل الذي جاء

(١) المغني لابن قدامة ٢/ ٤٥٩ .

يريد الجهاد مع الرسول عليه الصلاة والسلام فقال : أحيّ والداك ؟ قال : نعم ، قال : ففيهما فجاهد[(١)] .

وقد وردت أحاديث عن النبي ﷺ تدل على أن حق الأم مقدم على حق الأب في البر :

فمنها ما رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : « يا رسول الله ، من أحق الناس بحسن صحبتي ؟ قال: أمك قال : ثم من ؟ قال : أمك ، قال : ثم من ؟ قال : أمك ، قال : ثم من ؟ قال : أبوك »[(٢)] .

ففي الحديث دليل على محبة الأم ، والشفقة عليها ، ينبغي أن تكون ثلاثة أمثال الأب ؛ لذكر رسول الله ﷺ الأم ثلاث مرات ، وذكر الأب مرة واحدة ، والسر في ذلك كما قاله ابن بطال : أن الأم تتفرد عن الأب بثلاثة أشياء : صعوبة الحمل ، وصعوبة الوضع ، وصعوبة الرضاع ، فهذه تنفرد بها الأم ، وتشقى بها ، ثم تشارك الأب في التربية .

فعلى الولد البر بوالديه ، والإحسان إليهما ، كما أحسنا إليه من قبل ، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان ، والفضل للمتقدم ، ومهما بلغ الولد في البر ما بلغ فإنه لا يستطيع القيام بكل ما يجب عليه نحوهما ، ولكن إذا فعل

---

(١) صحيح البخاري ، رقم (٣٠٠٤) ؛ صحيح مسلم ، رقم (٥) .

(٢) صحيح البخاري ، رقم (٥٩٧١) ؛ صحيح مسلم ، رقم (١) .

ما يقدر عليه ، وبذل وسعه في ذلك ، فإن الله سبحانه يعينه ويسدده ، ويسخرهما لرضاهما عنه ، ويعفو له ما قد يحصل من تقصير من غير قصد ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴾ [الإسراء:٢٤-٢٥] .

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

* * *

(٦٩)

التفكر في عاقبة الأمر

لو تفكر الإنسان في عاقبته ونهايته ، لعلم أن الدنيا سريعة الزوال ، وشيكة الارتحال ، قد ملئت بالهموم ، ومزجت بالغموم ، ولكن النفس الأمارة بالسوء والهوى والشيطان قد اجتمعت كلها على الإنسان ، وأنسته آخرته ، ونهايته ، وأشغلته في طلب الدنيا وشهواتها ، والتنافس فيها .

فعلى المسلم الحذر والتنبه من هذه الغفلة ؛ خوفًا من أن يهجم عليه الموت ، وهو غافل عما خلق من أجله ، فحينئذ يندم في وقت لا ينفع فيه الندم ، ويتأسف على ما فرط فيه ، ويقول : يا ليتني قدمت لحياتي ، فعلى المسلم أن يتنبه قبل: ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [الزمر:٥٦-٥٩] .

إنه في ذلك اليوم لابد من الندامة ، لكن إن كان من أهل الإحسان ندم ألا يكون ازداد من العمل الصالح ، وإن كان من أهل التفريط ندم على أن لا يكون استغفر ، وتاب إلى ربه من خطئه ، وعصيانه .

إن كثيرًا منا تمضي أوقاته بغير فائدة ، أو تكون غالبًا نقصًا عليه قد مضى وقته في لهوه وغفلته ونسيانه لمعاده ، وكأن الموت قد كتب على غيرنا في هذه الدنيا ، على أننا في كل يوم نرى الذاهبين إلى المقابر ، من أصدقاء ، وأقارب ، ومواعظ القرآن نقرؤها ، وتتلى علينا ، ونحن في غفلة ولهو ، رحم الله القائل :

نراع إذا الجنائـــــز قابلتنـــــا ونلهو حين تذهب مدبرات

كلنا يعلم أن المهات قريب ، ولكن الغفلة قد استولت ، ومراقبة الله عز وجل قد ضعفت في النفوس ، وقل التذكر ، والتفكر في المآل ، وكلنا يعلم أن كل يوم يمضي يقربنا إلى الآخرة ، ويطوي أعمارنا ، حتى تنتهي الحياة ، كما قيل :

إنا لنفرح بالأيام نقطعـــــها وكل يوم مضى يدني من الأجل

وكما يقول الآخر :

دقات قلب المرء قائلـــة لـــه إن الحيـــاة دقائـــق وثـــواني

تطوى الأيام بما فيها من خير وشر ، ويوم القيامة تنشر هذه الصحائف ، فكل يرى عمله ، ولا يظلم ربك أحدًا .

مضى أمسك الماضي شهيدًا معدلا وأتبعه يـــوم عليـــك شـــهيد

فإن تك بالأمس اقترفت إسـاءة فبادر بإحســان وأنت حميـــد

ولا تبق فعل الصالحات إلى غد   لعل غـــدًا يأتي وأنـــت فقيـد

إذا ما المنايا أخطأتك وصادفت   حميمـك فاعلم أنها ســتـعود

ورحم الله القائل : كأنكم بالقيامة قد قامت ، وبالنفس الأمارة بالسوء قد لامت ، وانفتحت عيون طالما نامت ، وتحيرت قلوب العصاة وهامت ، ورأت في ذلك اليوم من الأهوال ما لم يكن لها بحسبان ، ولم يخطر لها ببال :

غدًا توفى النفوس ما زرعـت   ويحصد الزارعـون ما زرعوا

إن أحسنوا أحسنوا لأنفسهم   وإن أساؤوا فبئس ما صنعوا

فينبغي للمؤمن أن يكون يقظًا فطنًا ، فإن الدنيا بزخارفها ولذاتها وشهواتها تنسي الله والدار الآخرة ، ومن نسي ربه فهو الخاسر ، وهذا الخسران لا يمكن أن يعوض ، ولا يمكن جبر هذا الكسر .

وكل كسر فإن الدين يجـــــبره   وما لكسر قناة الدين جــبران

إن متاع الدنيا قليل ، والعاقل يعمل ليوم غده ، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

قال الإمام ابن القيم رحمه الله في موعظة له :

« لما رأى المتيقظون سطوة الدنيا بأهلها ، وخداع الأمل لأربابه ،

وتملك الشيطان وقياد النفوس ، فلما رأى أن الدولة للنفس الأمارة بالسوء، لجأوا إلى حصن التضرع ، والالتجاء ، كما يأوي العبد المذعور إلى حرم سيده .

شهوات الدنيا كلعب الخيال ، ونظر الجاهل مقصور على الظاهر ، فأما ذو العقل فيرى ما وراء الستر لاح لهم المشتهى ، فلما مدوا أيدي التناول بان لإبصار البصائر خيط الفخ ، فطاروا بأجنحة الحذر ، وصوبوا إلى الرحيل الثاني ، يا ليت قومي يعلمون ، تلمح القوم الوجود ، ففهموا المقصود ، فأجمعوا الرحيل ، واستعدوا له قبل الرحيل ، وشمروا للسير في سواء السبيل ، فالناس مشتغلون بالفضلات ، وهم في قطع الفلوات ، تالله ما كانت الأيام إلا مناما ، فاستيقظوا وقد حصلوا على الظفر ، ما مضى من الدنيا أحلام ، وما بقي منها أماني ، والوقت ضائع بينهما » اهـ .

ولكن ما الحيلة في التيقظ والانتباه من هذه الرقدة ، وهذه الغفلة ، التي قد استولت ، فتجد أحدنا عندما يسمع نبأ وفاة شخص من أحبابه ، أو أقاربه ، أو غيرهم ، يحصل عنده نوع من التيقظ والانتباه ، ولكن سرعان ما يذهب هذا ويزول ونعود إلى غفلتنا وسكرتنا ، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

إن أنجح العلاج لهذا كثرة ذكر الله ، والالتجاء إليه ، والتفكر في المعاد والحساب ، وذكر ذهاب هذه الدنيا وزوالها ، والموت وفراق الأحباب ،

فهذه من الأمور التي تجعل المسلم يحتاط لنفسه وقت فاقته ، ثم الإلحاح في سؤال الله سبحانه التسديد والتوفيق والهداية وحسن الخاتمة .

وليعلم المرء أن من يقطعه عن العمل الصالح ، ويعوقه ، ليس بناصح ، وليس خليل صدق ، سواء كان قريبًا ، أو بعيدًا .

يقول ابن القيم رحمه الله في وصف حالة الكثيرين من الناس ، وكثرة الأسباب التي تفوق سيرهم إلى الله ومرضاته :

« كيف يسلم من له زوجة لا ترحمه ، وولد لا يعذره ، وجار لا يأمنه ، وصاحب لا ينصحه ، وشريك لا ينصفه ، وعدو لا ينام عن معاداته ، ونفس أمارة بالسوء ، ودنيا متزينة ، وهوى مرد ، وشهوة غالبة ، وغضب قاهر ، وشيطان موسوس ومزين ، وضعف مستول ، فإن تولاه الله وجذبه إليه انقهرت له هذه كلها ، وإن تخلى عنه ووكله إلى نفسه ، اجتمعت عليه ، فكانت الهلكة» اهـ[1] .

فعلى العبد أن يلتجيء إلى ربه ويسأله السلامة . اللهم لا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ، ولا أقل من ذلك . وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه .

* * *

---

(١) الفوائد لابن القيم ١/ ٤٨ .

(٧٠)

الفـــــلاح

فلاح المؤمنين هو الغاية التي يتسابق إليها المتسابقون ، ويتنافس في نيلها المتنافسون ، وكيف لا يكون ذلك ، والله عز يقول : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [المؤمنون:١] . روى مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ: « قد أفلح من أسلم ورزق كفافًا وقنعه الله بما آتاه »[١] . روي عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « خلق الله جنة عدن بيده لبنة من درة بيضاء ، ولبنة من ياقوتة حمراء ، ولبنة من زبرجدة خضراء ، ملاطها المسك ، وحصباؤها اللؤلؤ ، وحشيشها الزعفران ، ثم قال لها : انطقي ، قالت : ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ ، فقال الله : وعزتي وجلالي لا يجاورني فيك بخيل ، ثم تلا رسول الله ﷺ : ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر:٩] » رواه الطبراني في الأوسط والكبير[٢] .

فالفلاح اسم جامع لحصول كل مطلوب محبوب والسلامة من كل مخوف مرهوب ، وقد أخبر ﷺ أن من حصلت له هذه الثلاث ، وهي الإسلام ، والرزق الكفاف ، والقناعة بما قسم الله من الرزق ، حصل له

---

(١) صحيح مسلم ، رقم (١٢٥) .

(٢) المعجم الأوسط ، رقم (٣٧٠١) ؛ المعجم الكبير ، رقم (١٢٧٢٣) .

الفلاح ، أي فلاح الدنيا والآخرة ، فإن العبد إذا هدي للإسلام الذي هو دين الله الذي لا يقبل الله دينًا سواه وهو مدار الفوز بالثواب والنجاة من العقاب ، وليس هناك دين ينجي من عذاب الله غيره؛ لأن الله لا يقبل إلا الإسلام ، كما قال سبحانه : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران:٨٥] .

فالفلاح يحصل للمسلم الصادق في إسلامه ، والخسران يحصل لمن لم يتصف به ، فالعبد بإسلامه يحصل له الفلاح في الآخرة ، وإذا حصل له الرزق الذي يكفيه ويقوم بمؤنته ومؤنة من تحت يده ، وحصل له به كف وجهه عن مذلة السؤال للخلق ، واستغنى به عنهم ، ولم يضطر في طلب الرزق إلى بذل ماء وجهه ، بل صانه الله بسبب ما أعطيه من الكفاف ؛ ولأن السؤال كما قال بعض العلماء : يورث المرء مهانة في نفسه ، ويحطه درجة عن مرتبته ، كما أن ترك السؤال يورث المرء عزًا في نفسه ، ويرفعه درجة عن مرتبته .

ولما كان الإسلام يحب من المسلم أن يتصف بعزة النفس ، ولا يذلها ، نهى ﷺ عن السؤال للخلق ، وحذر منه ، فقال ﷺ : « لأن يأخذ أحدكم حبله فيأتي بحزمة الحطب على ظهره ، فيبيعها ، فيكف الله بها وجهه ، خير له من أن يسأل الناس ، أعطوه أو منعوه » رواه البخاري[1] .

---

(١) صحيح البخاري ، رقم (١٤٧١) .

وروي عن عمر رضي الله عنه أنه قال : « من سأل الناس ليثري ماله ، فإنما هو رضف من النار يلقمه ، فمن شاء استقل ، ومن شاء استكثر »[١] .

وقد جاء عن العلماء والحكماء النهي عنه والتحذير منه . قال بعضهم في ذلك :

ذل السؤال شجا في الحلق معترض

من دونه شرق من خلفه جرض

ما ماء وجهك إن جادت وإن بخلت

من ماء وجهي إذا أفنيته عوض

وروي عن عبيد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال : « إن في طلب الرجل الحاجة إلى أخيه فتنة ، إن هو حمد غير الذي أعطاه ، وإن منعه ذم غير الذي منعه »[٢] . وهو يشير بذلك إلى أن الله سبحانه هو الضار النافع ، وهو المعطي المانع، فإن جاءه شيء بواسطة المسئول فهو محض فضل منه سبحانه، وإن منعه فهو لم يقدر له ذلك .

كما قال بعضهم لما قدم سؤله لأمير من الأمراء قال : إن أعطيتني فالله هو المعطي وأنت مأمور ، وإن منعتني فالله هو المانع، وأنت معذور .

---

(١) صحيح ابن حبان ، رقم (٢٣٩١) .

(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان ، رقم (٢٠٧) .

فهذا الإيمان بالقضاء والقدر ، ولهذا جاء في الدعاء المأثور عنه ﷺ أنه كان يقول : « لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت »[١] .

وقد روى الإمام أحمد في المسند عن فضالة بن عبيد أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « طوبى لمن هدي إلى الإسلام ، وكان عيشه كفافًا وقنع »[٢] .

وقد قال أكثم بن صيفي في وصيته لابنه : يا بني من لم يأس على ما فاته ودع بدنه ، ومن قنع بما هو فيه قرت عينه .

وقد قال بعض العلماء رحمه الله : لو لم يكن في القناعة خصلة تحمد إلا الراحة وعدم الدخول في مواضع السؤال لطلبِ الفضل ؛ لكان الواجب على العاقل ألا يفارق القناعة على حال من الأحوال[٣] .

ولذلك يقول بعضهم في هذا المعنى :

تقنع بالكــــفاف تعش رضيًا ولا تبغ الفضول من الكفاف

ففي خبز القفار بغــــــير أدم وفي ماء الفرات غنى وكــاف

وفي الثوب المرقـــع ما يغطى به من كل عرى وانكشـــاف

وكل تزيــن بالمـــــرء زيــن وأزينه التزيـــــن بالعفــاف

---

(١) المعجم الكبير للطبراني ، رقم (٨٩٧) .
(٢) مسند أحمد ، رقم (٢٣٩٤٤) .
(٣) روضة العقلاء ١/ ١٥٠ .

وقد قيل في المعنى أيضًا :

إذا المرء لم يقنع بعيش فإنه وإن كان ذا مال من الفقر موقر

إذا كان فضل الناس يغنيك بينهم فأنت بفضل الله أغنى وأيسر

فالحازم إذا ضاقت عليه الدنيا لم يجمع على نفسه بين ضيقها وفقرها وبين فقر القلب وحسرته وحزنه ، بل كما يسعى لتحصيل الرزق فليسع لراحة القلب وسكونه وطمأنينته، ولا يحصل ذلك إلا بالقناعة والرضا بما قسم الله ، وعدم الانهماك بكثرة التلهف والتعب الشديد ، والحرص الزائد على تحصيلها ، فإنه متى أرهق نفسه في طلب الدنيا ، وأشقى قلبه بها ، فهذا في الحقيقة هو الفقر ، فمن هذا وصفه قد فر من الفقر إليه ، كما قال أبو الطيب :

ومن ينفق الساعات في جمع ماله مخافة فقر فالذي فعل الفقر

اللهم اهدنا للإسلام ، وثبتنا عليه ، وارزقنا الكفاف والقناعة يا ذا الجلال والإكرام .

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه .

* * *

(٧١)

القيام بالواجبات سبب دخول الجنة

إن دخول الجنة ، والسلامة من النار، هو غاية ما يتمنى المرء ، وهو منتهى السعادة ، وغاية الفوز ، ولذلك لما جاء رجل إلى النبي ﷺ ، وقال : يا رسول الله ، أنا لا أعرف دندنتك ، ولا دندنة أصحابك ، وفي رواية : ولا دندنة معاذ ، ولكني أسأل الله الجنة ، وأستعيذ به من النار ، فقال رسول الله ﷺ : « حولهما ندندن » رواه أحمد وأبو داود[1] . أي : أن ما تسمع مني ومن معاذ من الدعاء إنما هو حول هذا الموضوع الذي أنت تطلب ، وكل أعمالنا ودعائنا من أجل ذلك من أجل الحصول على الجنة ، والسلامة من النار .

والحصول على الجنة والنجاة من النار ، قد سهل الله طريقه ، ويسره لمن سبقت له السعادة .

ففي الصحيحين عن أبي هريرة ﷺ قال : أتى أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: دلني على عمل إذا عملته دخلت الجنة ، فقال رسول الله ﷺ : « تعبد الله ولا تشرك به شيئا ، وتقيم الصلاة ، وتؤدي الزكاة المفروضة ، وتصوم رمضان ، قال : والذي نفسي بيده ، لا أزيد على هذا شيئًا ، ولا أنقص منه ، فلما ولى ، قال النبي ﷺ : من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى

---

(١) مسند أحمد ، رقم (١٥٩٣٩) ؛ سنن أبي داود ، رقم (٧٩٢) .

هذا »[١] .

فهذا الحديث العظيم يدل على أن من قام بالفرائض ، وأداها كما أمر، وسلم من الإشراك بالله ، حصلت له الجنة ، فقوله عليه الصلاة والسلام : تعبد الله ، ولا تشرك به شيئًا ، أي أنك تقوم بجميع العبادة التي افترضها الله عليك لله وحده ، ولا تشرك به أحدا ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ [الكهف:١١٠].

فيخلص عمله لله ، ولا يرجو إلا ربه ، ولا يخاف إلا منه ، ولا يعتمد إلا عليه ، ولا يتوكل إلا على الله وحده ، ولا يتوجه بدعائه إلى أحد من المخلوقين ، بل يخلص دعواته لإلهه وخالقه ، إله كل شيء ، ورب كل شيء، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر:٦٠] ، وكما في قوله : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة:٥] .

فالدعاء هو العبادة كما في الحديث عن رسول الله ﷺ ، وكما قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾ [الجن:١٨] ، ويقول جل وعلا : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٦] .

---

(١) صحيح البخاري ، رقم (١٣٩٧) ؛ صحيح مسلم ، رقم (١٤) .

فلا يجوز للمسلم أن يتوجه بدعائه لغير الله، الذي يعلم السر وأخفى، يقول سبحانه تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ [ق:١٦] .

فعلى هذه الآيات لا يجوز أن تدعو أحدًا من دون الله ، سواء كان نبيًا، أو ملكا ، أو وليًا ، أو أي أحد كائنًا من كان ؛ لأن الله ينهانا عن ذلك بقوله : ﴿ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾ [الجن:١٨] .

الأمر لله ليس الأمر للفلك ولا لزيد ولا عمرو ولا ملك

ومما يوضح ذلك أن رجلًا قال للنبي ﷺ : ما شاء الله وشئت ، فقال رسول الله ﷺ : « أجعلتني لله ندًا ، بل ما شاء الله وحده » أحمد [(١)] .

فإذا أخلص العبد عمله لله ، وقام بأداء الصلاة على وجهها ، وأدى زكاة ماله طيبة بها نفسه ، وصام رمضان إيمانًا واحتسابًا ، وحج البيت الحرام ، استحق دخول الجنة ، وسلم من النار ، وصار مسلما ، مؤمنًا من عباد الله المتقين ، ومن حزبه المفلحين ، وحشر مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين ، والصديقين ، والشهداء ، والصالحين ، وحسن أولئك رفيقًا .

اللهم احشرنا في زمرتهم يا حيّ يا قيّوم .

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

---

(١) مسند أحمد ، رقم (١٨٣٩) .

(٧٢)

نصائح العارفين

إن في هذه الأمة أقوام ملئت قلوبهم بمعرفة الله ، وغمرت أوقاتهم بطاعة الله ، ذاقوا طعم المحبة ، فنسوا كل شيء سوى ربهم وفاطرهم وخالقهم ، طاب مأكلهم ، فصفت قلوبهم ، سلموا من الحرام قليله وكثيره، وأكلوا الحلال الطيب ، وصبروا على قلته وخشونته ، حتى وصلوا بذلك إلى درجات الأولياء ، فكانوا نورا يستضاء بهم ، يستضاء بأقوالهم وأفعالهم ، مجالسهم تنير القلوب ، ورؤيتهم تذكر بعلام الغيوب ، عرفوا حقيقة الدنيا فزهدوا فيها واحتقروها ، وعرفوا شرف الآخرة فشمروا إليها، ورأوا ربهم بأعين البصائر فزهدوا في كل ما سواه ، إن تكلموا فلله ، وإن صمتوا فلله .

كان وهيب بن الورد رحمه الله من هؤلاء ، فكان من كلامه قال: كان يقال: الحكمة في عشرة أجزاء ، فتسعة منها في الصمت ، والعاشرة في عزلة الناس، فعالجت نفسي على الصمت ، فلم أجدني أضبط كلما أريد منه ، فرأيت أن الأجزاء العشرة عزلة الناس .

وكان يقول رحمه الله : عجبا للعالم كيف تجيبه دواعي قلبه إلى ارتياح الضحك ، وقد علم أن له في القيامة روعات ووقفات وفزعات ، من عد

كلامه من عمله قل كلامه .

ومن كلامه : بلغني أن موسى عليه السلام قال : يا رب ، أخبرني عن آية رضاك عن عبدك ، فأوحى الله إليه : إذا رأيتني أهيء له طاعتي ، وأصرفه عن معصيتي ، فذاك آية رضائي عنه .

وقال رحمه الله : ضربت لعالم السوء مثلًا كمثل الحجر في الساقية ، فلا هو يشرب ، ولا هو يخلي الماء إلى الشجر ، فتحيا به .

ومن كلامه : خالطت الناس خمسين سنة ، فما وجدت رجلًا غفر لي ذنبًا ، ولا وصلني إذا قطعته ، ولا ستر عليَّ عورة ، ولا ائتمنته إذا غضب ، فالاشتغال بهؤلاء حمق كبير[1] .

ومن كلامه رحمه الله : يقول الله عز وجل : ما من عبد آثر هواي على هواه إلا ألقيت همومه ، وجمعت عليه ضيعته ، ونزعت الفقر من قلبه ، وجعلت الغنى بين عينيه ، واتجرت له من وراء كل تاجر ، وعزتي وعظمتي وجلالي ، ما من عبد آثر هواه على هواي ، إلا كثرت همومه ، وفرقت عليه ضيعته ، ونزعت الغنى من قلبه ، وجعلت الفقر بين عينيه ، ثم لا أبالي بأي أوديتها هلك .

وقال رحمه الله : بلغنا أن موسى عليه السلام قال : يا رب أوصني

---

(١) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والمسانيد ١/ ٤٤٥ .

قال : أوصيك بي ، فقالها ثلاثا ، كل ذلك يقول : أوصيك بي ، حتى قال في الأخيرة : أوصيك بي ألا يعرض لك أمر إلا آثرت به محبتي على ما سواها ، فمن لم يفعل ذلك لم أرحمه ، ولم أزكه .

وقال : اتق الله أن تسب إبليس في العلانية ، وأنت صديقه في السر .

وقد صلى رحمه الله صلاة العيد ، فلما انصرف الناس جعلوا يمرون به ، فنظر إليهم ثم زفر ، ثم قال : لئن كان هؤلاء أصبحوا مستيقنين أن قد تقبل منهم شهرهم هذا ، لكان ينبغي لهم أن يكونوا مشاغيل بأداء الشكر عما هم فيه ، وإن كان الأخرى لقد كان ينبغي لهم أن يصبحوا أشغل وأشغل .

ولذا كان العلماء الربانيون رحمهم الله يهتمون للعمل كما يهتمون للعلم ، ويعتبرون العلم وسيلة إلى العمل ، فكانوا يتعلمون ويعملون بعلمهم ، يتصفون بالورع والزهد والإقبال على الله بأصناف العبادة ، من صلاة ، وصيام ، وصدقة ، وذكر ، وأمر بالمعروف ، ونهي عن المنكر ، ونصح لجميع الخلق .

ويحفظون وقتهم وزمانهم ، لا يفرطون في ساعة من أيامهم ، لا يدعون أيامهم تمر بدون زيادة في العمل الصالح ، والتقرب إلى ربهم ، والتفكر في مآلهم ، وفي حياتهم وارتحالهم ، فكثير منهم يتمثل بقول الشاعر :

أليس من الخسران أن لياليا تمر بلا نفع وتحسب من عمري

زهدوا في الدنيا ، ولم يركنوا إليها ، بل كرهوها ، وابتعدوا عنها خوفًا على أنفسهم من خطر شهواتها ولذاتها ، وبعدًا عن شبهاتها ، والغفلة بها ، فهم كما وصفهم البعض بقوله :

إن لله عبــــادًا فطنـــــًا طلقوا الدنيا وخافوا الفتنـا

نظـــروا إليها فلمـا رأوا أنها ليســـت لحي وطـــنًا

جعلوهـــا لجـــة واتخذوا صـالح الأعمال فيـها سـفنًا

هذه صفة العلماء الربانيين ، يتعلمون العلم ويعملون به ، ويعلمونه الناس ، يعلمونهم بأقوالهم وأفعالهم ونقلهم الأحاديث الموروثة عن سيد الخلق ﷺ .

ويذكرون مآثر أصحاب رسول الله والتابعين لهم بإحسان ، يقتدون بأولئك في زهدهم وعبادتهم ، ويترحمون عليهم ، ويترضون عنهم ، لا يعيبون منهم أحدًا ، وليس في قلوبهم غل على أحد منهم ، وفوق هذا كله أنهم يعلّمون الناس العلم بأفعالهم ، لا بألسنتهم فقط ، فهم أبعد الناس عن القول الذي لا يصدقه العمل ، فلهذا انتفع الناس بعلمهم في حال حياتهم وبعد مماتهم ، ملئت بطون الكتب بعلومهم ومحفوظاتهم واستنباطاتهم ، وألفت المؤلفات في وصفهم وذكر سيرهم وأخبارهم ، كانت مجالسهم

معمورة بالذكر والتذكير ، يتعلم الجليس منهم العلم ، والعمل ، والأدب ، والورع، والزهد ، والقناعة ، والصبر ، والحلم ، والنجدة ، والشجاعة ، والمروءة ، والعفة .

ينظرون إلى أهل الدنيا بزينتهم وشهواتهم وغفلتهم وسكرتهم فيرحمونهم ، ويتأسفون لفعلهم ، ويحاولون جهدهم نصيحتهم ، يذكرونهم بالله ، ويرغبونهم فيه ، ويخوفونهم منه ، فهذه أوقاتهم وحياتهم .

روي عن الحسن البصري رحمه الله أنه كان يقول : ويحك يا ابن آدم ، هل لك بمحاربة الله طاقة ، إنه من عصى الله فقد حاربه ، والله لقد أدركت سبعين بدريًا أكثر لباسهم الصوف ، ولو رأيتموهم قلتم : مجانين ، ولو رأوا خياركم لقالوا : ما لهؤلاء من خلاق ، ولو رأوا شراركم لقالوا : ما يؤمن هؤلاء بيوم الحساب ، ولقد رأيت أقوامًا كانت الدنيا أهون على أحدهم من التراب تحت قدميه ، ولقد رأيت من يمسي أحدهم وما يجد عنده إلا قوتًا ، فيقول : لا أجعل هذا كله في بطني ، لأجعلن بعضه لله ، فيتصدق ببعضه ، وإن كان هو أحوج ممن تصدق به عليه .

هذه صفات العلماء العاملين ، الذين وصفهم الله عز وجل بقوله : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨] .

ولذا استحب كثير من العلماء العزلة عن الناس ؛ لأن المخالطة في الغالب لا تخلو من كلام وقال وقيل ، وتكلم بأعراض الناس من ذمهم

وعيبهم ، أو مدحهم والثناء عليهم ، على سبيل الإطراء ، وعدم الاكتفاء بالحقيقة .

وغالب الناس اليوم إذا رضي عن أحد مدحه بما فيه وبما ليس فيه ، وانتحل له محاسن وفضائل ليست له . وإذا أبغض شخصًا جعل فيه من العيوب والمثالب ما ليست فيه ، وتحامل عليه بالطعن والسب ، وتقبيح الصفات الحسنة فيه ، وحملها على غير ظاهرها ؛ لأجل الوقيعة فيه وتنقصه.

وعين الرضا عن كل عيب كليلة   كما أن عين السخط تبدي المساويا

فإذا كانت هذه حال الكثيرين من الناس ، فالتقلل من معرفتهم والتخفف من مخالطتهم فيه سلامة للدين ؛ لأن الجليس شريك للمجالس فيما يتكلم به ، ما لم ينكر عليه ، وإن أنكر عليه اكتسب عداوته في الغالب ، وأكثر الناس يبغون على غيرهم، وربما كذبوا عليهم ، وشوهوا سمعتهم ؛ لغرض التشفي منهم ، ولو بالكلام ، فهم يذكرون المساوئ ، ويتركون ذكر المحاسن ، وربما لم يكتفوا بذلك ، بل يزيدون وينقصون ، أو يفترون عليه كما قيل :

إن يعلموا الخير يخفوه وإن علموا   شرًا أذاعوا وإن لم يعلموا كذبوا

ولما كانت هذه الصفة هي الغالبة على أكثر المجتمعات ، فالبعد عنها هو الأولى ، والأسلم لدين المرء وعرضه .

وقد قال بعض العلماء : العزلة حمية ، وهي سلم للسلامة .

ولكن لابد من مجالسة من يستفيد منهم علمًا ومعرفةً لأحكام عبادته، ومعاملاته ؛ ليعبد الله على بصيرة ، ويتعامل على وفق الشريعة ، وقد قيل :

لقاء الناس ليس يفيد شيئًا ... سوى الهذيان من قيل وقال

فأقلل من لقاء الناس إلا ... لأخذ العلم أو إصلاح حال

فالعاقل يخالط أهل العبادة والعلم ؛ ليستفيد من علومهم ، ويقتدي بأفعالهم ومعاملتهم مع ربهم ، ومع الخلق ، وليحرص على مخالطة الزهاد منهم ، الذين يقللون أهمية الدنيا عنده ، ويرغبون في الآخرة ، ويحثون على الصبر والرضا بما يختاره الله له ، وعدم اللهف على ما يفوت من حطام الدنيا وزينتها ، فإنها ذاهبة زائلة ، فلا ينبغي للمؤمن أن يتحسر على ما فات منها ، ولا يفرح بما حصل منها ، بل يصبر على ما فات منها ، ويحتسب الأجر والمثوبة عند الله ، ويشكر الله على ما حصل له منها ، ولا يفرح ويتبجح به ، فإنه لا يدري هل هو عن رضا من الله ، أو أنه استدراج له ، والله عز وجل يقول : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةً فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ﴾ [الأنعام:٤٤] ، ويقول سبحانه وتعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ﴾ [القصص :٧٦] ، وقد قال ابن عبد القوي فيمن تحسن صحبته ومخالطته :

وخالط إذا خالطت كل موفق ... من العلماء أهل التقى والتعبد

يفيدك من علم وينهاك عن هوى ... فصاحبه تهدى من هداه وترشد

وإياك والهماز إن قمت عنــه والـ بـذي فإن المـرء بالمـرء يقتــدي

وقد قال بعض العلماء رحمه الله لما سئل : أي الأخوان أحق بإبقاء المودة ؟ قال : الوافر دينه ، الوافي عقله ، الذي لا يملك على القرب ، ولا ينساك على البعد ، إن دنوت منه أدناك ، وإن بعدت عنه راعاك ، وإن استعضدته عضدك ، وإن احتجت إليه رفدك ، وتكون مودة فعله أكثر من مودة قوله .

فمجالسة من هذه صفته خير من العزلة ، وإلا ففي العزلة السلامة .

اللهم سلمنا من كل ضير ، ويسر لنا كل خير ، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

(٧٣)

حفظ الأسرار

إن كتمان الأسرار مما أمر الشرع به ، وهي ما تقتضيه المروءة والعقل ، وقد يجب كتمان السر في مواضع ، ويستحب في مواضع ، ويباح في غيرها ، فإذا أخبره شخص بسره وأمره بكتمانه ، فإنه يجب عليه الكتمان ، ولا يجوز له إفشاء سر أخيه المسلم ، الذي أودعه إياه ، وهو من الأمانة التي حملها الإنسان ، فمتى أخبرك أخوك المسلم بسر ، وأمرك بكتمانه ، وجب عليك ذلك ، بل إذا علمت أنه لا يجب إفشاءه ، وجب ذلك عليك ، وإن لم يقل لك : لا تفش سري ، فإن القرائن والحالات الدالة على ذلك كافية ، وكثير من العقلاء يكتفي بذلك ، ولا يحتاج إلى أن يقول : إن حديثي أمانة عندك ، فلا تنشره ، بل إذا سارك به دون الناس ، فإنه أمانة ، أو علمت أنه كتمه عن غيرك فإنه أمانة .

ولهذا جاء في الحديث الذي رواه الترمذي عن جابر بن عبد الله ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «إذا حدث الرجل الحديث ، ثم التفت فهو أمانة»[١] .

وروى الإمام أحمد رحمه الله عن أبي الدرداء ﷺ : « من سمع من رجل حديثًا لا يشتهي أن يذكر عنه فهو أمانة ، وإن لم يستكتمه »[٢] .

(١) سنن الترمذي ، رقم (١٩٥٩) .
(٢) مسند أحمد ، رقم (٢٧٥٠٩) .

ولذلك لما عرض عمر بن الخطاب ﷺ ابنته حفصة على أبي بكر ﷺ ليتزوجها ، سكت أبو بكر ﷺ ، ولم يجب عمرَ ، لا بنفي ولا إثبات ، ثم إن النبي ﷺ خطبها من عمر ، وتزوجها عليه الصلاة والسلام ، ثم إن أبا بكر ﷺ لما تزوج رسول الله ﷺ حفصة ، قال لعمر : لعلك وجدت عليَّ حين عرضت عليَّ حفصة ، فلم أرجع إليك شيئًا ؟ قال عمر ﷺ : نعم . فقال أبو بكر : إن الذي منعني من ذلك هو أني سمعت رسول الله ﷺ يذكرها ، فلم يكن أن أقبل ذلك ، والرسول ﷺ له رغبة بها ، ولم أكن أفش سر رسول الله ﷺ فأخبرك بذلك[1] .

وقد قال العباس لابنه عبد الله ﷺ : يا بني إني أرى أمير المؤمنين يدنيك -يعني عمر ﷺ - فأحفظ مني ثلاثًا : لا تفشين له سرا ، ولا تغتابن أحدًا ، ولا يطلعن منك على كذبة .

وقال الحكماء : ثلاثة لا ينبغي للعاقل الإقدام عليها : شرب السم للتجربة ، وإفشاء السر إلى ذي قرابة والحاسد وإن كان ثقة ، وركوب البحر وإن ظن فيه الغنى .

ويروى عن بعضهم أنه قال : أصبر الناس من لا يفشي سره إلى صديقه ؛ مخافة التغلب يومًا ما[2] ، ولا ينبغي للعاقل أن يتساهل في مثل

---

(١) صحيح البخاري ، رقم (٣٧٨٣) .
(٢) غذاء الألباب ١/ ٩١ .

هذه الأمور ، أو يثق بكل أحد ، فإذا أفشى سره جعل يلوم من أفشاه ، احفظ سرك ، ولا تلم غيرك .

وقد قال عمرو بن العاص رضي الله عنه : ما استودعت رجلا سرًا فأفشاه فلمته ؛ لأني كنت به أضيق صدرًا حيث استودعته إياه حيث أفشاه ؛ ولذلك يقول بعضهم في ذلك :

إذا ما ضاق صدرك عن حديث فأفشته الرجال فمن تلوم

إذا عاتبت من أفشى حديثي وسرى عنده فأنا الظلوم

ولست محدثًا سري خليلا ولا عرسي إذا خطرت هموم

واطوي السر دون الناس إني لما استودعت من سر كتوم

فالحاصل أن كتمان الأسرار مما جاءت به الشريعة ، وأيدته التجارب ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : « استعينوا على قضاء حوائجكم بكتمانها فإن كل ذي نعمة محسود » رواه الطبراني[1] .

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

* * *

---

(١) المعجم الكبير ، رقم (١٨٣) .

(٧٤)

الحث على إفشاء السلام

لقد حثنا نبينا ﷺ على إفشاء السلام والبدء به ، وهو من حقوق المسلمين بعضهم على بعض ، فالبادئ بالسلام يحصل له الفضل على صاحبه ؛ لأنه ذكره بالسلام أولًا ، ولتواضعه بالبدء به ، قال النبي ﷺ: «البادئ بالسلام بريء من الكبر » رواه البيهقي في شعب الإيمان[1] .

وأما تذكيره بالسلام فلقوله ﷺ : « إن السلام اسم من أسماء الله ، وضعه في الأرض ، فافشوه بينكم ، فإن الرجل المسلم إذا مر بالقوم فسلم عليهم فردوا عليه ، كان له عليهم فضل درجة بتذكيره إياهم بالسلام ، فإن لم يردوا عليه ، رد عليه من هو خير منهم وأطيب » رواه البيهقي[2] .

وينبغي للمسلم أن يحرص على إفشاء السلام ، امتثالًا لأمره ﷺ ، وأداءً لحقوق المسلمين ، وتواضعًا لإخوانه ، وإظهارًا للبشر في وجوههم ، وطلبًا لمودتهم ، فإن التحبب إلى الناس بفعل ما أمر به شرعًا مطلوب ، مثل إبداء التحية ، وتشميت العاطس ، وإظهار المحبة لهم ؛ ولأن هذه الأمور من الأشياء الجالبة للمحبة بين المسلمين ، وقد جعلها ﷺ من حقوق أهل الإسلام بينهم ، كما في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ

(١) شعب الإيمان ، رقم (٨٤٠٧) .

(٢) شعب الإيمان ، رقم (٨٤٠٠) .

قال : « حق المسلم على المسلم ست قيل : ما هي يا رسول الله قال : إذا لقيته فسلم عليه ، وإذا دعاك فأجبه ، وإذا استنصحك فانصح له ، وإذا عطس فحمد الله فشمته ، وإذا مرض فعده ، وإذا مات فاتبعه »[(١)] .

فهذه من حقوق المسلمين ينبغي مراعاتها ، والقيام بها ، وقد بدأها بذكر السلام ، ولاشك أن السلام والابتداء به مما يجلب المحبة والمودة بين المسلمين ، وقد جاء عنه ﷺ أنه قال : « والله لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا ، أو لا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم ، أفشوا السلام بينكم »[(٢)] .

وقد قال أبو حاتم رحمه الله : البشاشة إدام العلماء ، وسجية الحكماء ؛ لأن البشر يطفئ نار المعاندة ، ويحرق هيجان المباغضة ، وفيه تحصين من الباغي ، ومنجاة من الساعي ، ومن بش للناس وجهًا لم يكن عندهم بدون الباذل لهم ما يملك . وقد روي عن هشام بن عروة عن أبيه قال : أخبرت أنه مكتوب في الحكمة : يا بني ليكن وجهك بسطًا ، ولتكن كلمتك طيبة ، تكن أحب إلى الناس من أن تعطيهم العطاء[(٣)] ، وقد قيل :

أخو البشر محبوب على حسن بشره

ولن يعدم البغضاء من كان عابسًا

---

(١) صحيح مسلم ، رقم (٢١٦٢) .

(٢) صحيح مسلم ، رقم (٥٤) .

(٣) شعب الإيمان للبيهقي ، رقم (٨٠٥٧) .

ويسـرع بخل المرء في هتك عرضـه

ولم أر مثل الجـود للمـرء حارسا

وقد روي عن حبيب بن ثابت قال : من حسن خلق الرجل أن يحدث صاحبه وهو مقبل عليه بوجهه[١] .

وقد روي عن سعيد بن عبد الرحمن الزبيدي قال : يعجبني من القراء كل سهل طلق ، مضحاك ، فأما من تلقاه ببشر ، ويلقاك بعبوس ، يمن عليك بعمله ، فلا أكثر الله في القراء ضرب هذا. ومراده بالقراء أهل العبادة والطاعة .

وقد روي عن عمار بن ياسر رضي الله عنه قال : ثلاث من جمعهن جمع الإيمان : الإنفاق مع الإقتار ، والإنصاف من نفسك ، وبذل السلام للعالم[٢] .

وقد جاء عنه ﷺ أنه قال : « أبخل الناس من بخل بالسلام »[٣] .

واعلم أن السلام من حقوق المسلمين بعضهم على بعض ، ولذلك قال فيه عليه الصلاة والسلام ، كما في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم وغيرهما عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما : أن رجلًا سأل رسول الله ﷺ أي الإسلام خير ؟ قال : « تطعم الطعام ، وتقرأ السلام على

---

(١) شعب الإيمان للبيهقي ، رقم (٨٥٢٥)

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ، رقم (١١٢٣٩) .

(٣) أخرجه الديلمي ، رقم (٨٢٧) .

من عرفت ومن لم تعرف »[1] فجعله ﷺ من أفضل خصال الإسلام .

وروى الترمذي وصححه عن عبد الله بن سلام قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يا أيها الناس أفشوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصلوا بالليل والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام »[2] .

والسلام هو تحية أهل الإسلام فيما بينهم ، وتستحب المصافحة مع السلام ، فقد ورد فيها عدة أحاديث عنه ﷺ ، فيستحب للمسلم مصافحة أخيه المسلم ؛ ليحصل على زيادة الأجر من الله .

والمصافحة من أسباب إيجاد المحبة بين المسلمين ، وتخفيف العداوة لمن بينهما شيء ، مما يقع بين الناس من المنافسة ، أو الحسد ، أو الجفاء ، وكل ما يخفف هذه الأمور ويزيل الوحشة بين المسلمين أمر مطلوب ، ويثاب عليه صاحبه ، لاسيما إذا استحضر ذلك وعمله لله . وقد ورد في استحباب المصافحة أحاديث منها :

ما رواه أبو داود والترمذي وحسنه عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال : قال رسول ﷺ : « ما من مسلمين يلتقيان ، فيتصافحان ، إلا غفر لهما قبل أن يتفرقا »[3] ، وفي رواية لأبي داود قال رسول الله ﷺ : « إذا التقى المسلمان

---

(١) صحيح البخاري ، رقم (١٢) ؛ صحيح مسلم ، رقم (٣٩) .

(٢) سنن الترمذي ، رقم (٢٤٨٥) .

(٣) سنن أبي داود ، رقم (٥٢١٢) ؛ سنن الترمذي ، رقم (٢٧٢٧) .

فتصافحا ، وحمدا الله تعالى ، واستغفراه ، غفر لهما » رواه أبو داود[١] .

وفي المسند عن أنس ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من مسلمين التقيا ، فأخذ أحدهما بيد صاحبه ، إلا كان حقًا على الله عز وجل أن يحضر دعاءهما ، ولا يفرق بين أيديهما حتى يغفر لهما »[٢] .

وقال أنس ﷺ : « كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا تلاقوا تصافحوا ، وإذا قدموا من سفر تعانقوا »[٣] .

وفي البخاري عن قتادة ﷺ قال : «قلت لأنس ﷺ : كانت المصافحة في أصحاب رسول الله ﷺ ؟ قال : نعم»[٤] .

وروى الطبراني بسند جيد عن حذيفة ﷺ عن النبي ﷺ قال : « إن المؤمن إذا لقي المؤمن فسلم عليه ، وأخذ بيده ، فصافحه ، تناثرت خطاياهما ، كما يتناثر ورق الشجر »[٥] .

وقد روي عن عطاء الخراساني مرفوعًا إلى النبي ﷺ : « تصافحوا يذهب الغل ، وتهادوا تحابوا وتذهب الشحناء »[٦] .

---

(١) سنن أبي داود ، رقم (٥٢١١) .
(٢) مسند أحمد ، رقم (١٢٤٥١) .
(٣) رواه الطبراني في المعجم الأوسط ، رقم (٩٧) .
(٤) صحيح البخاري ، رقم (٢٦٦٣) .
(٥) المعجم الأوسط للطبراني ، رقم (٢٤٥) .
(٦) موطأ مالك ، رقم (٣٣٦٨) .

فيتضح من هذا استحباب المصافحة عند اللقاء،ومقابلة المسلم لأخيه.

أما ما يفعله بعض الناس بعد أدبار الصلوات الخمس ، أو بعد تحية المسجد من مصافحة المصلي عن يمينه وعن شماله فهو غير مشروع ؛ لأنه لم يؤثر عن النبي ﷺ ولا عن أصحابه أنهم كانوا يسلم بعضهم على بعض بعد الصلاة ، فحيث لم ينقل فلا يشرع فعله ، ولكن إذا فعله بعض الأوقات ، أو لسبب من الأسباب كغياب المسلم عليه مدة عنه فلا بأس ، من غير أن يعتقد أنه سنة .

وقد سئل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن هذه المسألة ، فقال : إنها بدعة ، ولم يستحبها أحد من السلف .

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

* * *

(٧٥)

غض البصر عن المحارم

إن غض البصر عما حرم الله مما أمر الله به ورسوله ، والله سبحانه وتعالى يخاطب نبيه الكريم بأن يأمر المؤمنين بغض أبصارهم ، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ [النور:٣٠] ، وبقوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾ [النور:٣١] .

فالقرآن الكريم يأمر بغض البصر ، وصيانة الجوارح عما يغضب الله عز وجل ، وعن كل ما يكون سببًا من أسباب الوقوع في المحظور ، فإن العبد متى أرخى لنفسه الزمام بإطلاق بصره فيما حرم الله عليه ، ابتلي بالوقوع فيما يعود عليه بالضرر في دينه ودنياه ، وفي الحديث عنه ﷺ كما رواه الطبراني والحاكم عن ابن مسعود وحذيفة رضي الله عنهما عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل : « النظرة سهم مسموم من سهام إبليس ، من تركها مخافة مني ، أبدلته إيمانا يجد حلاوته في قلبه »[(١)] .

وروي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « كل عين باكية يوم القيامة إلا عينًا غضت عن محارم الله ، وعينا سهرت في سبيل الله ، وعينا

---

(١) المعجم الكبير ، رقم (١٠٣٦٢) ؛ المستدرك ، رقم (٧٨٧٥) .

خرج منها مثل رأس الذباب دمعة من خشية الله» رواه أبو نعيم في الحلية[١] .

وروى الإمام أحمد وغيره عن عبادة بن الصامت ﷺ أن النبي ﷺ قال: « اضمنوا لي ستا من أنفسكم ، أضمن لكم الجنة : أصدقوا إذا حدثتم، وأوفوا إذا عاهدتم ، وأدوا إذا ائتمنتم ، واحفظوا فروجكم ، وغضوا أبصاركم ، وكفوا أيديكم »[٢] .

وروى أبو داود عن بريدة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ لعلي : « يا علي لا تتبع النظرة النظرة ، فإنما لك الأولى ، وليست لك الآخرة »[٣] .

وقد جاء في الصحيح توضيح ذلك عن جرير بن عبد الله البجلي ﷺ قال : سألت رسول الله ﷺ عن نظر الفجأة ، قال « اصرف نظرك »[٤] .

فهذا يبين لنا الفرق بين الأولى والثانية ، وأن الأولى هي التي تقع من غير اختيار المرء ، فإن أدام النظر ، واستمر فيه ، فمن حين ابتداء النظر المتعمد تبدأ الثانية .

قال ابن الجوزي رحمه الله : وهذا لأن الأولى لم يحضرها القلب ، ولا يتأمل بها المحاسن ، ولا يقع التلذذ بها ، فمن استدامها مقدار حضور

---

(١) حلية الأولياء ، رقم (١٤٨) .
(٢) مسند أحمد ، رقم (٢٢٧٥٦) ؛ صحيح ابن حبان ، رقم (٢٧١) .
(٣) سنن أبي داود ، رقم (٢١٤٩) .
(٤) صحيح مسلم ، رقم (٢١٥٩) .

الذهن ، كانت كالثانية في الإثم .

قال ابن القيم رحمه الله : أما اللحظات فهي رائدة الشهوة ، ورسولها ، وحفظها أصل حفظ الفرج ، فمن أطلق بصره أورده موارد الهلكات[(١)] ، وذكر فيه حديث : « إياكم والجلوس على الطرقات ، قالوا : يا رسول الله مجالسنا ما لنا فيها بد ، قال : فإن كنتم لابد فاعلين ، فأعطوا الطريق حقه ، قالوا : وما حقه ؟ قال : غض البصر ، وكف الأذى ، ورد السلام »[(٢)] .

وقال رحمه الله في موضع آخر : النظر أصل عامة الحوادث التي تصيب الإنسان ، فإن النظرة تولد الخطرة ، ثم تولد الخطرة فكرة ، ثم تولد الفكرة شهوة ، ثم تولد الشهوة إرادة ، ثم تقوى فتصير عزيمة جازمة ، فيقع الفعل ولابد ، ما لم يمنع المانع ؛ ولهذا قيل : الصبر على غض الطرف أيسر من الصبر على ألم بعده[(٣)] . قال الشاعر :

كل الحوادث مبدأها من النـــظر ومعظم النار من مستـصغر الشرر

كم نظرة فتكت في قلب صاحبها فتك الســهام بلا قوس ولا وتـر

والعبــد مادام ذا عــين يقلــبها في أعين الغير موقوف على الخطر

يســـر ناظره ما ضـــر خاطــره لا مرحبـًا بسرور عـاد بالضرر

---

(١) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي ١/ ١٠٦ .

(٢) مسند أحمد ، رقم (١١٣٠٩) .

(٣) الجواب الكافي ١/ ١٠١ .

وقد ذكر العلماء فوائد عديدة لغض البصر ، منها :

أولًا : ما ذكره السفاريني رحمه الله حيث يقول في فوائد غض البصر :

أحدها : تخليص القلب من الحسرة ، فإن من أطلق نظره دامت حسرته ، فأضر شيء على القلب إرسال البصر ، فإنه يريه ما لا سبيل إليه، ولا صبر له عنه ، وذلك غاية الألم ، كما قيل :

تزود منها نظـــرة لم تدع لـــه   فؤادا ولم يشـعر بما قد تـزودا

فلم أر مقتولًا ولم أر قاتـــلًا   بغير سلاح مثلها حين أقصدا

وقد قال الإمام ابن القيم رحمه الله في هذا المعنى :

ألم أقل لك لا تســرق ملاحـظة   فسارق اللحظ لا ينجو من الدرك

نصبـت طرفي لـه لما بـــدا شركا   فكان قلبي أولى منـــه بالشـــرك[1]

الفائدة الثانية لمن غض طرفه : أن غض الطرف يورث القلب نورًا وإشراقًا ، يظهر في العبد ، وفي الوجه ، والجوارح ، كما أن إطلاق البصر يورث ظلمة ، وكآبة . وسبق إيراد الحديث الذي جاء فيه : « النظر سهم مسموم من سهام إبليس ، من تركها من مخافتي أبدلته إيمانًا يجد حلاوته في قلبه » رواه الطبراني والحاكم[2] .

---

(١) القائل ابن القيم . انظر روضة المحبين ونزهة المشتاقين ١/ ١٠١ .

(٢) سبق تخريجه ص ٣٢٨ .

الفائدة الثالثة : أن غض البصر يورث صحة الفراسة ، فإن الفراسة من نور القلب وثمراته ، فإذا استنار القلب صحت فراسته ، فإنه بصير بمنزلة المرآة المجلوة ، تظهر فيها الحقائق كما هي ، وإطلاق النظر بمنزلة التنفس فيها ، فإذا أطلق العبد نظره ، تنفست نفسه الصعداء في مرآة قلبه ، فطمست نورها .

وقال الكرماني رحمه الله : من عمر ظاهره باتباع السنة ، وباطنه بدوام المراقبة ، وغص بصره عن المحارم ، وكف نفسه عن الشهوات ، وأكل الحلال ، لم تخطئ فراسته .

الفائدة الرابعة : إنه يفتح له طرق العلم ، ويسهل عليه أبوابه، وذلك بسب نور القلب ، فإنه إذا استنار ظهرت فيه حقائق المعلومات ، وانكشف له بسرعة ، ونقل من بعضها إلى بعض ، ومن أرسل بصره ، تكدر عليه قلبه، وأظلم ، وانسد عليه باب العلم ، وأحجم عن الطلب ، فصار طلب العلم عليه ثقيلًا ، لا تميل نفسه إليه ، ولا يتسع صدره لحفظه ، وتفهمه له ، والبحث فيه ، فحرم منه ، ومن حُرم العلم حُرم خيرًا كثيرًا ، كما أن من وفقه الله للعلم ، وأعطاه منه حظًا وافرًا ، فإنه قد أعطى خيرًا كثيرًا، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [البقرة: ٢٦٩] .

ومن فوائد غض البصر أيضًا : أنه يورث قوة القلب وثباته ،

وشجاعته ، فيجعل الله له سلطان البصيرة مع سلطان الحجة .

وجاء في الأثر : إن الذي يخالف هواه يفرق الشيطان من ظله ؛ ولهذا روي عن النبي ﷺ أنه قال لعمر : « ما سلكتَ فجًا إلا سلك الشيطان فجًا سواه » رواه ابن أبي شيبة في مصنفه[1] .

ولذلك تجد غالبًا أن المتبع لهواه يوجد فيه من ذل القلب وضعفه ، ومهانة النفس وحقارتها ، ما جعله الله مؤثرًا هواه على رضا ربه . بخلاف من آثر رضا مولاه على هواه ، فإنه في عز الطاعة ، وحصن التقوى ، بخلاف أهل المعاصي والأهواء .

قال الحسن رحمه الله : «إنه وإن هملجت بهم البغال ، وطقطقت بهم البراذين ، إن ذل المعصية لفي قلوبهم ، أبى الله إلا أن يذل من عصاه» .

قال بعض العلماء : الناس يطلبون العز عند أبواب الملوك ، ولا يجدونه إلا في طاعة الله ، فمن أطاع الله فقد والاه فيما أطاعه فيه ، ومن عصاه فقد عاداه فيما عصاه فيه ، وفي دعاء القنوت : إنه لا يذل من واليت، ولا يعز من عاديت .

ومنها : أن غض البصر يورث القلب سرورًا وفرحة ، أعظم من الالتذاذ بالنظر ، وذلك لقهر عدوه ، وقمع شهوته ، ونصرته على نفسه ،

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة ، رقم (٣٢٦٦٢) .

فإنه لما كف لذته ، وحبس شهوته لله تعالى ، وفيها مضرة نفسه الأمارة بالسوء ، أعاضه الله سبحانه وتعالى مسرة ولذة ، أكمل من لذة موافقة الهوى بما لا نسبة بينهما ، وهنا يتميز العقل من الهوى .

ومنها : أنه يسد عنه بابا من أبواب جهنم ، فإن النظر باب الشهوة الحاملة على مواقعة الفعل ، وشرعُ الله ومحرماته حجابٌ ومانع من الموانع إلى وصول ما حرمه الله ، وانتهاك حرماته ، فمتى هتك الحجاب ، تجرأ على المحظور ، ولم تقف نفسه منه على غاية ؛ لأن النفس في هذا الباب لا تقف على غاية ، وليس لها حد في ذلك .

ومنها : أنه يقوي القلب ، ويثبته ، ويزيده ، فإرسال البصر لا يحصل إلا من قلة العقل ، وطيشه ، وخوره ، وعدم ملاحظة العواقب ، فإن خاصية العقل ملاحظة العواقب ، ومرسل الطرف لو يعلم ما تجنى عليه عواقب طرفه لما أطلق سراحه ؛ ولهذا قيل :

وأعقل الناس من لم يرتكب سببًا حتى يفكر ما تجني عواقبه

ويقول آخر :

وأحزم الناس من لو مات من ظمأ

لا يقرب الورد حتى يعرف الصدرا

ومنها : أنه يخلص القلب من سكرة الشهوة ، ورقدة الغفلة ، فإن

إطلاق البصر يوجب استحكام الغفلة عن الله والدار الآخرة ، ويقع في سكرة العشق ، الذي هو أضر شيء على العبد في دينه ودنياه .

والحقيقة أن فوائد غض البصر لا يمكن حصرها ، وكل مؤمن عاقل يعلم ذلك ؛ ولذلك كان العلماء رحمهم الله يكرهون النظر إلى المردان ، ولا يحبون أن يجلسوا إليهم ؛ ولما جاء رجل إلى الإمام أحمد ومعه غلام جميل قال له : من هذا ؟ قال : ابن أختي ، قال : لا تأت به إلينا ، وأجلسه خلفه ؛ لئلا يراه[1] .

وقال المروذي : قلت : لأحمد رحمه الله تعالى: الرجل ينظر إلى مملوكه؟ قال : أخاف عليه الفتنة ، كم نظرة ألقت في قلب صاحبها البلابل[2] .

اللهم احمنا من المخالفة والعصيان، وجنبنا أسباب السخط يا رحمن.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

* * *

---

(١) كشاف القناع ٥/ ١٦ .

(٢) الفروع وتصحيح الفروع ٨/ ١٨٧ .

(٧٦)

حفظ الأيمان

إن الله سبحانه وتعالى أمرنا بحفظ الأيمان ومراعاتها ، وحفظ الأيمان على وجهين :

أحدهما : أن يحفظ المسلم نفسه عن كثرة الحلف ، ولا يتساهل في الأيمان فإن التساهل فيها يدل على ضعف النفس وخورها ، وربما حمله كثرة أيمانه على أن يحلف وهو غير صادق ، فيقع عليه الوعيد الشديد في ذلك .

والوجه الثاني : حفظها ، أي : التزام الكفارة عندما يحلف ، ويحنث في يمينه ، فإنه يبادر إلى الكفارة ، ولا يجعل يمينه تذهب بدون كفارة ، فإن الله أمر بالكفارة ، وهي واجبة على من حنث في يمينه ، وقد فسر قوله سبحانه : ﴿ وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ ﴾ [المائدة:٨٩] بأن المراد لا تتركوها بدون كفارة ، وقيل : المعنى لا تحلفوا ، أي : احفظوا نفوسكم عن الحلف .

وكثير من الناس لا يبالي باليمين ، فيحلف أيمانًا كثيرة على قضية واحدة ، سواء كان صادقًا أو كاذبًا ، كل ذلك عنده سواء ، كأنه لا يعلم تحريم ذلك ، والحال أن أكثر المسلمين أو كل المسلمين لا يجهلون تحريم الأيمان الكاذبة ، لكن يغلب على كثير منهم عدم المبالاة ؛ لأنه اعتاد ذلك من طفولته ، فأصبح عنده لفظًا معتادًا ، وهذا في الحقيقة من سوء التربية ،

ولذلك كان السلف الصالح رضوان الله عليهم يضربون أولادهم، ولو كانوا صغارًا عندما يحلفون وهم كاذبون ، خوفًا من أن يتعودوا على ذلك في حال الكبر .

قال إبراهيم النخعي رحمه الله : « كانوا يضربوننا على الشهادة والعهد ونحن صغار »[1] .

فهكذا كان السلف الصالح رضي الله عنهم ، فينبغي لنا الاقتداء بهم ، وتمرين الأولاد على عدم الشهادة بالكذب ، وعدم الحلف على الكذب ، وهكذا جميع التعاليم الشرعية ، فإن الولد إذا كبر يتعود على ما كان يعتاده في حال الصغر ، وقد قيل في المعنى :

وينشأ ناشئ الفتيان منا على ما كان عوده أبوه

وأكثر ما يتأثر الأولاد من أفعال أهليهم ، وأفعال مدرسيهم ، فإنهم يقتدون بأفعالهم أكثر مما يقتدون بأقوالهم ، وهكذا كل صاحب مسؤولية ، صغيرة كانت أو كبيرة ، فإن من تحت يده يقتدون بأفعاله وسيرته ، أكثر مما يقتدون بتعاليمه وأوامره ، ولذلك ورد الوعيد الشديد في الذين يعظون الناس ويرشدونهم ، ولا يأتمرون بأنفسهم ، فيأمرون بالمعروف ، ولا يفعلونه ، وينهون عن المنكر ويفعلونه .

---

(١) عمدة القاري شرح صحيح البخاري ، حديث رقم (١٥٦٣) .

ولهذا جاء عن النبي ﷺ أنه قال : « مررت ليلة أسرى بي بأقوام تقرض شفاههم بمقارض من نار ، فقلت لجبريل : من هؤلاء ؟ فقال : هؤلاء خطباء من أمتك ، يأمرون الناس بالبر ، وينسون أنفسهم ، أفلا يعقلون » رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني وغيرهم[1] ، والغالب أن من هذه صفته لا ينتفع الناس بوعظهم ، ولا يتأثرون منهم .

وقد قيل في هذا المعنى :

يا أيهـــا الرجل المعلم غـيره ... هلا لنفسـك كان ذا التعليـم

ابدأ بنفسك فانهها عن غيـــها ... فإذا انتهت عنه فأنـت حكيم

فهناك يقبل ما تقول ويقتدى ... بالرأي منـك وينفــع التعليم

فعلى الآباء والمعلمين والمرشدين والوعاظ والآمرين بالمعروف أن يتصفوا بالصفات المحمودة ، ويلتزموا بالآداب الشرعية ، ويجتنبوا ما نهى عنه الشرع ؛ ليكونوا قدوة للناس بأقوالهم ، وأفعالهم ، فإنهم إذا استن بهم من بعدهم باتباعهم ، يحصل لهم من الأجر مثل أجر من عمل بأعمالهم ، ومن كان بعكس ذلك ، فإنه يحصل له من الإثم مثل إثم من تابعهم ، وقلدهم في ذلك . ولا حول ولا قوة إلا بالله .

---

(١) مسند أحمد ، رقم (١٢٢١١) ؛ مسند أبي يعلى ، رقم (٤٠٦٩) ؛ الطبراني في الأوسط ، رقم (٨٢٢٣).

وقد ورد النهي عن كثرة الحلف في عدة أحاديث :

منها ما رواه البخاري ومسلم رحمهما الله عن أبي هريرة ﵁ قال : قال رسول الله ﷺ : « الحلف منفقة للسلعة ، ممحقة للبركة »[1] ، والمعنى : أنه ربما حلف البائع أنه اشترى هذه السلعة بكذا ، وهو كاذب ، أو أنها سيمت منه بكذا ، وهو غير صادق ، فيشتريها من حلف له ، بناء على تصديقه لصاحب السلعة ، بسبب يمينه ، ولكن في هذا على البائع نقص كبير ، قد يحس به وقد لا يحس به ، من محقة بركة بيعه وشرائه ، وعدم نمو ماله ، أو تسليط بعض الآفات عليه ، من حريق ، أو غرق ، أو غير ذلك من الآفات التي يرسلها الله سبحانه على بعض عباده تعجيلًا لعقوبته .

فعلى العاقل أن يتجنب ما نهى عنه الله ورسوله ، وأن يحرص على التقيد بأوامر الشريعة ، وعدم مخالفتها ؛ لتحصل له النجاة في الدنيا والآخرة .

وقد روى الطبراني بسند صحيح عن سلمان ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: « ثلاثة لا يكلمهم الله ، ولا يزكيهم ، ولهم عذاب أليم : شيخ زان ، وعائل مستكبر ، ورجل جعل الله بضاعته لا يشتري إلا بيمينه ولا يبيع إلا بيمينه »[2] .

---

(١) صحيح البخاري ، رقم (٢٠٨٧) .

(٢) المعجم الصغير ، رقم (٨٢١) .

فهذا الحديث فيه وعيد شديد في الآخرة على من أكثر الحلف ، وجعله ديدنه ، لا يهمه أنه حلف صادقًا أو كاذبًا ، ولا يهمه إن حنث أو لم يحنث ، لا قيمة لليمين عنده ، وأيّ عقوبة أعظم من أن الله لا يكلمه ، كما يكلم عباده المؤمنين يوم القيامة ، ولا يحصل له تزكية ، كما تحصل لغيره من المؤمنين ، وأنه يعذبه العذاب الأليم ، فكثرة الحلف ورد فيها أحاديث كثيرة في النهي عنها ، والتحذير منها ، وبيان ما يترتب عليها من العقوبة في الدنيا والآخرة .

أما في الدنيا فتقدم قوله ﷺ : «الحلف منفقة للسلعة ممحقة للبركة»[1] .

وأما في الآخرة ففي هذا الحديث أن الله لا يكلمه ، ولا يزكيه ، وله عذاب أليم .

فعلى المسلم الحذر من ذلك غاية الحذر ؛ لأن متاع الدنيا قليل ، ولا يعلم المرء ما بقاؤه فيها ، فينبغي أن يكون على حذر منها ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴾ [فاطر:٥] .

وروى البخاري في صحيحه عن ابن مسعود ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ « خير الناس قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم يجيء

---

(١) سبق تخريجه .

قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه ، ويمينه شهادته »[١] .

فقد أخبر ﷺ في هذا الحديث أن هذا من علامة قلة الخير فيمن هذه صفته ، ولاشك أن كثرة الحلف دليل على نقصان الدين ، ونقصان المروءة ، ونقصان العقل ، ولذلك يُمدح الرجال بقلة الأيمان ، وعدم كثرة الحلف ، وإن قدر وجود الأيمان منهم في بعض الأوقات للحاجة ، فإنهم عند الحنث يبادرون إلى الكفارة ، ويحترمون أيمانهم أن تضيع بدون وفاء بها ، أو كفارة لها عندما يحنثون ، ولذلك يقول بعضهم في مدحه لبعض أهل المروءات :

قليل الألايا حافظ ليمينه   إذا صدرت منه الألية برت

والألايا : هي الأيمان ، واحدها ألية .

نسأل الله سبحانه وتعالى السلامة من كل إثم ، والفوز بكل خير ديني ودنيوي .

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

* * *

---

(١) صحيح البخاري ، رقم (٣٦٥١) .

(٧٧)

ادع إلى سبيل ربك بالحكمة

كان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يحرصون أشد الحرص على هداية البشر ، ويدعونهم إلى الله بكل وسيلة ، باللين ، واللطف ، والإرشاد، والدعوة بالتي هي أحسن ، كما أمر الله موسى وهارون عليهما السلام بذلك ، فقد قال سبحانه لهما ، حينما أرسلهما إلى فرعون : ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ [طه:٤٤] ، وقال سبحانه لنبيه الكريم ﷺ : ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ﴾ [يوسف:١٠٨] ، وقال سبحانه وتعالى : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل:١٢٥] .

وهكذا سار ﷺ على هذه الطريقة ، فحصل بها المقصود مع البعض .

أما إذا استعملت ولم يحصل بها المراد ، وتجاوز المدعو حده في الغطرسة ، والكبر ، والإباء ، والنفور عن قبول الحق ، ومصادمته له ، والوقوف أمام الدعوة موقف العداء ، فإنه له حالة أخرى ، وهو استعمال القوة ، والحزم ، والشجاعة ، والدفاع عن الحق بكل ما يستطيع ، فإنه من أعرض عن الرسل وأتباعهم ، ونصب العداوة لهم ، يعتبر من الصادّين عن سبيل الله ، والله سبحانه وتعالى توعد الذين يصدون الناس عن سبيله ، كما

قال سبحانه وتعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدۡنَٰهُمۡ عَذَابًا فَوۡقَ ٱلۡعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفۡسِدُونَ ﴾ [النحل:٨٨] .

فأعظم فساد في الأرض الصد عن الإيمان بالله ، وعن سلوك سبيل الحق ، كما قال شعيب عليه السلام في وصف قومه ، ونهيه له عن ذلك : ﴿ وَلَا تَقۡعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبۡغُونَهَا عِوَجًا ﴾ [الأعراف:٨٦] .

ولذلك شرع الجهاد في سبيله ، والقتال للأعداء من أجل الدفاع عن سبيل الحق ، ومن أجل دعوة الناس إلى صراط الله ؛ لتحصل لهم السعادة في الدنيا والآخرة ، ولكن الجهاد والقتال لا يستعمل إلا للمعاند ، والمتكبر عن قبول الهدى ، وامتثال أمر الله وأمر رسله .

أما من يستجيب للحق إذا ظهر له البرهان ، وتبين له الصواب ، فهذا لا يجوز قتاله ، بل قد أصبح فردًا من أفراد المسلمين ، له ما لهم وعليه ما عليهم ، ولذلك يقول ﷺ : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، فإذا قالوها ، عصموا مني دماءهم وأموالهم وحسابهم على الله »[١] .

ومن ذلك حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه ، فقد روى البخاري

---

(١) مسند أحمد ، رقم (٢٣٩) ؛ سنن أبي داود ، رقم (٢٦٤٠) ، سنن الترمذي ، رقم (٢٦٠٦) ؛ سنن النسائي ، رقم (٢٤٤٣) ؛ سنن ابن ماجه ، رقم (٣٩٢٨) .

ومسلم عنه قال : «بعثنا رسول الله ﷺ في سرية ، فصبحنا الحرقات من جهينة ، فأدركت رجلا ، فقال: لا إله إلا الله ، فطعنته فوقع في نفسي من ذلك ، فذكرته للنبي ﷺ فقال رسول الله ﷺ : أقال لا إله إلا الله وقتلته ؟ قال : قلت يا رسول الله : إنما قالها خوفا من السلاح ، قال : أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا ، فما زال يكررها علي حتى تمنيت أني أسلمت يومئذ»[(١)] .

وبهذا يتبين لك المقصود من القتال في سبيل الله وجهاد الكفار ، وأن المقصود منه دعوة الناس إلى توحيد الله ، وإفراده بالعبادة ، ومتابعة الرسول ﷺ ، وامتثال أوامره التي يبلغها إلى عباد الله من ربهم ، فإن الله بعثه لهداية البشر رحمة بهم ولطفًا ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٧]، فمن أطاعه رحمه الله ، ومن عصا رسوله عذبه الله العذاب الأكبر .

اللهم وفقنا لاتباع هدي نبيك ، وأدخلنا الجنة برحمتك يا أرحم الراحمين .

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

* * *

(١) صحيح البخاري ، رقم (٦٨٧٢) ؛ صحيح مسلم ، رقم (٩٦) .

(٧٨)

نعم الله على عباده

نعم الله على عباده كثيرة ، لا يمكن لأحد حصرها ، من حين كان العبد في قرار مكين في بطن أمه ، قد أنعم الله عليه بالغذاء التام ، الذي يتغذى به من دون حاجة إلى تناوله ، وبدون نقص في الكفاية ، وبدون زيادة على قدر الحاجة من الزيادة التي يحصل منها الضرر ، ثم إن الله سبحانه حفظه في ذلك المكان الذي لا يصل إليه فيه شيء من المؤذيات الطبيعية ، كالحر ، أو البرد ، أو المؤذيات الطارئة الأخرى ، كأذية بعض الحيوانات للإنسان . ومع ذلك فالجنين في حالة لا يحس بشيء من ذلك ، ولا يشعر بما يحصل له .

ثم بعد وضعه سخر الله له الخدمة التامة من والديه ، وهيأ له الطعام الطيب المهيأ له في كل لحظة من لحظاته ، إذا طلبه وجده موجودًا على أكمل الحالات ، ثم جعل هذا الغذاء بيد أحب الناس إليه ، وهي والدته ، فلا يمكن أن تؤخره عنه ، ولا أن تماطله به ، بل أسعد أوقاتها وقت تناول رضيعها ثديها ، وامتصاصه له ، وإذا فكرت في حكمة الله ولطفه بعبده ، وتيسيره له ، وهو في هذه الحالة لا يملك فيها لنفسه جلب ما ينفعه، أو دفع ما يضره ، بل ولا يعرف ما ينفعه ، ولا ما يضره أوجب ذلك لك الوقوف عند هذا الأمر ، والتفكر فيه ، ومعرفة تمام حكمته ورحمته بخلقه .

ونجد هذا ليس خاصًا بالإنسان فحسب ، بل هو موجود لدى جميع المخلوقات الحيوانية ، كما هو معروف ومشاهد ، ولكن الله قد أمرنا بالتفكر والتذكر لنعمه ؛ لنقوم بشكرها .

فالله جل وعلا أمر الإنسان بذلك لما وهبه من نعمة العقل والفكر، الذي يعرف به نعم ربه ، ويعرف قدرة خالقه وبارئه ، الذي خلق كل شيء فقدره تقديرًا ، فقال سبحانه وتعالى ممتنًا على الإنسان ، ومذكرًا له بقدرته سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون:١٢-١٤] .

نعم تبارك الله أحسن الخالقين ، وأرحم الراحمين .

وللإمام ابن القيم رحمه الله كلامًا نافعًا في كيفية انتفاع العبد بما أوجد الله له وتصريفه في بدنه ، قال رحمه الله :

« إذا نظر الإنسان إلى غذائه في مدخله ، ومستقره ، ومخرجه ، رأى فيه العبر والعجائب ، كيف جعلت له آلة يتناوله بها ، ثم باب يدخل منه ، ثم آلة تقطعه صغارًا ، ثم طاحون تطحنه ، ثم بماء الريق يعجنه ، ثم جعل له مجرى وطريق إلى جانب مجرى النفس ، ينزل هذا ، ويصعد هذا ، فلا يلتقيان مع غاية القرب ، ثم جعل له حوايا وطرقًا ، توصله إلى المعدة ، فهي

خزانته وموضع اجتماعه ، فإذا استقر فيها انماع وذاب ، ويحيط بالمعدة من داخلها وخارجها حرارة نارية ، بل ربما زادت على حرارة النار ، ينضج بها الطعام فيها كما ينضج الطعام في القدر بالنار المحيطة به ؛ ولذلك تذيب ما هو مستحجر كالحصى وغيره حتى تتركه مائعًا ، فإذا أذابته علا صفوه إلى فوق ، ورسا كدره إلى أسفل ، ومن المعدة عروق متصلة بسائر البدن ، ينبعث فيها معلوم كل عضو وقوامه ، بحسب استعداده وقبوله ، فيبعث أشرف ما في ذلك وألطفه وأحسنه إلى الأرواح ، فتبعث إلى البصر بصرًا ، وإلى السمع سمعًا ، وإلى الشم شمًا ، وإلى كل حاسة بحسبها ، فهذا ألطف ما يتولد عنه الغذاء ، ثم ينبعث منه إلى الدماغ ما يناسبه في اللطافة والاعتدال ، ثم ينبعث من الباقي إلى الأعضاء في تلك المجاري بحسبها ، وينبعث منه إلى العظام ، والشعور ، والأظفار ، ما يغذيها ويحفظها ، فيكون الغذاء داخلًا للمعدة من طرق ومجار ، هذا وارد إليها ، وهذا صادر عنها ، حكمة بالغة ونعمة سابغة »[1] .

فانظر أيها الإنسان الغافل عن نفسك ، وما يجري فيها ، كم لله من نعمة عليك ، تعجز عن شكر شيء منها ، وصدق الله العظيم : ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾ [الذاريات:٢١] ، فلو قمت الليل كله ، وصمت النهار كله بقلب حاضر ، ولسان لا يفتر عن ذكر الله ، هل أديت شكر هذه

(١) مفتاح دار السعادة ١/ ١٩٥ .

النعمة، أو شكر بعضها ؟ لا والله ، ولكن أيها المؤمن سل ربك التوفيق والإعانة على شكره وذكره وحسن عبادته .

اللهم أعنا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك يا حيّ يا قيّوم .

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

* * *

(٧٩)

إكرام الضيف

إن إكرام الضيف مما أمر به الإسلام ، وحث عليه ، وجعله شعبة من شعب الإيمان ، فقد قال عليه الصلاة والسلام : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه »[1] ولم يكتف بالحث عليه ، وأنه من الإيمان ، حتى جعله واجبًا من واجبات الدين ، فإن قرى الضيف يوم وليلة واجب ؛ ولهذا قال العلماء : إنه لو نزل به الضيف ، ولم يضيفه ، جاز للضيف الأخذ منه بقدر ضيافته ، ولا حرج عليه في ذلك .

وإكرام الضيف من سنن المرسلين ، وأول من سن ذلك خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام ، وهو أبو الأنبياء ، وإمام الحنفاء ، الذي اتخذه الله خليلًا، وجعل في ذريته النبوة والكتاب ، وكان عليه السلام إذا أراد الأكل خرج ميلًا أو ميلين ، يلتمس من يأكل معه ، وهو أول من بنى دارًا للضيافة.

وقد روى العسكر عن ابن عباس رضي الله عنه قال : « إن الله وسع على خليله في المال والخدم ، فاتخذ بيتًا للضيافة له بابان ، يدخل الغريب من أحدهما ، ويخرج من الآخر . وقد أثنى الله عليه بإكرامه لضيوفه في قوله سبحانه :

---

(١) صحيح البخاري ، رقم (٦٠١٨) ؛ صحيح مسلم ، رقم (٤٨) .

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ [الذاريات:٢٤-٢٧] .

قال بعض أهل العلم على هذه الآية : إن الملائكة دخلوا عليه ، ثم سلموا ، مما يدل على أنه كان من كثرة الضيفان يدخلون بدون استئذان ، وهذا غاية ما يكون من الكرم .

ومن كرمه عليه السلام أنه راغ إلى أهله ؛ ليجيء لهم بالطعام ، والروغان هو الذهاب بخفية، بحيث لا يكاد يشعر به ، فيشق على الضيف، ويستحي ، بخلاف من لم يشعر به إلا وقد جاءه بالطعام .

ومنها أنه ذهب إلى أهله في الحال ، وأتى بالضيافة ، مما يدل على استعداده ، وتهيئة الطعام ، ولم يحتج إلى أن يذهب يتطلب ذلك من جهة أخرى ، بل هو مستعد بذلك قبل مجيئهم .

ومنها أنه جاء بعجل سمين ، أي جاء بالطعام بنفسه ، ففيه أنه كان يخدم الضيف بنفسه ، ولم يعتمد في ذلك على خادم أو غيره ، وهذا أبلغ في خدمة الضيف .

ومنها أنه أتى بعجل كامل ، مما يدل على كرمه وسخاء نفسه .

ومنها أن العجل كان سمينًا ، ولم يكن هزيلًا ، ومعلوم أن ذلك من

أفخر أموالهم ، ففيه الإشارة إلى قوله تعالى : ﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ [آل عمران:٩٢] .

ومنها أنه قربه إليهم ، ولم يقربهم إليه ، وهذا أبلغ في الإكرام ، أن يقدم الطعام بين يدي الضيف ، ولا يحوجه إلى الذهاب إلى مكان آخر ؛ ليتناول الطعام .

ثم إن من كرمه تلطفه لهم ، وقال : ألا تأكلون ، وهي ألطف ، وأرق من قوله : كلوا ، أو مدوا أيديكم إلى طعامكم .

فبعض هذه الأوصاف كاف في الدلالة على كرمه ، ومحبته للضيوف ، وقيامه بخدمتهم ؛ ولهذا قال بعض العلماء : من آداب الضيافة أن المضيف يقوم بخدمة ضيوفه ، ويظهر لهم الغنى والبسط بوجهه ، فقد قيل في هذا المعنى :

بشاشة وجه المرء خير من القرى   فكيف بمن يأتي به وهو ضاحك

وهذا البيت قد ضمنه بعض الفضلاء بقوله :

إذا المرء وافى منزلًا منك طالبا   قراك وأرمته إليك المسالك

فكن باسمًا في وجهه متهللا   وقل مرحبًا أهلا ويوم مبارك

وقدم له ما تستطيع من القرى   عجولًا ولا تبخل بما هو هالك

فقد قيل بيتـــا سالـفًا متقــدما　　تداوله زيـد وعمـرو ومـــالك

بشاشة وجه المرء خير من القرى　　فكيف بمن يأتي به وهو ضاحك

وإن مما يستحب لصاحب المنزل إذا قدم طعامه إلى ضيوفه أن يباسطهم بالحديث الطيب ، ويظهر لهم البشر والسرور ، ويأتي لهم بالحكايات اللائقة بالمقام ، ويأكل بالأدب مع أبناء الدنيا ، وبالإيثار مع الفقراء ، وبالانبساط مع الإخوان ، وبالتواضع والتعلم مع العلماء .

قال الإمام أحمد رحمه الله : يأكل بالسرور مع الإخوان ، وبالإيثار مع الفقراء ، وبالمروءة مع أبناء الدنيا، ويستحب له أن يغض طرفه عن جليسه، ويؤثر على نفسه المحتاج[1] ، وإذا كان على رأسه إنسان قائم أمره بالجلوس ، والأولى أن يقدم الطعام للضيف وهو في مكانه ، كما فعل خليل الرحمن ؛ لأن الله يقول : ﴿ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ﴾ [الذاريات:٢٧] ، وإن وضعه في مكان آخر وانتقلوا إليه لمعنى أو مقصد حسن فلا بأس ، كما هو المعتاد الآن في كثير من البلاد .

ويستحب له أن يقدم ما عنده ، ولا يتكلف كثيرًا لضيوفه ؛ لأن مع التكلف قد لا يستمر ، ومع عدم الكلفة قد يستمر على الضيافة ، والاستمرار على القليل خير من الإكثار مع الانقطاع ، ثم إنه قد لا يتيسر له

---

(١) الإقناع في فقه الإمام أحمد ٢/ ٢٣٤ .

كل وقت ما يعتاده من تنوع المأكولات ، وعدم الاقتصاد فيها ، وقد قيل في الضيافة وعدم الإسراف فيها :

قدم طعامك وابذلــه لمن دخــلا واعزم على من أبى واشكر لمن أكلا

ولا تكن سامري العرض محتشما من القليل فلست الـدهر مكتملا

وكانت العرب في الجاهلية والإسلام أكثر من يسوسهم ويقودهم ويعترفون لهم بالسؤدد المعروفون بكرم الضيافة ؛ ولذلك قال النبي الكريم ﷺ لرجل من العرب : « من سيدكم ؟ قال : الجد بن قيس ، إلا أنَّا نبخله ، فقال رسول الله ﷺ : وأي داء أدوى من البخل . بل سيدكم عمرو بن الجموح » رواه البخاري في الأدب المفرد والطبراني وأبو نعيم[1] .

والعرب لم تعد الجود إلا قرى الضيف ، ولا تسمى السخي سخيًا إلا إذا كان فيه كرم الضيافة .

وكان كثير منهم أنه إذا أراد أن يأكل طعامه ، ينتظر لعل الله يأتي له بضيف ، فإذا أيس أكل طعامه .

قال بعض العلماء رحمه الله : ينبغي لك أن تحرص على إكرام الضيف ، ولكن لا ينبغي أن يردك عن بذل الضيافة قلتها ؛ فإن عنصر قرى الضيف

---

(١) الأدب المفرد للبخاري ، رقم (٢٦٩) ؛ المعجم الأوسط للطبراني ، رقم (٣٦٥٠) ؛ حلية الأولياء ٧/ ٢١٧ .

هو ترك استحقار القليل ، وتقديم ما حضر للأضياف ، مع طلاقة الوجه ، وطيب الكلام للضيف ، وخدمته بنفسك ، فإن هذا أبلغ في إكرام الضيف ، من كثرة الطعام ، مع تقطيب الوجه ، ولهذا يقول بعضهم في المعنى :

وإنى لطلق الوجــه للمبتــــغي القرى

وإن فنـــــائي للقـــــرى لرحيــــــب

أضاحــك ضيـفي عنـــد إنزال رحله

فيخصب عنــدي والمحــل جديـــب

وما الخصب للأضياف أن يكـثر القرى

ولكنما وجــه الكريــم خصيـــــب

وقد قال عليه الصلاة والسلام : « يا بني هاشم أطيبوا الكلام ، وأطعموا الطعام » رواه الدولابي[1] .

اللهم وفقنا لمكارم الأخلاق ، وجنبنا سيئها يا رب العالمين .

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

* * *

---

(١) الذرية الطاهرة للدولابي ، رقم (١٦٣) .

ترجمة المؤلف

- هو سماحة الشيخ العلامة أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد العزيز السبيل، من آل غيهب من قبيلة بني زيد من قحطان.
- ولد في مدينة البكيرية بمنطقة القصيم، عام ١٣٤٥هـ.
- أتم حفظ القرآن الكريم كاملاً وعمره أربعة عشر عامًا ، بدأ بعدها بإمامة الناس وطلب العلم على كبار علماء عصره في القصيم ، وفي مكة المكرمة .
- حصل رحمه الله على عدد من الإجازات العلمية من عدد من شيوخه الذين قرأ عليهم في مكة المكرمة ، منها : إجازة في الحديث من الشيخ أبي محمد عبد الحق الهاشمي ، وإجازة في الحديث أيضًا من الشيخ أبي سعيد محمد بن عبد الله نور إلهي ، وإجازة في القرآن الكريم من الشيخ سعدي ياسين عضو رابطة العالم الإسلامي .
- حفظ خلال طلبه للعلم العديد من المتون والمنظومات العلمية ، منها : زاد المستقنع في الفقه ، وعمدة الأحكام ، وبلوغ المرام في أحاديث الأحكام ، والرحبية في الفرائض ، والبيقونية في مصطلح الحديث ، ومنظومة ابن عبد القوي ، ونظم المفردات في الفقه الحنبلي ، وملحة الإعراب ، وألفية ابن مالك في النحو ، وغيرها من المتون والقصائد .

أعماله :

- عمل رحمه الله مدرسًا في أول مدرسة أنشئت في البكيرية، عام

١٣٦٧هـ حتى ١٣٧٣هـ .

- مدرسًا في المعهد العلمي ببريدة منذ افتتاحه عام ١٣٧٣هـ حتى ١٣٨٥هـ .
- إماماً وخطيبًا ومدرسًا في المسجد الحرام من عام ١٣٨٥هـ حتى ١٤٢٩هـ .
- رئيسًا للمدرسين والمراقبين في رئاسة الإشراف الديني على المسجد الحرام عام ١٣٨٥هـ ، ثم عين نائبًا لرئيس الإشراف الديني على المسجد الحرام للشئون الدينية عام ١٣٩٠هـ ، ثم نائبًا عامًا لرئيس الإشراف الديني على المسجد الحرام عام ١٣٩٣هـ واستمر في هذا المنصب بعد التشكيل الجديد للرئاسة عام ١٣٩٧هـ حيث أصبح نائبًا للرئيس العام لشئون الحرمين الشريفين . واستمر في منصبه هذا حتى عين رئيسًا عامًا لشؤون المسجد الحرام والمسجد النبوي عام ١٤١١هـ حتى ١٤٢١هـ.
- عضوًا في هيئة كبار العلماء بالمملكة العربية السعودية من عام ١٤١٣حتى ١٤٢٦هـ
- عضوًا في المجمع الفقهي برابطة العالم الإسلامي منذ تأسيسه عام ١٣٩٨هـ حتى ١٤٣٣هـ.
- رئيسًا للجنة أعلام الحرم المكي الشريف منذ تأسيسها عام ١٤١٢هـ .
- رئيسًا للجمعية الخيرية للمساعدة على الزواج والرعاية الأسرية بمكة المكرمة من عام ١٤٢٢هـ حتى ١٤٣١هـ .
- رئيسًا للجنة الشرعية للمشاعر المقدسة .
- عضوًا في جمعية تحفيظ القرآن الكريم بمكة المكرمة منذ عام ١٣٨٧هـ .

- عضوًا في هيئة التوعية الإسلامية في الحج منذ تأسيسها عام ١٣٩٣هـ.
- كان له عدد من البرامج الإذاعية ، منها : برنامج : (من هدي المصطفى ﷺ) ، وبرنامج : (من مشكاة النبوة) ، وبرنامج : (من منهج التربية الإسلامية) .
- سجلت الإذاعة السعودية معه رحمه الله المصحف كاملاً ، وصار يبث عبر عدد من الإذاعات والقنوات التلفزيونية .
- شارك في برنامج الإفتاء الشهير (نور على الدرب) بطلب من سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله من عام ١٤٢٠هـ حتى ١٤٢٧هـ .
- قام بالعديد من الرحلات الدعوية داخل المملكة ، كما كانت له جولات دعوية خارج المملكة بدأها عام ١٣٩٥هـ لجمهورية غينيا، وآخر رحلاته الدعوية كانت لليابان عام ١٤٢٤هـ ، وقد قام بأكثر من مئة رحلة دعوية زار خلالها أكثر من خمسين دولة من دول العالم.

مؤلفاته:

صنف –رحمه الله – الكثير من الكتب والرسائل العلمية، وقد طبعت بحمد الله وفضله ، وهي :

١ – من منبر المسجد الحرام (أربعة أجزاء).

٢– الإيضاحات الجلية في الكشف عن حال القاديانية.

٣– حد السرقة في الشريعة الإسلامية.

٤– الأدلة الشرعية في بيان حق الراعي والرعية.

٥- حكم التجنس بجنسية دولة غير إسلامية.

٦- حكم الاستعانة بغير المسلمين في الجهاد.

٧-الخط المشير إلى الحجر الأسود في صحن المطاف، ومدى مشروعيته.

٨- رعاية الحرمين الشريفين منذ صدر الإسلام وحتى عهد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز .

٩- رفيق الطريق في الحج والعمرة .

١٠ – الإجازة بأسانيد الرواية .

١١ – نبذة وجيزة عن عمارة الحرمين الشريفين .

١٢ – من هدي المصطفى ﷺ .

١٣ – فتاوى ورسائل مختارة .

١٤ – دعوة المصطفى ﷺ ودلائل نبوته ووجوب محبته ونصرته .

١٥ – المختار من الأدعية والأذكار .

١٦ – شرح بعض مسائل الجاهلية .

١٧ – فضائل الصحابة .

١٨ – فضل الدعوة إلى الله تعالى وصفتها .

١٩ – خطبة الجمعة وأهميتها في الإسلام .

٢٠ – فضل مكة ووجوب الأدب فيها .

٢١ – حكم السعي راكبًا .

٢٢ – من منهج التربية الإسلامية .

٢٣ – مجالس رمضان .

٢٤ – مجالس الحج .

٢٥ – حكم الصلح على أكثر من الدية في قتل العمد .

٢٦ – حكم مشاركة المسلم في الانتخابات مع غير المسلمين .

٢٧ – ديوان شعر.

وفاته :

أصيب رحمه الله بالتهاب رئوي وضعف في القلب دخل على إثره مدينة الملك عبد العزيز الطبية للحرس الوطني بجدة يوم السبت ٥/ ٧/ ١٤٣٣هـ وبقي فيها للعلاج حتى وفاته رحمه الله يوم الاثنين ٤/ ٢/ ١٤٣٤هـ وقد صُلي عليه بعد صلاة العصر في المسجد الحرام يوم الثلاثاء ٥/ ٢/ ١٤٣٤هـ وأمَّ المصلين معالي الشيخ الدكتور صالح بن عبد الله ابن حميد إمام وخطيب المسجد الحرام وعضو هيئة كبار العلماء ، وشيعته جموع غفيرة يتقدمهم العلماء والكبراء من أعضاء هيئة كبار العلماء وأئمة الحرمين الشريفين والقضاة والمشايخ والمسئولين ، وكان يومًا مشهودًا ، وجنازة مهيبة ، وقد نعاه الديوان الملكي ، وعزى الأمة الإسلامية بفقده من منبر المسجد الحرام معالي الشيخ الدكتور عبد الرحمن بن عبد العزيز السديس إمام وخطيب المسجد الحرام، والرئيس العام لشؤون المسجد الحرام والمسجد النبوي، في خطبة الجمعة ٨/ ٢/ ١٤٣٤هـ وصلى عليه المسلمون صلاة الغائب في عدد من دول العالم الإسلامي.

رحمه الله رحمة واسعة، وأسكنه فسيح جناته ، وجعل منزلته في عليين.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

* * *

تم الكتاب

فهرس الموضوعات

رعاية الحرمين الشريفين

منذ صدر الإسلام حتى العهد السعودي

تأليف

محمد بن عبد الله السبيل

(١٣٤٥هـ- ١٤٣٤هـ)

رحمه الله

إمام وخطيب المسجد الحرام

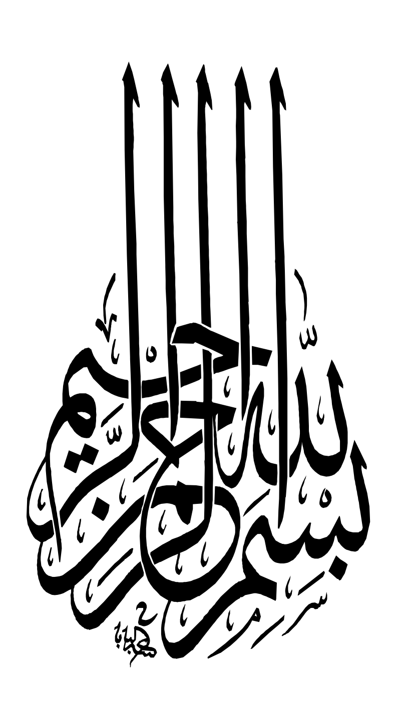
عضو هيئة كبار العلماء

الرئيس العام لشئون المسجد الحرام والمسجد النبوي

محمد عبد الله السبيل ، ١٤٣٥هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
السبيل ، محمد عبد الله
رعاية الحرمين الشريفين في عهد خادم الحرمين الشريفين
مكة المكرمة
١٢٠ ص ؛ ١٧×٢٤ سم
ردمك : ٧-٦٦٢-٣٨-٩٩٦٠
١ - الحرمان الشريفان ٢ - الحرمان الشريفان - توسعة
ديوي ٢١٥.١ ٢١/٤٥١١
رقم الإيداع ٢١/٤٥١١
ردمك : ٧-٦٦٢-٣٨-٩٩٦٠

الطبعة الثالثة

١٤٣٦ – ٢٠١٥م


بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمــة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد :

فإن أفضل البلاد ، وخير البقاع على وجه المعمورة ، بلد الله الحرام ، مكة المكرمة ، مهبط الوحي ، وموطن البعثة المحمدية ، ويليها في الفضل والمكانة ، المدينة المنورة ، مهاجر رسول الله ﷺ ، وعاصمة الدولة الإسلامية الأولى .

فلقد اختصهما الله تعالى بمزيد من الفضل ، وجعل لهما من الحرمة والمكانة ما ليس لغيرهما من سائر البقاع . ولا أدل على ذلك من مضاعفة الصلاة فيها ؛ إذ الصلاة في المسجد الحرام بمائة ألف صلاة فيما سواه ، والصلاة في مسجد رسول الله ﷺ بألف صلاة فيما سواه إلا في المسجد الحرام . كما حرم الإسلام فيهما ما لم يحرمه في غيرهما تشريفًا وتكريمًا لهما .

لذا فلا غرو أن يكون لهاتين المدينتين المقدستين مكانة جليلة في نفوس المسلمين ، تحمل على رعايتهما ، والعناية بهما ، ولاسيما ممن بسط الله تعالى يده وشرفه بالولاية عليهما . فلقد عني الولاة من الخلفاء والسلاطين والملوك والأمراء على مر التاريخ الإسلامي بهاتين المدينتين وساكنيهما ، وحظي المسجدان الشريفان فيهما بالعمارة والتشييد والرعاية على أفضل

صورة ممكنة في كل عصر بما يناسبه بما لم يحظ به سواهما من المساجد .

غير أن ما حصل لهاتين المدينتين المقدستين وساكنيهما ، والمسجدين الشريفين في العهد السعودي قد فاق ما حصل لهما في العصور السابقة ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

وبيانًا لهذه العناية ، وإيضاحًا لهذه الرعاية بهاتين المدينتين المقدستين والحرمين الشريفين ، تم تأليف هذا الكتاب متزامنًا مع المؤتمر العلمي العالمي المنعقد في الرياض عام ١٤١٩هـ بمناسبة مرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية – حرسها الله – .

فآمل أن يكون وافيًا في إعطاء صورة واضحة عن أهم معالم هذه الرعاية المباركة .

سائلًا الله تعالى أن يجعل العمل خالصًا لوجهه الكريم ، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه .

وكتبه

محمد بن عبد الله السبيل

مكة المكرمة – ١٤١٩هـ

تمهيد

في بيان العناية بالحرمين الشريفين

من صدر الإسلام إلى ما قبل العهد السعودي

أولاً : العناية بالمسجد الحرام بناءً وتعميرًا :

لم يكن للمسجد الحرام منذ عهد الخليل عليه السلام، وحتى عهد رسول الله ﷺ ، وعهد أبي بكر رضي الله عنه ، سور يحيط به ، بل كانت الدور تحدق به، وبين الدور طرق تؤدي إلى البيت الحرام من كل ناحية ، ثم تمت الإنشاءات في المسجد الحرام عبر العصور الإسلامية على النحو التالي :

١ – بناء عمر بن الخطاب رضي الله عنه للمسجد الحرام سنة (١٧هـ) :

لما استخلف عمر بن الخطاب رضي الله عنه وكثر الناس ، وضيقوا على الكعبة، وألصقوا دورهم بها ، اشترى ما قرب من البيت من الدور وهدمها ، فأبى بعضهم أن يأخذ الثمن وتمنع من البيع ، فقال عمر رضي الله عنه : إن الكعبة بيت الله، ولابد للبيت من فناء ، وإنكم نزلتم عليها ، ولم تنزل عليكم . فأدخل تلك الدور في المطاف ، وجعل جدارًا قصيرًا دون القامة حوله .

ومن جملة أعمال عمر رضي الله عنه المتعلقة بالمسجد الحرام عمل الردم ، وهو السد العظيم بالمدعى ، بأعلى مكة ، في الجهة الشرقية الشمالية من الكعبة ،

حماية للمسجد الحرام من دخول السيل فيه [١] .

٢ – بناء عثمان ﷺ سنة (٢٦هـ) :

لما كثر عدد السكان والوافدين بمكة وضاق المسجد الحرام على المصلين اشترى عثمان بن عفان ﷺ بعض الدور التي حول المسجد وأدخلها فيه سنة ست وعشرين من الهجرة .

وقال بعض العلماء : إن عثمان ﷺ جعل للمسجد الحرام أروقة فكان أول من اتخذ الأروقة له [٢] .

٣ – بناء عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما سنة (٦٤هـ) :

لما كانت خلافة عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما زاد في المسجد الحرام في سنة أربع وستين ، وخمس وستين ، واشترى دورًا من الناس وأدخلها في المسجد الحرام .

وذكر الأزرقي عن جده عن بعضهم أن ابن الزبير سقف المسجد الحرام ، فلا أدري أكله أم بعضه [٣] .

وذكر العُمري في مسالك الأبصار أن عبد الله بن الزبير زاد في المسجد الحرام زيادة كثيرة ، وجعل فيها عمدًا من رخام [٤] .

---

(١) أخبار مكة للأزرقي (٢/ ٦٨) تاريخ الطبري (٤/ ٢٠٦).
(٢) إعلام الساجد بأحكام المساجد للزركشي ص ٣٩ .
(٣) أخبار مكة للأزرقي (٢ / ٦٩-٧١) .
(٤) نقلاً عن تاريخ المسجد الحرام ص ١٧ لبا سلامة .

٤ – بناء عبد الملك بن مروان سنة (٦٥هـ) :

كان قد تهدم بعض أجزاء المسجد الحرام من حجارة المنجنيق التي رماها الحجاج بن يوسف الثقفي على عبد الله بن الزبير حينما استعصم بالمسجد الحرام ، فقتل ابن الزبير ، وصارت الولاية على مكة لعبد الملك بن مروان ، فبنى ما تهدم من المسجد الحرام ، وجلب إليه السواري في البحر إلى جدة وسقَّفَه بالساج، وعمّره عمارة حسنة [١].

٥ – بناء الوليد بن عبد الملك سنة (٩١هـ) :

قال الأزرقي : عمّر الوليدُ بن عبد الملك بن مروان المسجد الحرام ، وكان إذا عمل المساجد زخرفها، فنقض عمل أبيه عبد الملك ، وعمل عملًا محكمًا بأساطين الرخام ، وسقّفه بالساج ، وجعل على رؤوس الأساطين الذهب ، وأزّر المسجد من داخله بالرخام ، وجعل على وجوه الطيقان الفُسَيفساء وجعل للمسجد شُرُفات[٢] ، وقدر زيادته بالأمتار بـ (٢٨٠٥) مترًا[٣].

٦ – بناء أبي جعفر المنصور سنة (١٣٧- ١٤٠هـ) :

لم يُعمّر المسجد الحرام بعد الوليد بن عبد الملك أحدٌ من الخلفاء ولم يزد فيه شيئًا حتى كان أبو جعفر المنصور، فزاد في شقّه الشامي ، ولم يزد عليه في أعلاه ، ولا في قي شقه الذي يلي الوادي ، وعمل منارة في منتهى

---

(١) نقلًا عن تاريخ المسجد الحرام ص ١٩ ، وسير أعلام النبلاء (٥ / ٨٤) .
(٢) أخبار مكة (٢/ ٧١) .
(٣) قصة التوسعة الكبرى ص (١٩٣) .

زيادته في الركن الغربي. وبناه رواقًا واحدًا بأساطين الرخام ، وقُدرت زيادته بضعف ما كان عليه المسجد قبل زيادته أي (٥٢٢١) مترًا [١] . وزخرف بناءه بالفسيفساء والذهب وزينه بأنواع النقوش [٢].

٧ – بناء وتوسعة المهدي العباسي سنة (١٦٠هـ) :

حج المهدي سنة ستين ومائة فأمر بشراء الدور التي في أعلى المسجد الحرام ، بين المسعى والمسجد من الجانب الشرقي ، وكذلك من الجوانب الأخرى ، وهدمت البيوت ، وحُفرت أساسات قوية في عمق كثير حتى أنبط الماء وبُني لها أرباضٌ بالنورة والجص ، وأمر بجلب أساطين الرخام من الشام ومصر ، ونصبت في الأروقة ، وسقفت الأروقة بخشب الساج .

ثم لما حج المهدي سنة ١٦٤هـ شاهد الكعبة المعظمة بعد التوسعة الأولى له قد صارت إلى الجهة الجنوبية ، حيث لم يتسع المسجد من الجهة الجنوبية كما ينبغي ؛ لأنه كان في هذه الجهة يعترض مجرى السيل الذي وقف في طريق التوسعة من هذا الجانب ، فلم يستطيعوا تربيع المسجد ، فاشتدت رغبته ، وعظمت إرادته في تأخير مجرى السيل عن موضعه ، فاستشار المهندسين فترددوا فيه ؛ لأنه يحتاج إلى هدم بيوت كثيرة ، ونفقات عظيمة ، فقال المهدي : لابد أن أزيد هذه الزيادة ، وطلع المهدي على جبل أبي قبيس، وأمر المهندسين بالذرع والتخطيط حتى تم له ما أراد من تربيع المسجد ، ورأى الكعبة في وسطه حسب رغبته .

---

(١) قصة التوسعة الكبرى ص ٢٧٨ .

(٢) أخبار مكة للأزرقي (٢/ ٧٤) .

فبدأت التوسعة سنة (١٦٧)هـ وتوفى المهدي قبل أن تكتمل ، فأكملها ابنه موسى الهادي سنة ١٦٩-١٧٠هـ ، وكانت توسعة المهدي أعظم توسعة وبناء ، فقد زاد في المسجد (١٢٥١٢) مترًا . وقدر ما أنفق فيه المهدي (٤,٥٧٨,٧٥٠) بأربعة ملايين وخمسمائة وثمانية وسبعين ألفًا وسبعمائة وخمسين دينارًا [1] .

٨ – عمارة المعتمد أبي أحمد جعفر بن المتوكل ما بين سنة (٢٧١- ٢٧٢هـ) :

سببها : أنه كان بجوار باب إبراهيم دارٌ تسمى دار زُبيدة بنت جعفر ابن المنصور ، فسقطت تلك الدار على سطح المسجد الحرام ، فانكسرت أخشابه ، وانهدمت أسطوانتان من أساطين المسجد ، فأمر بعمارة ما تهدم عن طريق أخيه الموفق بالله ، وجهز له مالًا ، فجدد له سقفًا من الساج ، ونقشه بالألوان المزخرفة، وأقام الأسطوانتين ، وركب السقف ، وتم ذلك في سنة (٢٧٢) هـ .

٩ – توسعة وعمارة المعتضد بالله ما بين سنة (٢٨١- ٢٨٤ هـ) :

تمت في عهده زيادة دار الندوة من الجهة الشمالية حيث كانت باقية ينزل فيها الخلفاء ولكنها لما تداعى بنيانها وتهدم أكثرها أمر بإدخالها في المسجد وبنائها على شكل المسجد القائم .

---

(١) تاريخ المسجد الحرام لبا سلامة (٢٨-٥١).

١٠ – توسعة وعمارة الخليفة جعفر المقتدر بالله سنة (٣٠٦هـ) :

وهي زيادة باب إبراهيم ، وكان قبل الزيادة باب متصل بأروقة المسجد بقرب باب الحزْوَرة ، وبقربه باب آخر ، يقال له باب بني جمح ، وخارج هذين البابين ساحة ، فأدخلت هذه الساحة في المسجد الحرام ، وأبطل البابان ، حيث دخلا في المسجد ، وأنشئ بدلهما باب كبير سمي باب إبراهيم .

إلى هنا انتهت العمارة والتوسعة التي حصلت في هذه المدة ، وظل المسجد الحرام قائمًا من وقت عمارة المهدي لم يحصل له تجديد شيء من البناء أو التعمير مدة (٨١٠) سنوات ، وإنما حصل فيه بعض الترميمات والتحسينات ، وفرش للمطاف ، أو بعض الزيادات اليسيرة ، ونحو ذلك مما تم في عهد بعض الخلفاء ، مثل الأمير بَيْسق الظاهري ، والسلطان قايتباي ، والسلطان سليمان خان العثماني .

١١ – عمارة السلطان سليم خان من (٩٧٩- ٩٨٠هـ) :

في سنة ٩٧٩هـ في عهد السلطان سليم بن سليمان خان العثماني ظهر أن الرواق الشرقي مال إلى نحو الكعبة المشرفة ، وفارق خشب السقف موضع تركيبه ، وصار كل علاج وترميم لا يجدي شيئًا ، فرُفع الأمر إلى السلطان سليم رحمه الله سنة ٩٧٩هـ ، فأصدر أمره ببناء المسجد الحرام على أكمل وجه من الإتقان ، وأن يُستبدل عن السقف بقُبب دائرية .

وشُرع في الهدم من جهة باب السلام في منتصف ربيع الأول سنة

٩٨٠هـ ، تلاه البناء والتعمير في ٦ جمادي الأولى سنة ٩٨٠هـ ، واستمر البناء حتى تم الجانبان الشرقي والشمالي ، فلما فرغوا منهما أتي نعْي السلطان سليم خان ، وتولية ابنه السلطان مراد .

١٢ – عمارة السلطان مراد بن سليم خان من سنة(٩٨٠- ٩٨٤هـ).

لما تسلم زمام الحكم السلطان مراد خان أصدر أمره بالاستمرار في العمارة ، وبذل كل جهد في إنجاز البناء والتعمير في أسرع وقت ممكن ، فاستمر العمل ، حتى أتم البناء على الشكل القائم الآن . وهو البناء القديم المحيط بالمطاف المبني بالحجارة ، والمسقف بالقباب ، قد وضعت فيه أعمدة من الرخام ، ومن الحجر المجلوب من الشميسي [١] ، كما أعيدت الأعمدة التي كانت صالحة للاستعمال من عمارة المهدي .

وقد أصبح عدد الأعمدة بعد هذه العمارة (٥٨٩) عمودًا ، وعدد العقود (٨٨١) عقدًا ، وعدد القباب (١٥٢) قبة ، و (٢٣٢) طاجنًا ، وعدد الأبواب (٢٦) بابًا ، وبلغت مساحته (٢٨,٠٠٣) أمتارًا مربعة .

وبلغ ما أنفق في هذه العمارة (١١٠,٠٠٠) دينار أي (٥٥٠٠٠) جنيه تقريبًا ومائة ألف من الذهب الإبريز ، وذلك عدا ما وصل من مصر من مواد البناء مثل الخشب والحديد ، وأهلة القباب المطلية بالذهب ، والمساحي والمكاتل والمجارف والمسامير [٢] .

---

(١) موضع على حدود الحرم من طريق جدة وهو المعروف بالحديبية .
(٢) ينظر : الإعلام لقطب الدين الحنفي من ص ٢٦٤-٢٩٥ ، ومرآة الحرمين لرفع باشا (١/ ٢٤٠) وعنهما في تاريخ المسجد الحرام لبا سلامة ص ٨٢ وما بعدها ، وقصة التوسعة الكبرى ص ١٩٥.

وقد حصلت بعد عمارة السلطان مراد عدة ترميمات في مباني المسجد الحرام ، ذكرها التقي الفاسي في كتابه « شفاء الغرام » ، ونجم الدين بن فهد في كتابه «إتحاف الورى» ، وقطب الدين الحنفي في كتابه « الإعلام » [1] ، وغيرهم ممن عاصر الأحداث والأعمال وكتبوا عنها .

* * *

(١) ينظر : شفاء الغرام (١/ ٢٢٤) وما بعدها ، وإتحاف الورى حوادث السنين المختلفة .

ثانيًا : العناية بالمسجد النبوي الشريف بناء وتعميرًا:

لما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة مكث في قباء قبل دخوله المدينة أيامًا وبنى فيها مسجدًا .

ولما دخل المدينة بركت راحلته في موضع مسجده الشريف ، وكان مربدًا لبعض الأيتام فاشتراه النبي ﷺ وبنى فيه مسجدًا [١] .

ثم زاد فيه ﷺ في حياته الشريفة كما يدل عليه حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه وقوله : أنشد بالله من شهد رسول الله ﷺ قال : « من يوسع لنا هذا البيت في المسجد ببيت له في الجنة » فابتعتُه من مالي فوسعت به المسجد [٢] .

وكانت صفة بنائه ﷺ على ما روى البخاري : عن عبد الله بن عمر أن المسجد كان على عهد رسول الله ﷺ مبنيًا باللبن وسقفه بالجريد ، وعمده خشب النخل ، فلم يزد فيه أبو بكر شيئًا ، وزاد فيه عمر ، وبناه على بنيانه في عهد رسول الله ﷺ باللبن والجريد ، أعاد عمده خشبًا ، ثم غيره عثمان، فزاد فيه زيادة كبيرة ، وبنى جداره بالحجارة المنقوشة ، والقصة ، وجعل عمده من حجارة منقوشة وسقفه بالساج» [٣] .كما سيأتي بيان ذلك في بناء عمر وعثمان رضي الله عنهما .

بناء عمر وتوسعته في سنة (١٧هـ) :

وسببه كثرة الناس وضيق المسجد عليهم . فاشترى عمر رضي الله عنه ما حول

---

(١) ينظر: صحيح البخاري (٧/ ٣٣٩-٣٤٠) حديث النبي ﷺ الطويل .
(٢) فضائل الصحابة للإمام أحمد (١ / ٤٩٥) رقم (٨٠٥) .
(٣) صحيح البخاري (١ / ٥٤٠) كتاب الصلاة باب بنيان المسجد .

المسجد من الدور ، وأدخلها في المسجد ، قال الإمام البخاري في صحيحه: « وأمر عمر ببناء المسجد ، وقال للبَنَّاء : أكن الناس من المطر ، وإياك أن تحمر أو تصفر ، فتفتن الناس »[(١)].

وصفة بنائه كما تقدم في رواية البخاري أي من اللبن والجريد والخشب، وقُدّرت زيادة عمر ﵁ بـ (١١,٠٠٠) أحد عشر ألف متر مربع.

بناء وتوسعة عثمان بن عفان ﵁ سنة (٢٩- ٣٠) هـ :

وصفة بناء عثمان ﵁ كما تقدم في رواية البخاري ، « ثم غيره عثمان فزاد فيه زيادة كبيرة ، وبنى جداره بالحجارة المنقوشة والقصة ، وجعل عُمده من حجارة منقوشة وسقفه بالساج » .

وعند أبي داود عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : «إن مسجد النبي ﷺ كانت سواريه على عهد رسول الله ﷺ من جذوع النخل أعلاه مظلل بجريد النخل، ثم إنها نخرت في خلافة أبي بكر ﵁ فبناها بجذوع النخل وبجريد النخل، ثم إنها نخرت في خلافة عثمان فبناها بالآجر، فلم تزل ثابتة الآن»[(٢)].

وفي صحيح مسلم : عن محمود بن لبيد أن عثمان بن عفان ﵁ أراد بناء المسجد ، فكره الناس ذلك ، وأحبوا أن يدعه على هيئته ، فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من بنى مسجدًا لله ، بنى الله له في الجنة

---

(١) صحيح البخاري (١ / ٥٣٩) كتاب الصلاة ، باب بنيان المسجد .
(٢) سنن أبي داود (١ / ١٢٣) كتاب الصلاة ، باب في بناء المسجد .

مثله» [(١)].

وقدرت زيادة عثمان ﷺ بـ (٤٩٦) مترًا مربعًا .

بناء وتوسعة الوليد بن عبد الملك سنة (٨٨- ٩١هـ) :

لما كثر الناس في عهده بالمدينة وضاق المسجد على المسلمين –حتى إنهم كانوا يصلون يوم الجمعة في حجرات أمهات المؤمنين رضي الله عنهن بعد وفاتهن– رأى الحاجة إلى توسعة المسجد ، فأدخل دورًا في المسجد حتى حجرات أزواج النبي ﷺ [(٢)].

وذكر بعض المؤرخين أن الوليد بن عبد الملك جعل للمسجد عشرين بابًا [(٣)].

وذكر السمْهوري أنه بنى أساس المسجد بالحجارة ، وكذلك الجدران، بالحجارة المطابقة (المنقوشة) ، والقصة، وجعل عمده من حجارة حشوها من الحديد والرصاص ، وعمله بالفسيفساء والمرمر، وعمل سقفه بالساج، وماء الذهب [(٤)]. وقدرت زيادته بـ (٢,٣٦٩) مترًا مربعًا .

بناء وتوسعة الخليفة المهدي سنة (١٦١- ١٦٥ هـ) :

لما حج المهدي سنة (١٦٠هـ) رأى الحاجة إلى بناء المسجد الشريف،

---

(١) صحيح مسلم (١/ ٣٧٨) كتاب المساجد ومواضع الصلاة باب فضل بناء المساجد والحث عليها .
(٢) وفاء الوفاء (٢/ ٥١٧) .
(٣) وفاء الوفاء (٢/ ٦٨٦) نقلًا عن ابن النجار .
(٤) وفاء الوفاء (٢/ ٥١٩) .

فأمر ببنائه وتوسعته .

وكانت توسعته من الجهة الشمالية فقط بإدخال عدة دور فيه ، ولم يزد في الجهات الثلاث شيئًا . ونقشه وزخرفه بالفسيفساء [١] . وعمل له (٢٤) بابًا [٢] ، وقدرت زيادته بـ ٢٤٥٠ مترًا مربعًا .

وبعد بناء وتوسعة المهدي لم يُبْن المسجد ، ولم يوسع فيه إلى سنة (٦٥٤) هـ ، وإنما حصلت إصلاحات وترميمات فقط .

بناء الخليفة المستعصم بالله سنة (٦٥٥) هـ :

شب حريق في مسجد النبي ﷺ في ليلة الجمعة ، أول شهر رمضان من سنة (٦٥٤) هـ ، ولم تبق ناحية إلا وصلت النار إليها ، واحترق جميع المسجد ، حتى لم تبق خشبة واحدة سالمة ، غير أنه قيل: قد سلمت القبة التي أحدثت لحفظ ذخائر الحرم ، مثل المصحف العثماني ، وبعض الصناديق الكبار .

فلما وصل خبر الحريق الخليفة المستعصم بالله ، أرسل الآلات والصناع مع ركب العراق في الموسم ، وابتدئ بالعمارة أول سنة (٦٥٥هـ)[٣] .

إلا أنها لم تتم بسبب غزو التتار واستيلائهم على بغداد ، فتناصر ملوك وسلاطين المسلمين الملك نور الدين علي بن عز الدين أيبك

---

(١) وفاء الوفاء (٢/ ٥٣٦) وما بعد ها .
(٢) المسجد النبوي عبر التاريخ ص ١٣٥ .
(٣) وفاء الوفاء (٢/ ٦٩٩-٧٠١) .

الصالحي، والملك الظاهر بيبرس، والملك المظفر سيف الدين قطز من ملوك مصر ، والملك المظفر يوسف بن منصور ، وعمر بن رسول صاحب اليمن وجَدُّوا في تعمير المسجد حتى تم بناؤه [(١)] .

توسعة الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٢٩هـ :

ذكر السمهودي أنه في سنة تسع وعشرين وسبعمائة أمر السلطان الملك الناصر محمد بزيادة رواقين في السقف القبلي متصلين بمؤخّره فاتسع سقفه بهما وعم نفعهما [(٢)] .

بناء وتوسعة الملك الأشرف قايتباي :

في سنة ٨٨٦هـ شب حريق ثان في المسجد النبوي بسبب صاعقة سقطت بالمنارة الشرقية الشمالية ، فأصابت هلال المنارة ، فسقط في المسجد وله لهب كالنار ، فعلقت النار في سقف المسجد ، وغلبت على أهل النجدة الذين اجتمعوا للإطفاء ، وعم الحريق المسجد ، ولم يسلم من الاحتراق إلا جزء قليل منه . وسقطت عقود المسجد ، وما بقي آيل إلى السقوط .

ولما علم الملك الأشرف قايتباي بخبر حريق المسجد ، عظم ذلك عليه ، وأصدر أمره بتعمير المسجد الشريف ، وأرسل الأمير سنقر الجمالي ومعه البناؤون والنجارون والنشارون والدهانون وغيرهم ومواد البناء اللازمة ، وبدأوا بعمل البناء والتعمير ، فأعادوا المنارة الرئيسية ، وسور المسجد، وزادوا في عرضه يسيرًا، ووسعوا المحراب العثماني، وسقفوا مقدم

(١) وفاء الوفاء (٢/ ٦٠٤-٦٠٥) .
(٢) وفاء الوفاء (٢/ ٦٠٥) .

المسجد سقفًا واحدًا ، وأقاموا العقود فوق الأساطين حتى أكملوا البناء[١] .

وبلغ عدد الأعمدة في هذه العمارة (٢٩٦) عمودًا ، وقدرت توسعته بـ (١٢٠) مترًا مربعًا .

بناء وتوسعة السلطان عبد المجيد العثماني (١٢٦٥- ١٢٧٧هـ) :

بقيت عمارة الملك الأشرف قايتباي (٣٨٧) سنة ، أجريت خلالها ترميمات وإصلاحات ، ولما مضى على العمارة السابقة ما يقارب أربعمائة سنة سرى الخراب والضعف إلى بعض سقوفه وأعمدته ، وأصبح الترميم لا يُجدي شيئًا كثيرًا ، فأمر السلطان عبد المجيد بعمارة المسجد فشرعوا في هدم المسجد جزءًا جزءًا، وجهة جهة، حتى لا يتعطل الناس عن الصلاة ، وكلما نقضوا جزءًا قديمًا ، بنوه جديدًا ، حتى أتموا العمارة في اثنتي عشرة سنة .

وفي هذه العمارة توسط المسجد صحن يحيط به من جهة القبلة اثنا عشر رواقًا (وهو القائم حاليا) ، وبالجهة الغربية ثلاثة أروقة ، وفي كل من الجهة الشرقية والجهة الشمالية رواقان .

وقدرت زيادة السلطان عبد المجيد بـ (١،٢٩٣) مترًا مربعًا[٢] .

* * *

(١) ينظر : تفصيل البناء في وفاء الوفاء (٢/ ٦٤٠) وما بعدها .
(٢) ينظر : مرآة الحرمين (١/ ٤٦٧-٤٦٨) ، وقصة التوسعة الكبرى ص ٢١٢ .

الباب الأول
العناية بالمسجد الحرام
في العهد السعودي

ويشتمل على خمسة فصول :

الفصل الأول : عناية الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود رحمه الله بالمسجد الحرام .

الفصل الثاني : عناية الملك سعود بن عبد العزيز آل سعود رحمه الله بالمسجد الحرام .

الفصل الثالث : عناية الملك فيصل بن عبد العزيز آل سعود رحمه الله بالمسجد الحرام.

الفصل الرابع : عناية الملك خالد بن عبد العزيز آل سعود رحمه الله بالمسجد الحرام .

الفصل الخامس : مساحة المسجد الحرام بعد التوسعة السعودية الأولى

الباب الأول

العناية بالمسجد الحرام في العهد السعودي

الفصل الأول

عناية الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود رحمه الله بالمسجد الحرام

منذ أن تشرف الملك عبد العزيز - رحمه الله - بالولاية على الحرمين الشريفين أولى عناية خاصة بالمسجدين، ترميمًا وتعميرًا ، وتنظيمًا لأمورهما وترتيبًا .

ففي سنة ١٣٤٤هـ أمر بترميم المسجد الحرام مما يحتاج إلى ذلك من الجدران والأعمدة والمطاف والمشايات المؤدية إليه ، وعموم أساطين المطاف ، التي تُعلق عليها القناديل ، وعموم الأبواب ، وبطلاء مقام إبراهيم عليه السلام بالدهن الأخضر[1] .

ومن أعماله الجليلة : جمع المصلين في المسجد الحرام خلف إمام واحد في سنة ١٣٤٥هـ حيث كان الناس يصلون في مقامات أربعة ، ولكل مقام إمام من المذاهب الأربعة ، فكانت تقام في كل صلاة أربع جماعات ،

(١) تاريخ عمارة المسجد الحرام ص ٢٨٢ .

تبعًا لهذه المقامات ، فرد الأمر إلى إمامة إمام واحد ، لجميع المصلين ، توحيدًا لكلمة المسلمين ، وجمعًا لقلوبهم [1]، ثم لما وُسّع صحن المطاف هدمت المقامات ، وأزيلت تمامًا .

وفي أوائل سنة ١٣٤٦هـ أمر بإصلاح آخر للمسجد الحرام ، فرُمّم عموم فرش الأروقة من جهاته الأربعة ، وفرش عموم المماشي ، وغير بلاطات الأبواب ، والجدران داخلًا وخارجًا ، وأصلح كل خراب واقع في أبواب المسجد الخشبية ، وطُلي كل ما كان مطليًا بأنواع الأصبغة ، ومُسح عموم أسطوانات الرخام ، وأصلحت مظلة مقام إبراهيم عليه السلام ، وقبة زمزم ، وأصلح شاذروان الكعبة المعظمة ، وفرش أفنية المسجد بالحصباء الجديدة ، واستمر العمل سنة كاملة ، وصرف عليه ما يربو على ألفي جنية ذهبًا .

ومن أعماله الجليلة : عمل المظلات في المسجد الحرام :

لما كثر ورود الحجاج في سنة ١٣٤٥هـ كثرة هائلة حتى ضاق المسجد بالحجاج والمصلين ، وضعت الحكومة سرادقات في صحن المسجد ليجد المصلون مكانًا مظللا يتوقون به من حرّ الشمس .

ثم في سنة ١٣٤٦هـ أصدر الملك عبد العزيز رحمه الله أمره بعمل مظلات قوية ثابتة على حاشية صحن المطاف ، فعملت من الخشب الجاوي، وكسي بالقماش الثخين الأبيض . وقد حصلت بهذه المظلات

---

(١) جريدة أم القرى العدد (١٠٥) ١١ جمادى الثانية سنة ١٣٤٥هـ .

منفعة عظيمة للحجاج والمصلين ، وأنفق عليها مبلغ كبير [١] .

ثم عُملت مظلات ثابتة في أطراف الصحن مثبتة بالأروقة تفتح وتغلق فكانت تنشر إذا انتشر حر الشمس ، وإذا انحسر الظل أغلقت وبقيت سنوات طويلة تجدد عند الحاجة [٢] .

ومن أعمال الملك عبد العزيز رحمه الله في المسجد الحرام تبليط المسعى وتوسيعه في سنة (١٣٤٥- ١٣٤٦)هـ :

كان المسعى على مر العصور غير مبلط ، وكان الغبار يكاد يخنق الساعين ، ولاسيما أيام المواسم ، فأمر الملك عبد العزيز رحمه الله بتبليطه ، ولكن سبق ذلك إزالة النواتئ من الدكاكين التي طغت على شارع المسعى، ووضع حجر أساسه نائب الملك عبد العزيز في الحجاز الأمير فيصل بن عبد العزيز رحمه الله في يوم ٢١ جمادى الثانية، سنة ١٣٤٥هـ ، وتم رصف المسعى في أواخر ذي القعدة ، فصار بذلك في غاية الاستقامة ، وحسن المنظر ، وصار فيه راحة كبيرة للحجاج والمعتمرين . [٣]

ومن أعمال الملك عبد العزيز رحمه الله في المسجد الحرام :

أنه أمر أن يعمل سبيلان لماء زمزم، أحدهما في الجهة الشرقية من باب قبة زمزم، والآخر بجوار حجرة الأغوات من الجهة الجنوبية لبيت زمزم، بجانب السبيل القديم المعمول في زمن سلاطين آل عثمان ، وأن تجدد عمارة

---

(١) تاريخ المسجد الحرام لبا سلامة ص (٢٨٩-٢٩٠) .
(٢) ينظر : جريدة أم القرى العدد ١٣١٤ في ١٦ شعبان ١٣٦٩هـ
(٣) جريدة أم القرى العدد (١٠٧) ٢٥ جمادى الثانية ١٣٤٥هـ

السبيل القديم ، فتم إنشاؤهما وتجديد السبيل القديم سقاية لشرب زمزم ، وقد صرف على العمل فيهما ما يربو على ثلاثمائة جنيه ذهبًا [(١)] .

ومن أعمال الملك عبد العزيز رحمه الله :

أنه أمر بتأسيس وبناء أول مصنع لكسوة الكعبة المشرفة بمكة في أوائل سنة ١٣٤٦هـ ، وتم بناؤه في خلال ستة أشهر ، وأنتج أول ثوب للكعبة في السنة نفسها [(٢)] .

ومن جملة أعمال الملك عبد العزيز رحمه الله لصالح المسجد الحرام :

أمره بدراسة أحوال المسجد الحرام الإدارية من قبل الجمعية العمومية التي كونها الملك عبد العزيز من أهل مكة ، فقدمت الجمعية تقريرها بعد الدراسة الوافية في سنة ١٣٤٦هـ ، فوافق عليه حرصًا على تنظيم العمل في المسجد الحرام [(٣)] .

ومن أعمال الملك عبد العزيز رحمه الله في المسجد الحرام :

أنه أشار إلى سمو نائبه في الحجاز الأمير فيصل – رحمه الله – بالكشف على عموم ما يلزم للمسجد الحرام من عمارة وإصلاح وتجديد، فشكلت لذلك لجنة قامت بالكشف ، بحضور مهندس من أمانة العاصمة، ومعاونة كبار المعلمين والنجارين ، وقرروا إصلاح الحجر المفروش على

---

(١) تاريخ المسجد الحرام لبا سلامة ص (١٨٣-١٨٤) .
(٢) تاريخ الكعبة المعظمة ص ٢٦٥ وما بعدها .
(٣) ينظر: جريدة أم القرى العدد ١٤١ ، ٢٨ صفر ١٣٤٦ هـ .

مدار المطاف ، وإصلاح أرض الأروقة ، ونقض جميع الجدران المسبخة، وإصلاحها ، وترخيم عموم المسجد ، وترميم الشقوق في بعض القباب ، وتجديد الأصبغة والألوان في أطراف المسجد وداخله ، وإصلاح باب بني شيبة ، وإصلاح عموم الأبواب بالخشب الجاوي ، وإزالة كل ما بها من عطب وخراب ، وإزالة الحصباء القديمة ، واستبدالها بحصباء جديدة ، وبدئ بالعمل في ١٩ رمضان ١٣٥٤هـ ، واستمر بهمّة ، ونشاط وتم على خير ما يرام [1] .

ومن الأعمال التي تمت في عهد الملك عبد العزيز رحمه الله :

إزالة المقاهي : كانت المقاهي تنتشر عند أبواب المسجد الحرام فرأى رحمه الله أن بقاءها في أماكنها لا يتفق وحرمة المسجد الحرام ، فأمر بإزالتها فأزيلت [2] .

ومن جملة أعمال الملك عبد العزيز رحمه الله :

تجديد سقيفة المسعى ، حيث كان المسعى غير مسقوف على مدى القرون الطويلة ، وأول من سقفه هو الشريف حسين بن علي في سنة ١٣٤١هـ ، وكانت قد تقادمت وتلف معظمها ، فأمر الملك عبد العزيز بتجديد تلك السقيفة بطريقة فنية محكمة ، وتم عملها في سنة (١٣٦٦هـ)[3]

ومن أهم أعماله رحمه الله : أنه أمر بصنع باب جديد للكعبة

---

(١) تاريخ المسجد الحرام لبا سلامة ص ٢٨٥-٢٨٦.
(٢) جريدة أم القرى العدد (٧٤٠) ٢٨ ذي الحجة (١٣٥٧هـ) .
(٣) التاريخ القويم (٥/ ٣٥٦) .

المشرفة ، حيث كان الباب القديم الذي صنع ورُكب في عهد السلطان مراد خان في سنة ١٠٤٥هـ ، ورمم وأصلح في عهد السلطان أحمد خان في سنة ١١١٩هـ ، هو الباب الذي بقي على الكعبة المشرفة إلى سنة ١٣٦٦هـ ، قد أخذ في التضعضع بسبب تقادم العهد ، فأمر أن يُصنع باب جديد للكعبة المشرفة ، فصُنع بصورة بديعة لم يسبق له مثيل في تاريخ صناعة باب الكعبة، مغطى بصفائح من خالص الفضة ، محلاة بآيات قرآنية ، بأحرف ونقوش من خالص الذهب ، ورُكب هذا الباب عشية يوم الخميس ١٥ ذي الحجة سنة ١٣٦٦هـ [(١)] .

ومن الأعمال التي تمت في عهد الملك عبد العزيز رحمه الله :

ترخيم الواجهات المطلة على المسجد الحرام ورحباته ترخيمًا كاملًا ، وذلك في سنة ١٣٧٠ هـ [(٢)] .

ومن أعماله رحمه الله :

إصلاح عضادتي باب الكعبة ، وقد تم هذا الإصلاح بصورة فنية جميلة ، حيث عُملت هذه الجوانب من الفضة الخالصة ، الموشّاة بالذهب ، والمزركشة بالزخرف الجميل [(٣)] .

ومن أهم أعماله رحمه الله :

أنه لما رأى ضيقًا شديدًا على المصلين والحجاج الذين كثر ورودهم عامًا بعد عام أمر بإجراء الدراسات ووضع التصاميم لتوسعة المسجد

---

(١) جريدة أم القرى العدد (١١٨٢) في ذي الحجة (١٣٦٦هـ) .
(٢) جريدة أم القرى العدد (١٣٦٣) ١١ شعبان (١٣٧٠هـ).
(٣) مجلة الحج العدد (٦) ذي الحجة (١٣٧٠هـ) .

الحرام والمسجد النبوي أيضًا ، فوضعت التصميمات أولًا للمسجد النبوي الشريف ، وشرع في بنائه ، ويأتي ذكره إن شاء الله، وبدئ في وضع التصاميم الأولى في عهد الملك عبد العزيز لتوسعة المسجد الحرام ، وتمت التصاميم في أوائل عام ١٣٧٥هـ بعد وفاته في عهد الملك سعود رحمه الله[١] .

* * *

(١) تقرير وزارة المالية إعداد اتحاد المهندسين (٢/ ٢٧) .

الفصل الثاني

عناية الملك سعود بن عبد العزيز آل سعود رحمه الله بالمسجد الحرام

تولى أمر البلاد الملك سعود بن عبد العزيز رحمه الله في عام (١٣٧٣هـ) ونهج في البناء والتعمير منهج أبيه الإمام الملك عبد العزيز رحمه الله .

ومن أعمال الملك سعود في المسجد الحرام :

أنه أمر برفع الأذان الأول قبل دخول وقت الفجر ، وكان قد ترك العمل به منذ مدة طويلة [(١)] .

ومن أعماله رحمه الله في سنة ١٣٧٥هـ :

أنه أمر بصرف مرور الناس والسيارات عن طريق المسعى ، يث كان الناس يسعون والسيارات تخترق المسعى ، فأمر بفتح شارع وراء الصفا سمي بشارع الملك سعود ، وبذلك أراح الساعين من ازدحام المارة ومرور السيارات ، التي كانت تسبب لهم الإزعاج والنصب والمشقة [(٢)] .

ومن أعماله رحمه الله :

أنه جدد سلم الكعبة المشرفة الذي يصعد عليه الناس للدخول إلى الكعبة ، وقد تم صنعه بطريقة فنية عربية ، وغلف بالفضة ، وطعم بنقوش

(١) مجلة الحج ١٦ محرم (١٣٧٥هـ) .
(٢) جريدة أم القرى العدد (١٦٢٢) ١٠ ذي الحجة (١٣٧٥هـ) .

عربية ذهبية [1] .

ومن الأعمال الجليلة للملك سعود رحمه الله :

أنه أمر بترميم وإصلاح الكعبة المشرفة حيث إنه كان قد أصاب سقف الكعبة وبعض جوانب جدرانها خلل ، فأزيل السقف الأعلى ، وعمل سقف جديد بدلًا عنه ، وأبقى السقف الأسفل بعد الترميم ، وغيرت الأخشاب التالفة منه ، وعملت ميْدة بين السقفين تحيط بالجدران ، ورممت الكسوة الرخامية التي على الجدران من الداخل ، وتم العمل على خير ما يرجوه المسلمون في شعبان سنة (١٣٧٧هـ) [2] .

ومن أهم أعماله : توسعة المسجد الحرام :

ذكرنا فيما سبق أنه لما رأى الملك عبد العزيز رحمه الله ضيقًا شديدًا على المصلين والحجاج في المسجد الحرام والمسجد النبوي أمر بإجراء الدراسات ووضع التصميمات لتوسعة المسجدين،فوضعت التصميمات أولًا للمسجد النبوي الشريف ، وشرع في البناء ، ويأتي ذكره إن شاء الله .

كما أنه قد تمت التصميمات الأساسية لتوسعة المسجد الحرام التي أمر بها الملك عبد العزيز في أوائل عام ١٣٧٥هـ أي في عهد الملك سعود بن عبد العزيز رحمه الله .

وكان تصميم المسجد الحرام في أول أمره من قبل جميع المهندسين

(١) جريدة أم القرى العدد (١٦٧٣) ٧ ذي الحجة سنة (١٣٧٦هـ) .
(٢) تاريخ الكعبة المشرفة لبا سلامة ص (١٢٧-١٢٨) .

مبنيًا على أن يزال المبنى العثماني نهائيًا بعد البناء الجديد ، وإنما يترك لأداء الصلوات ريثما يتم بناء النصف الخارجي من المبنى الجديد ، وبعد تمام بناء هذا الجزء يهدم المبنى العثماني لإقامة النصف الداخلي من المبنى الجديد ، ثم أدخل تعديل كبير في التصميم والتخطيط وذلك حوالي عام (١٣٨٧هـ) كما يأتي ذكره .

وبعد انتهاء أعمال توسعة المسجد النبوي الشريف أمر الملك سعود بن عبد العزيز رحمه الله بالشروع في توسعة المسجد الحرام تنفيذًا لأمر الملك عبد العزيز رحمه الله كما سبقت الإشارة إلى ذلك ، وعُينت هيئة عليا برئاسة ولي العهد سمو الأمير فيصل بن عبد العزيز رحمه الله للإشراف على التوسعة ، وأنشئ مكتب الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل لتوسعة المسجد الحرام ، ونُزعت ملكيات الدور والعقارات الواقعة في أرض التوسعة بعد تقدير أثمانها وتعويض أصحابها .

وفي يوم (٤) ربيع الثاني عام (١٣٧٥هـ) بُدئ بأعمال التوسعة بإزالة المرافق القائمة في منطقتي أجياد والمسعى ، وهدمت الدور والدكاكين المحتاج إلى هدمها ، واستمر العمل على أربع مراحل ، ببناء ثلاثة طوابق ، الأقبية (البدرومات) ، والطابق الأرضي ، والطابق الأول ، حتى تمت التوسعة السعودية الأولى في الصورة القائمة الآن في غاية المتانة والقوة والجمال .

وتضمنت هذه التوسعة بناء المسعى بطابقيه ، وتوسعة المطاف بجعل بئر زمزم في القبو توسعة للمطاف ، وتحسين مبنى زمزم في القبو ، وتركيب

الصنابير ، وبناء مجرى للماء المستعمل ، وكذلك شملت التوسعة إزالة مبان من صحن المسجد ، كانت تعوق المصلين والطائفين ، مثل مظلة زمزم ، وباب بني شيبة ، والمقامات الأربعة ، وكذلك شملت تحويل مجرى مياه الأمطار بين جبل الصفا والمبنى العثماني ، وتحويل الطريق من المسعى إلى شارع الملك سعود بن عبد العزيز الذي أحدث في التوسعة ، وتحسين الخدمات الداخلية ، مثل توفير مياه الشرب والإنارة .

كما حصل إحداث الميادين ، والشوارع الفسيحة ، ومواقف للسيارات ، ودورات للمياه ، ومواضع للوضوء قريبة من المسجد الحرام في جميع جهاته ، على أحدث نظام عُرف في ذلك الوقت ، بصورة أوسع بكثير مما كان في السابق .

* * *

الفصل الثالث

عناية الملك فيصل بن عبد العزيز آل سعود رحمه الله بالمسجد الحرام

تولى الملك فيصل بن عبد العزيز رحمه الله حكم البلاد في سنة ١٣٨٤هـ .

ومن أعماله : إتمام التوسعة الأولى :

وذلك أنه لما تسلم زمام الحكم في البلاد دعا لعقد مؤتمر لمشاهير المهندسين المسلمين في البلاد العربية وغيرها للنظر في تطوير التصميم الأول . وقد أوصى المؤتمر بإزالة المبنى العثماني ، ولكنه رحمه الله رأى الاحتفاظ به ، وأن يتم عمل تصميم العمارة الجديدة بأفضل أساليب الدمج بينها وبين المبنى القديم مهما كلف الأمر من النفقات ، فأجريت ترميمات وإصلاحات كبيرة في المبنى القديم ، وهدم الجدار الخارجي منه ، وأضيف جناحان في الجهتين الجنوبية والشمالية لربط المبنى الجديد بالمبنى القديم [١] .

ومن أهم ما حصل من الأعمال في المسجد الحرام في عهد الملك فيصل رحمه الله :

أنه كان هناك آراء بنقل مقام إبراهيم عليه السلام إلى الخلف ، ليحصل بذلك توسعة على الطائفين ، وكانت هناك آراء مخالفة لهذا الرأي ، فأحيلت المسألة إلى مجلس رابطة العالم الإسلامي ، وفي عام ١٣٨٧هـ صدر

---

(١) تقرير وزارة المالية (٢/ ٢٨و١٣٩).

بيان من رابطة العالم الإسلامي تقرر بموجبه إزالة البناء القديم على مقام إبراهيم عليه السلام ، وجعل المقام في غطاء زجاجي .

وبعده أزيل البناء القائم على مقام إبراهيم ، ووضع المقام في غطاء بلوري ، وأزاح الستار عنه الملك فيصل بن عبد العزيز رحمه الله بعد عصر يوم السبت ١٨ رجب ١٣٨٧هـ [1] .

ومما حصل في عهده :

أنه أمر ببناء مصنع كسوة الكعبة في موقعه الجديد بأم الجود وتوسيع أعماله ، ووضع حجر الأساس خادم الحرمين الشريفين الملك فهد (النائب الثاني آنذاك) في عام (١٣٩٢هـ) [2] .

* * *

---

(١) مجلة الحج العدد (١) السنة (٢٢) ٢٠ رجب ١٣٨٧هـ وتقرير وزارة المالية (٢/ ٧٨-٧٩)
(٢) قصة التوسعة الكبرى ص ١٢٢ .

الفصل الرابع

عناية الملك خالد بن عبد العزيز آل سعود رحمه الله بالمسجد الحرام

من أعمال الملك خالد رحمه الله في المسجد الحرام :

إتمام ما تبقي من عمارة وتوسعة المسجد الحرام في ٧ رجب عام (١٣٩٦هـ)[1] .

ومما تم في عهده رحمه الله :

افتتاح مصنع كسوة الكعبة المشرفة بأم الجود بعد تمام بنائه وتأثيثه في ٧ ربيع الثاني سنة (١٣٩٧هـ) من قبل الأمير فهد بن عبد العزيز عند ما كان وليًا للعهد نيابة عن الملك خالد بن عبد العزيز آل سعود رحمه الله .

ومن الأعمال المهمة التي حصلت في المسجد الحرام في عهد الملك خالد رحمه الله :

توسيع المطاف بشكله الحالي توسعة أكبر مما سبق وذلك في سنة (١٣٩٨هـ) ، وشملت هذه التوسعة إلغاء الحصاوي والمشايات التي كانت في المسجد ، ونقل المنبر والمكبرية ، وتوسيع قبو زمزم ، وجُعل مدخله قريبًا من حافة المسجد القديم في جهة المسعى ، وجعل فيه قسمان : قسم للرجال، وقسم للنساء ، وركبت صنابير لشرب الماء البارد ، وجعل للبئر حاجز

---

(١) ينظر : تقرير وزارة المالية (٢/ ٧٧) .

زجاجي ، وبلطت أرض المطاف برخام بارد ، مقاوم للحرارة ، جُلب من (اليونان) ، مما هيأ الراحة والاطمئنان للمصلين والطائفين في الظهيرة ، ووهج الشمس [١] .

ومن الأعمال المهمة للملك خالد بن عبد العزيز رحمه الله :

أنه أمر بصنع باب الكعبة المشرفة في عام (١٣٩٩هـ) بشكل بديع ، وبنفقات عظيمة بلغت (١٣) مليونًا و (٤٢٠) ألف ريال حيث وضع فيه من الذهب (٢٨٠) كيلو جرام عيار ٩٩٩.٩ ٪ . وكذلك تم في عهده صنع باب للسلم الموصل إلى سطح الكعبة ، من داخل الكعبة المشرفة [٢] .

* * *

(١) ينظر : جريدة المدينة العدد (٤٢٥١) بتاريخ ٢١/ ٤/ ١٣٩٨هـ .
(٢) ينظر : كتيب الباب الجديد للكعبة المشرفة المنشور بمناسبة افتتاح الباب .

الفصل الخامس

مساحة المسجد الحرام بعد التوسعة السعودية الأولى

كانت مساحة المسجد الحرام قبل التوسعة (٢٩١٢٧) مترًا مربعًا . وأضاف التوسعة مساحة (١٣١,٠٤١) مترًا مربعًا ، فأصبح مجموع المساحة بعد التوسعة الأولى (١٦٠,١٦٨) مترًا مربعًا .

وهذه المساحة تتسع لأكثر من (٣٠٠) ألف مصل في وقت واحد ، في سعة واطمئنان في عامة الأيام ، وفي الحالات الشديدة الزحام يمكن أن تستوعب أكثر من (٤٠٠,٠٠٠) أربعمائة ألف مصل [1] .

* * *

(١) تقرير وزارة المالية ٢/ ٥٢-٦٠ ، وقصة التوسعة الكبرى ص ٢٤١-٢٤٤ .

الباب الثاني

العناية بالمسجد النبوي الشريف

في العهد السعودي

ويشتمل على خمسة فصول :

الفصل الأول : عناية الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود رحمه الله بالمسجد النبوي.

الفصل الثاني : عناية الملك سعود بن عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود رحمه الله بالمسجد النبوي.

الفصل الثالث : عناية الملك فيصل بن عبد العزيز آل سعود رحمه الله بالمسجد النبوي.

الفصل الرابع : عناية الملك خالد بن عبد العزيز آل سعود رحمه الله بالمسجد النبوي .

الفصل الخامس : مساحة المسجد النبوي بعد التوسعة السعودية الأولى .

الباب الثاني

العناية بالمسجد النبوي الشريف في العهد السعودي

الفصل الأول

عناية الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود رحمه الله بالمسجد النبوي

عنى ملوك آل سعود بشؤون المسجد النبوي كعنايتهم بالمسجد الحرام. حيث إنه لما وصل الملك عبد العزيز رحمه الله إلى المدينة المنورة في شعبان عام ١٣٤٥هـ للنظر في شؤونها ، واطلع على ما يحتاج إليه المسجد النبوي من تنظيمات إدارية وإصلاحات معمارية ، واستمع إلى اقتراحات بعض المسؤولين فيه ، وحدد ما يحتاج إليه في مسائل أساسية ، فانتخب لكل مسألة لجنة من خبراء أهل البلاد ، وعن طريقهم رتب الأمور في المدينة وفي المسجد النبوي الشريف على أحسن وجه [(١)] .

وفي عام ١٣٤٨هـ أمر بإصلاحات في مبنى المسجد النبوي بترميم الأعمدة والجدران في الجهة الشمالية من المسجد التي ظهر فيها بعض التصدعات ، وكذلك أمر بإصلاح أرضه وأروقته المحيطة بالصحن .

وفي عام ١٣٥٠هـ أمر بإصلاح ما حصل من خلل في بعض الأعمدة والسواري الشرقية والغربية من الصحن كما أمر بإصلاح التشققات التي

---

(١) جريدة أم القرى العدد (١١٢) شعبان (١٣٤٥هـ).

ظهرت في دهان الحجرة النبوية الشريفة [١].

وأصدر أمره السامي بإعداد ما يلزم من دراسات لبناء وتوسعة المسجد النبوي الشريف .

وفي اليوم الخامس من شوال عام (١٣٧٠هـ) بدئ في تنفيذ مشروع توسعة المسجد النبوي الشريف بهدم الدور المحيطة به التي انتزعت ملكياتها عن طريق لجنة خاصة لتقدير الأثمان وبعد أن أعطى أصحابها تعويضات نقدية كبيرة .

ووضع الحجر الأساسي الأمير سعود بن عبد العزيز ولي العهد آنذاك عام (١٣٧٢هـ) وتوفي الملك عبد العزيز عليه رحمه الله في عام (١٣٧٣هـ) قبل أن يكتمل البناء .

* * *

(١) المسجد النبوي عبر التاريخ ص ١٨٥ .

الفصل الثاني

عناية الملك سعود بن عبد العزيز آل سعود رحمه الله بالمسجد النبوي

تسلم زمام الحكم الملك سعود بن عبد العزيز رحمه الله عام ١٣٧٣هـ فتم في عهده إكمال بناء المسجد النبوي الشريف على أتقن وأجمل شكل ، وقد بقي المبنى القبلي للمسجد ، لم يتعرض له بشيء سوى بعض الإصلاحات والترميمات .

واحتفل بمناسبة انتهاء أعمال توسعة المسجد النبوي الشريف في مساء يوم (٥) ربيع الأول سنة (١٣٧٥هـ) .

وقد بلغت النفقات التي صُرفت على المشروع خمسين مليون ريال منها خمسة وعشرون مليونًا نفقات البناء والمؤن وخمسة وعشرون مليونًا قيمة تعويض العقارات [(١)] .

ثم تمت أعمال أخرى إلحاقية بعد الافتتاح .

منها : تجديد باب الصديق ، وبناء حجرات على يمين الداخل والخارج من الباب النبوي ، وقاعة واسعة بطول أربعين مترًا [(٢)] ، بطابقين خصص الطابق الأول مكتبة للمسجد النبوي .

ومن الأعمال التي تمت في عهد الملك سعود : إزالة الأبنية والخرابات

---

(١) ينظر : جريدة المدينة العدد (٦٠٧) ١٣ ربيع الأول (١٣٧٥هـ) .

(٢) جريدة أم القرى العدد (١٦٢٠) ذو القعدة (١٣٧٥هـ) .

الواقعة في قبلة المسجد النبوي الشريف ، وفي شرقه من جهة باب جبريل ، وجعل المكان حمىً للمسجد [1] .

* * *

(١) جريدة المدينة العدد (٥٥٧) ١١ ربيع الأول سنة (١٣٧٤هـ) .

الفصل الثالث

عناية الملك فيصل بن عبد العزيز آل سعود رحمه الله بالمسجد النبوي

حصلت توسعة أخرى في العهد السعودي للمسجد النبوي الشريف، وذلك في عهد الملك فيصل بن عبد العزيز من الجهة الغربية ، واشتريت العقارات والدور والمساكن التي احتيج إليها ، وظُللت بمظلات مقببة قوية مؤقتة في مساحة (٤٠,٥٠٠) متر مربع ، وجُهزت بجميع اللوازم، وصار الناس يصلون فيها [١].

* * *

(١) المسجد النبوي عبر التاريخ لسيد الوكيل ص (١٩٩) .

الفصل الرابع

عناية الملك خالد بن عبد العزيز آل سعود رحمه الله بالمسجد النبوي

جرت توسعة ثالثة في العهد السعودي للمسجد النبوي وذلك في عهد الملك خالد رحمه الله حينما وقع الحريق في المنطقة الواقعة في الجنوب الغربي من المسجد سنة (١٣٩٧هـ) فأزيلت المنطقة وتمّ تعويض أصحاب العقارات وُضمت الأرض إلى ساحات المسجد النبوي ، وظُللت منها مساحة (٤٣,٠٠٠) متر مربع على غرار المظلات السابقة ، وهيئت للصلاة فيها [1].

* * *

(١) عمارة وتوسعة المسجد النبوي عبر التاريخ لناجي حسن ص (١٨٧-١٨٨) .

الفصل الخامس

مساحة المسجد النبوي بعد التوسعة السعودية الأولى

كانت مساحة المسجد النبوي قبل التوسعة الأولى (١٠٣٠٣) أمتار مربعة.

أما مساحة التوسعة السعودية الأولى فكانت (٦٠٢٤) مترًا مربعًا .

وبذلك صارت المساحة الكلية للمسجد النبوي (١٦٣٢٧) مترًا مربعًا [1].

* * *

(١) مجلة الإذاعة السعودية ، العدد الأول السنة الأولى ربيع الثاني عام (١٣٧٥ هـ) .

الباب الثالث

رعاية خادم الحرمين الشريفين

الملك فهد بن عبد العزيز

حفظه الله للحرمين الشريفين

ويشتمل على فصلين :

الفصل الأول : عنايته بمكة المكرمة وما شهدته من تقدم حضاري وعمراني .

الفصل الثاني : عنايته بالمدينة المنورة وما شهدته من تقدم حضاري وعمراني .

الباب الثالث

رعاية خادم الحرمين الشريفين

الملك فهد بن عبد العزيز آل سعود للحرمين الشريفين

الفصل الأول

عنايته حفظه الله بمكة المكرمة

وما شهدته من تطوير حضاري وعمراني

لقد كان اهتمام الملك عبد العزيز وأبنائه سعود وفيصل وخالد رحمهم الله بأمور المدينتين والحرمين الشريفين كبيرًا جدًا ، وقد عمل كل منهم حسب الحاجة بها وفقه الله عز وجل من توسع في خدماتهما وتطويرهما .

ولما وصلت أمانة الحكم على البلاد إلى يد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز أولى اهتمامًا خاصًا بالمدينتين المقدستين وكذلك المسجدين الشريفين .

وكان من عادته كل سنة قضاء النصف الأخير من رمضان في مكة المكرمة مجاورًا للبيت العتيق ، كما كان يُخصص أيامًا أخرى يقضيها في المدينة المنورة يتابع خلالها الأوضاع والمشاريع في هاتين المدينتين المقدستين.

وكان ازدياد عدد الحجاج والمعتمرين عامًا بعد عام وزيادة عدد

سكان المدينتين مدعاة لبذل مزيد من العناية في تطوير المدينتين في جميع المرافق، لاسيما المرافق التي لها مساس بالحج والحجاج ، وما تطوير وتوسعة مطار جدة والميناء البحري منذ أكثر من ثلاثين سنة إلا تحسبًا لزيادة عدد الحجاج . وكذلك تطوير منطقتي المسجد الحرام والمسجد النبوي الشريفين بإنفاق بلايين الريالات ليس ذلك إلا لأجل خدمة الحجاج والمعتمرين والمواطنين والمقيمين .

وأنشئت شبكة طرق فريدة تربط المملكة ببعضها وبالدول المجاورة وأغلبها تستخدمها قوافل الحجاج ، وكلفت هذه الطرق أكثر من ١٣٧ مليارًا من الريالات [١] غير عقود الصيانة والإصلاح .

ومنذ عقود من السنين كان هناك إحساس واضح بزيادة عدد الحجاج في المستقبل مما دعا إلى التخطيط والدراسة لفتح الطرق وتوسيعها ، وإزالة العوائق التي قد تواجه الحجاج في المدينتين ؛ لذا عملت المملكة من لدن عهد مؤسسها الملك عبد العزيز إلى عهد خادم الحرمين الشريفين على إزالة كل العوائق دون نظر إلى النفقات التي تصرف على تلك الأعمال والمشاريع .

فأنشئت الطرق الموصلة إلى مكة وفي داخلها وكان من أهمها في عهد خادم الحرمين الشريفين :

١ – طريق جدة مكة السريع الذي نفذ بطول (٦١) كم عام ١٤٠٢هـ بنفقة إجمالية قدرها ٥٠٠ مليون ريال .

---

(١) قصة التوسعة الكبرى ص ٣٢٨ .

٢ – جسر الميناء وهو أطول الجسور داخل المدن وقد نفذ بطول ١٢،٥ كم عام ١٤٠٥هـ بنفقة قدرها (٦١٢) مليون ريال والغرض من هذا الجسر أن يربط بين ميناء جدة الإسلامي وطريق جدة مكة السريع .

٣ – طريق مكة الدائري الأول ، وقد نُفذ عام ١٤٠٢هـ وما بعده ، وقد تم إنشاء أربعة أنفاق مزدوجة وذلك بغرض إبعاد الازدحام عن المنطقة المكتظة حول المسجد الحرام وتسهيل حركة المرور داخل مكة المكرمة نظرًا لزيادة حركة المشاة بالمنطقة خلال المواسم .

٤ – طريق مكة الدائري الثالث بطول (٢٨) كم ، نُفذ في عام ١٤٠٤هـ بنفقة قدرها (٢٨٠) مليون ريال ، ويهدف إلى ربط طريق جدة – مكة السريع بطريق كُدي وبالأحياء المختلفة في مكة المكرمة .

٥ – طريق أجياد السد بطول (١) كم ، بنفقة قدرها (٨,٥) مليون ريال لربط أنفاق السيارات القادمة من منى ومحبس الجن بالمسجد الحرام .

٦ – نفق أجياد – كُدي بطول (١,٦) كم ، تم تنفيذه عام (١٤٠٤هـ) بنفقة قدرها (١٨٣) مليون ريال لربط طريق كُدي بمنطقة أجياد والمسجد الحرام .

٧ – ومن الأعمال المهمة عمل نفق السوق الصغير بحذاء المسجد الحرام بطول (١٥٠٠م) والجزء المغطى منه (٦٦١ م) في مسارين منفصلين للقادمين من غرب مكة وشرقها .

ومما تم في المشاعر من التطوير :

١ – مشروع تطوير منى بقطع الجبال وتسويتها لتوسعة الطرق ، فقد كان الطريق غرب الجمرات ضيقًا جدًا فقطع جزء كبير من الجبل العالي وصار الطريق واسعًا كما قطع للغرض نفسه جزء من الجبل الواقع شرق الجمرات .

٢ – زيادة الرقعة المهيأة لسكن الحجاج داخل منى بقطع سفوح الجبال وتسويتها ، وكانت المنطقة المهيأ للسكن حتى عام (١٣٩٤هـ) مليونًا ونصف مليون متر مربع، وبلغت بعد التطوير والتوسعة (٤٦,٦٠٠,٠٠٠) متر مربع ، منها أربعة ملايين متر مربعة مستوية والباقي سفوح الجبال .

٣ – إنشاء شبكة من الطرق والجسور الكثيرة والأنفاق لتسهيل حركة السير داخل منى بلغت نفقاتها (٣٢٤٢) مليون ريال .

٤ – إنشاء خزانات مياه ضخمة وشبكة للمياه والصرف الصحي ودورات المياه ومواضع للوضوء والغسل بلغت نفقاتها (٧٤٤) مليون ريال. وقد بُني في منى خزان كبير في عام(١٤١٨هـ) لغرض إطفاء الحريق، ووصل إلى الخيام بأنابيب يتدفق منها الماء تلقائيًا عند الحاجة .

٥ – إنشاء مجزرة المعيصم النموذجية بطاقة مليون وخمسمائة ألف ذبيحة تم تنفيذ الجزء الأول منها بنفقة (١٥٠) مليون ريال ، والهدف منها الاستفادة الكاملة من لحوم الهدي والأضاحي ، واستفادة فقراء الحرم منها وتوزيع الفائض على فقراء العالم الإسلامي .

كما تم أيضًا في عهد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد حفظه الله :

١ – توسعة مسجد الخيف بمنى بنفقة تزيد (٣١.٥) مليون ريال .

٢ – توسعة مسجد نمرة بعرفات بنفقة قدرها (٣٦٦) مليون ريال .

٣ – تجديد عمارة مسجد التنعيم وتوسعته .

٤ – ترميم مصنع كسوة الكعبة المشرفة .

٥ – تطوير جامعة أم القرى وتوسعتها في مبانيها وكلياتها وأقسامها.

٦ – تطوير مركز أبحاث الحج [١]. وتم تغيير اسمه في شهر ذي الحجة ١٤١٨هـ إلى معهد خادم الحرمين الشريفين لأبحاث الحج .

٧ – إنشاء مبرة خادم الحرمين الشريفين لسقيا الحجاج والمعتمرين [٢].

* * *

(١) ينظر : كل هذا في كتاب مكة المكرمة دليل الشوارع والخدمات بالعاصمة المقدسة والمشاعر . نشر وزارة الإعلام ، الشئون الإعلامية . بدون تاريخ النشر .
(٢) ينظر : كتاب دولة في قائمة الشرف ص (١٠٤-١٠٧) .

الفصل الثاني

عنايته حفظه الله بالمدينة المنورة

وما شهدته من تطوير حضاري وعمراني

شهدت المدينة النبوية تطورًا عمرانيًا وحضاريًا كبيرًا في عهد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز آل سعود ، ففي سنة (١٤٠٥هـ) خصصت جلسة لمجلس الوزراء في المدينة لدراسة المشاريع التطويرية للمدينة النبوية .

ولقد بذل خادم الحرمين الشريفين جهودًا كبيرة في خدمة الإسلام والمسلمين من أبرزها في المدينة المنورة :

١ – إنشاء مجمع لطباعة المصحف الشريف باسم مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، وضع حجر مقره في١٦/ ١/ ١٤٠٣هـ وتم افتتاحه في ٦/ ٢/ ١٤٠٥هـ والغرض من إنشائه طباعة المصحف الشريف وترجمة معاني القرآن الكريم وطباعتها بلغات مختلفة، وتسجيل القرآن الكريم ونشره وإجراء البحوث والدراسات المتعلقة بالقرآن الكريم .

وطاقته الإنتاجية (٣٠) مليون نسخة من المصحف الشريف سنويًا ، وتشرف عليه وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد [١] .

٢ – إنشاء مركز خدمة السنة والسيرة النبوية ، حيث إن السنة النبوية هي الأصل الثاني لديننا الحنيف بعد كتاب الله وهي المفسرة له ، فكان

---

(١) ينظر : نشرة إدارة العلاقات العامة في المجمع .

الاهتمام بها من أهم أمور الدين ، وشعورًا بأهميتها وحاجة الأمة إلى نشرها أمر - حفظه الله - بإنشاء مركز خدمة السنة والسيرة النبوية في الجامعة الإسلامية التي تشرف عليه من الناحية العلمية والإدارية والأعمال الباقية من الطباعة والتوزيع تتم في مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف ، وكان إنشاؤه في ٢٠/ ٤/ ١٤٠٦هـ .

ومن أهم أغراضه إصدار الموسوعات العلمية للحديث الشريف ، وموسوعة رواة الحديث ، وموسوعة متون الحديث ، وموسوعة السيرة النبوية ، وتحقيق كتب السنة ونشرها ، وإعداد الدراسات والأبحاث لخدمة السنة والسيرة ، وقد صدرت عنه عدة مطبوعات ذات قيمة علمية عالية .

٣ - وضع حجر الأساس لأكبر توسعة للمسجد النبوي الشريف في التاريخ الإسلامي في ٥ صفر سنة (١٤٠٥هـ) .

٤ - وضع حجر الأساس لأكبر توسعة لمسجد قباء في يوم الخميس ٨ صفر (١٤٠٥هـ) .

٥ - توسيع وتطوير الجامعة الإسلامية وأزاح - حفظه الله - الستار عن مشروع توسعتها في ٨ صفر سنة (١٤٠٥هـ) .

٦ - أمر بتنفيذ مشروع الطريق الدائري الثاني وأزاح - حفظه الله - الستار عن اللوحة التذكارية لحجر الأساس في يوم الخميس ٨ صفر سنة (١٤٠٥هـ) بتكلفة مائة وتسعين مليون ريال ، وطوله ٢٧ كيلو مترًا .

٧ - أمر بفرش المسجد النبوي الشريف بسجاد فاخر في سنة١٤٠٥هـ.

٨ - أمر بتشكيل لجنة لوضع الحلول المناسبة لمشاكل المواصلات داخل المدينة ، وللإشراف على مشاريع تحسين وتجميل المدينة المنورة ، ودراسة إمكانية عمل ميادين لتسهيل حركة المرور وتحسين شارع المطار ، ودراسة إمكانية فتح شوارع بالأماكن المزدحمة في المدينة .

٩ - أمر بإنشاء مجمع قضائي يضم المحاكم الشرعية كلها وكتابة العدل وبيت المال .

١٠ - أمر بإعداد مخطط مقترح للمناطق المحيطة بالمسجد النبوي الشريف بعد التوسعة الكبرى .

وتمت هذه المشاريع وتلتها مشاريع أخرى كنفق المناخة والجسور وغيرها مما يصور الاهتمام البالغ من خادم الحرمين الشريفين بالمدينة المنورة.

❊ ❊ ❊

الباب الرابع

توسعة خادم الحرمين الشريفين

الملك فهد بن عبد العزيز

حفظه الله للمسجد الحرام والمسجد النبوي

ويشتمل على أربعة فصول :

الفصل الأول : توسعة المسجد الحرام .

الفصل الثاني : مساحة المسجد الحرام بعد توسعة خادم الحرمين الشريفين .

الفصل الثالث : توسعة المسجد النبوي .

الفصل الرابع : المساحة والطاقة الاستيعابية للمسجد النبوي.

الباب الرابع

توسعة خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز آل سعود حفظه الله للمسجد الحرام والمسجد النبوي

الفصل الأول

توسعة المسجد الحرام

في عام ١٤٠٣هـ أمر حفظه الله بنزع ملكيات عقارات السوق الصغير الواقعة غرب المسجد الحرام تهيئة للتوسعة الكبرى للمسجد الحرام التي أمر بها حفظه الله فتم تعويض أصحابها بمبالغ مُرضية وتهيئة مساحة (٣١) ألف متر مربع ساحات للصلاة ، وكان سطح التوسعة السعودية الأولى غير مهيأ للصلاة لما فيه من مجمعات كهربائية ونحوها فأمر بتبليطه بالرخام البارد المقاوم للحرارة في عام (١٤٠٦هـ) وكانت مساحته (٦١,٠٠٠) مترًا مربعًا ويتسع لتسعين ألف مصل ، وأمر بإنشاء خمسة سلالم كهربائية محيطة بالمسجد الحرام لتسهيل الصعود والنزول إلى السطح والطابق الأول . كما تم بناء خمسة جسور علوية للدخول إلى الطابق الأول والخروج منه من جهة شمال المسجد الحرام .

ثم وضع حفظه الله حجر الأساس للتوسعة في (٢) صفر عام (١٤٠٩هـ) وكان يتابع جميع الأعمال بتفاصيلها .

ويتألف مبنى توسعة خادم الحرمين الشريفين للمسجد الحرام من

طابق الأقبية (البدروم) السفلي ، والطابق الأرضي والطابق الأول ، وقد صمم وتم بناؤه على أساس تكييف شامل كامل ، وعمل له محطة للتبريد في أجياد ، ورُوعي في الأقبية تركيب جميع الأمور الضرورية من تمديدات وقنوات وعمل فتحات في قواعد الأعمدة المستديرة لامتصاص الهواء الساخن وفتحات في أعلى الأعمدة المربعة حيث يتم ضخ الهواء والماء البارد فيها من المحطة المركزية للتكييف في أجياد ، ومبنى التوسعة منسجم تمامًا في شكله العام مع مبنى التوسعة الأولى ، وقد كسيت الأعمدة بالرخام الأبيض الناصع ، كما كسيت أرضها بالرخام الأبيض ، وأما الجدران فكسيت من الخارج بالرخام الأسود المموج والحجر الصناعي ، وكذلك من الداخل مع تزيينها بزخارف إسلامية جميلة ويبلغ عدد الأعمدة للطابق الواحد (٥٣٠) عمودًا دائريًا ومربعًا .

وجعل في هذه التوسعة أربعة عشر بابًا فبذلك صارت أبواب المسجد الحرام (١١٢) بابًا بعضها يشتمل على ثلاث أو أربع فتحات ، وصنعت الأبواب من أجود أنواع الخشب وكسيت بمعدن مصقول ضبط بحليات نحاسية والنوافذ والشبابيك من الألمونيوم الأصفر المخروط ومعدن مصقول بحليات نحاسية .

وعمل لهذه التوسعة مبنيان للسلالم الكهربائية في شماله وجنوبه وسلمان داخليان وبذلك يصبح مجموع السلالم الكهربائية في المسجد الحرام تسعة سلالم ، هذا عدا السلالم الثابتة الموزعة في أنحاء مبنى المسجد الحرام .

وفي سنة (١٤١١هـ) أحدثت ساحات كبيرة محيطة بالمسجد الحرام،

وهيئت للصلاة ، لاسيما في أوقات الزحام ، بتبليطها برخام بارد ، ومقاوم للحرارة ، وإنارتها ، وفرشها ، وتبلغ المساحة الإجمالية لهذه الساحات (٨٨,٠٠٠) متر مربع .

وفي سنة (١٤١٥هـ) تم في المسجد الحرام توسعة منطقة الصفا في الطابق الأول تسهيلًا للساعين وذلك بتضييق دائرة فتحة الصفا الواقعة تحت قبة الصفا .

وفي سنة (١٤١٧هـ) تم أيضًا هدم وإزالة بعض المباني حول منطقة المروة وحصل تغيير كبير بالطابق الأرضي والأول فيها لغرض القضاء على الزحام في هذا الموقع ، حتى صارت مساحة المنطقة (٣٧٥) مترًا مربعًا بدلًا من المساحة السابقة وهي (٢٤٥) مترًا مربعًا .

وفي سنة (١٤١٧هـ) حصلت أيضًا توسعة الممر الداخل من جهة المروة إلى المسعى في الطابق الأول وأحدثت أبواب جديدة في الطابق الأرضي والأول للدخول والخروج من جهة المروة .

كما تم في سنة (١٤١٨هـ) إنشاء جسر الراقوبة الذي يربط سطح المسجد الحرام بمنطقة الراقوبة من جهة المروة ، لتسهيل الدخول والخروج إلى سطح المسجد الحرام .

ويبلغ طول الجسر (٧٢) مترًا و (٥٠) سنتيمتر ويتراوح عرضه من عشرة أمتار ونصف إلى أحد عشر مترًا ونصف متر ، وتم تنفيذه وفق أحدث التصاميم الإنشائية وبما يتناسق مع الشكل الخارجي للمسجد

الحرام .

وتم في سنة (١٤١٨هـ) أيضًا توسعة الممر الملاصق للمسعى الذي يستعمل للطواف بالطابق الأول في أوقات الزحام من منطقة الصفا إلى ما يقابل منتصف المسعى حيث تمت توسعته فأصبح عرضه تسعة أمتار وعشرين سنتيمترًا ، ويبلغ طوله سبعين مترًا .

وتم في (٢٢) شوال سنة (١٤١٨هـ) تجديد غطاء مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام من النحاس المغطى بشرائح الذهب والكريستال والزجاج المزخرف ، وتم وضع غطاء من الزجاج البلوري القوي الجميل المقاوم للحرارة والكسر على مقام إبراهيم عليه السلام ، وشكله مثل القبة نصف الكرة ووزنه (١,٧٥٠) كجم ، وارتفاعه (١,٣٠) م وقطره من الأسفل (٤٠) سم ، وسمكه (٢٠) سم من كل الجهات ، وقطره من الخارج من أسفله (٨٠) سم ، ومحيط دائرته من أسفله (٢,٥١) م [(١)].

* * *

(١) جريدة المدينة العدد (١٢٧٢١) ١٩ شوال ١٤١٨هـ .

الفصل الثاني

مساحة المسجد الحرام بعد توسعة خادم الحرمين الشريفين الملك فهد

كان مجموع مساحة المسجد الحرام بعد التوسعة السعودية الأولى (١٦٠,١٦٨) م ، وأضافت توسعة خادم الحرمين الشريفين (٥٧,٠٠٠) م ، ومساحة الأسطح المستخدمة للصلاة (٦١,٠٠٠) م ، ومساحة الساحات المهيأة للصلاة حول المسجد الحرام (٨٨,٠٠٠) م كلها مضافة في توسعة خادم الحرمين الشريفين .

فأصبح مجموع المساحات بعد توسعة خادم الحرمين الشريفين ثلاثمائة وستة وستين ألفًا ومائة وثمانية وستين مترًا مربعًا (٣٦٦,١٦٨) م .

طاقة استيعاب المصلين في المسجد الحرام في الظروف العادية قبل التوسعة السعودية الأولى سبعة وأربعون ألف (٤٧,٠٠٠) مصل .

بعد التوسعة السعودية الأولى ثلاثمائة وثلاثة عشر ألف (٣١٣٠٠٠) مصل .

بعد توسعة خادم الحرمين الشريفين أربعمائة وستون ألف (٤٦٠,٠٠٠) مصل .

مجموع عدد المصلين في داخل المسجد الحرام والسطوح والساحات ثمانمائة وعشرون ألف (٨٢٠,٠٠٠) مصل . ويمكن في ذروة الزحام استيعاب أكثر من مليون مصل .

الفصل الثالث

توسعة المسجد النبوي الشريف

أمر خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز آل سعود حفظه الله بتوسعة المسجد النبوي الشريف فبُدئ بعمارته وتوسعته قبل المسجد الحرام ووضع خادم الحرمين الشريفين حجر أساس التوسعة في يوم الجمعة (٥) من شهر صفر عام ١٤٠٥هـ ، وابتدئ العمل بهدم المباني القائمة في موقع التوسعة ثم تمت تسوية الأرض وأعمال الحفريات وتأسيس الأساسات ورفع الأعمدة والجدران على أحدث الطرق وأرقى أنواع المواد وأفضلها .

ويتألف المبنى من طابق الأقبية والطابق الأرضي والطابق الأول مشتملًا على تكييف كامل للتوسعة ، حيث رُوعي في الأقبية تركيب جميع التمديدات والحوامل التي تحملها ومجاري الهواء ، وعملت أربع فتحات حول كل عمود لمرور الهواء البارد عن طريق محطة التكييف الواقعة غرب المسجد النبوي [(١)] .

وقد عُمل في سقف المسجد النبوي في هذه التوسعة سبع وعشرون فتحة ، وركبت فيها قباب متحركة كهربائيًا تغلق وتفتح عند الحاجة بكل يسر وسهولة .

واشتملت التوسعة على واحد وأربعين بابًا ركبت فيها أبواب ضخمة

---

(١) قصة التوسعة الكبرى ص ٣٦٤ .

يبلغ ارتفاع الباب الواحد منها ستة أمتار في عرض ثلاثة أمتار وتشتمل بعض الأبواب على عدة فتحات ، وأنشئت فيها ست مآذن جديدة ، ارتفاع كل واحدة منها (١٠٤) أمتار إلى نهاية الهلال .

وتم بناء (٦) سلالم كهربائية متحركة أربعة منها في كل ركن من التوسعة وواحد في منتصف الجانب الشرقي وواحد في منتصف الجانب الغربي ، بجانب (١٨) سلمًا ثابتًا من الخرسانة المكسو بالمرمر الأبيض الناصع .

وأنشئت ساحات خارجية للاستفادة منها أثناء شدة الزحام ، وبُني حول المسجد مواقف للسيارات تحت الأرض بطابقين ، تحتوي على ستة مداخل ومخارج للسيارات ، وتسع هذه المواقف (٤,٢٠٠) سيارة ومن الممكن أن تستوعب في أوقات الزحام (٤,٥٠٠) سيارة ، وتتصل المواقف بساحات المسجد بواسطة مداخل خاصة للناس وفيها (٢٨) سلمًا كهربائيًا متحركًا .

وتشتمل المواقف على مبان للخدمات تتوفر فيها وحدات للوضوء ودورات للمياه وصنابير لشرب الماء البارد ومبان أخرى لمراكز الأمن وعيادات طبية وغيرها .

ومدت الأنابيب لضخ المياه المبردة لغرض التكييف إلى المسجد النبوي داخل نفق يمتد من محطة التبريد إلى داخل القبو طوله سبعة كيلو مترات وعرضه (٦,٢) م وارتفاعه الداخلي (٤,١) م .

واستمر العمل في هذه التوسعة الكبرى قرابة عشر سنوات ، وانتهى بوضع خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز حفظه الله اللبنة الأخيرة في الحادي عشر من ذي القعدة عام (١٤١٤هـ) .

❋ ❋ ❋

الفصل الرابع

المساحة والطاقة الاستيعابية للمسجد النبوي الشريف

مساحة المسجد النبوي الشريف بعد التوسعة السعودية الأولى (١٦٣٢٧) م .

مساحة المسجد بعد التوسعة الكبرى (٨٢٠٠٠) م .

مجموع المساحة الإجمالية (٩٨٥,٠٠٠) م وتستوعب (١٦٠٠٠) مصل .

مساحة السطح (٦٧,٠٠٠) وتستوعب (٩٠,٠٠٠) مصل وبذلك أصبح المسجد النبوي بعد التوسعتين يستوعب أكثر من (٢٥٧,٠٠٠) مصل وبمساحة إجمالية تبلغ (١٦٥,٥٠٠) م .

مساحة الساحات (١٣٥,٠٠٠) م ، تستوعب (٢٥٠,٠٠٠) مصل .

وفي حالة استعمال كامل المساحة للصلاة فإنها تستوعب (٤٥٠,٠٠٠) مصل مما يجعل الطاقة الاستيعابية للمسجد والساحات المحيطة به تزيد عن (٧٠٠,٠٠٠) مصل في الأيام العادية .

وفي أوقات الزحام يستوعب المسجد والساحات أكثر من (١,٠٠٠,٠٠٠) مصل .

* * *

الباب الخامس

بناء الكعبة المشرفة وترميمها

ويشتمل على فصلين :

الفصل الأول : بناؤها وترميمها قبل العهد السعودي .

الفصل الثاني : ترميم الكعبة المشرفة في العهد السعودي .

الباب الخامس

بناء الكعبة المشرفة وترميمها

الفصل الأول

بناء الكعبة وترميمها قبل العهد السعودي

الكعبة أول بيت وضع في الأرض لعبادة الله وحده لا شريك له ، كما قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (١) .

وكان وادي إبراهيم الذي فيه الكعبة لا ماء فيه ولا زرع ، فأمر الله إبراهيم عليه السلام أن يسكن فيه ذريته فأسكنها ودعا الله عز وجل : ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ (٢) .

فاستجاب الله دعاءه وفجر لذريته عين زمزم ، وهيأ لهم أسباب المعيشة ، فأهل الوادي بالناس .

وأرشد الله إبراهيم عليه السلام إلى مكان الكعبة المشرفة ، وأمره ببنائها فبناها ، ودعا مرة أخرى : ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا ﴾ (٣) .

ودعا أيضًا : ﴿ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ

---

(١) سورة آل عمران / آية ٩٦ .

(٢) سورة البقرة / آية ١٢٦ .

(٣) سورة إبراهيم / آية ٣٥ .

ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ [(١)] .

فسكنت فيه أقوام مختلفة ، وتعاقبت على ولاية الكعبة العمالقة وجرهم وخزاعة وقريش وغيرهم .

وكانت الكعبة موضع تعظيم وإجلال الناس والولاة على مكة ، يعمرونها ويرممونها عند الحاجة ، ويكسونها ويحتسبونه فخرًا وتشريفًا لهم ، حتى جاء الإسلام فزاد في تشريفها ، وحث على تعظيمها وتطهيرها ، وكساها النبي ﷺ والصحابة بعده .

وكانت قريش قد بنت الكعبة قبل بعثة النبي ﷺ ، وتركت جزءًا من البيت تابعًا للحِجْر ؛ لأن النفقة قد قصرت بهم.

وكان النبي ﷺ يحب أن يعيد بناءها على قواعد إبراهيم عليه السلام ، وأن يدخل الجزء الذي تركوه من الكعبة ، وأن يجعل لها بابين لاصقين بالأرض كما في حديث عائشة [(٢)] .

بناء عبد الله بن الزبير رضي الله عنه سنة ٦٤هـ :

لما تولى حكم الحجاز عبد الله بن الزبير رضي الله عنه بنى الكعبة المشرفة على ما أحب النبي ﷺ مشتملة على ما تركته قريش وجعل لها بابين [(٣)] .

بناء عبد الملك بن مروان سنة ٧٤هـ :

لما حاصر الحجاج مكة في عهد عبد الملك بن مروان وقتل عبد الله بن الزبير رضي الله عنه كتب إلى عبد الملك بن مروان يخبره أن ابن الزبير قد بنى البيت

---

(١) سورة إبراهيم / آية ٣٧ .
(٢) ينظر : صحيح البخاري (١/ ٢٣٤و٣/ ٤٣٩) وصحيح مسلم (٢/ ٩٦٩) .
(٣) ينظر : صحيح البخاري (٣/ ٤٤٠) .

على أس نظر إليه العدول من أهل مكة يعني به قواعد إبراهيم عليه السلام، فأمره بأن يرد الكعبة على البناء الأول الذي بنته قريش ، فنقض البناء من جهة الحجر وسد الباب الذي فتحه ابن الزبير وأعاده إلى بناء قريش ، واتفق المؤرخون على أن الكعبة المشرفة بقيت على بناء عبد الملك بن مروان لم تحتج إلى بناء جديد ولم يصبها وهن ولا خراب في الجدران ، وكل ما احتاجت إنما هو ترميمات وإصلاحات حتى عام ١٠٤٠هـ[١] .

بناء السلطان مراد خان ١٠٤٠هـ :

وسبب بنائه أنه نزل بمكة في صباح يوم الأربعاء ١٩ شعبان ١٠٣٩هـ مطر غزير ، واستمر إلى آخر النهار ، جرى منه سيل كثير ، دخل المسجد الحرام ، والكعبة المشرفة ، ووصل إلى نصف جدارها ، وفي آخر النهار سقط الجدار الشامي من الكعبة ، وبعض الجدارين الشرقي والغربي، وسقطت درجة السطح ، ولما تسرب الماء نظفت الكعبة والمسجد الحرام من الطين ومخلفات السيل ، وكتب في ذلك إلى العلماء والأمراء ، فاتفق الرأي على هدم ما بقي من الجدران ، فأمر السلطان مراد خان بهدم ما بقي من جدران الكعبة لتداعيها فشرع في الهدم ، تلاه البناء والتعمير ، وتم الانتهاء من بنائها ٢ ذي الحجة سنة ١٠٤٠هـ .ولم تحتج الكعبة بعد ذلك إلى إعادة بناء ، وإنما هي ترميمات وإصلاحات في أوقات مختلفة .

* * *

(١) ينظر : فتح الباري (٣/ ٤٤٨) .

الفصل الثاني

ترميم الكعبة المشرفة في العهد السعودي

في عهد الملك عبد العزيز رحمه الله :

لم يحتج بناء الكعبة المشرفة إلى ترميم وإصلاح سوى أنه تم في عهده تجديد باب الكعبة المشرفة وإصلاح جوانبه .

في عهد الملك سعود بن عبد العزيز رحمه الله :

أمر الملك سعود رحمه الله بتجديد سلم الكعبة المشرفة الذي يصعد عليه الناس للدخول إلى الكعبة ، وتم صنعه على الطريقة العربية، وغلف بالفضة، وطُعّم بنقوش عربية ذهبية .

وأول استعمال للسلم المذكور كان في صباح يوم الخميس ٦ ذي الحجة ١٣٧٦هـ عندما دخل الملك المعظم الكعبة المشرفة لغسلها ، ومعه رؤساء الوفود الإسلامية القادمة من شتى أنحاء العالم الإسلامي لأداء نسك الحج [١] .

وفي سنة (١٣٧٦هـ) عندما كانت تجري أعمال توسعة المسجد الحرام علم الملك سعود بن عبد العزيز أن سقف الكعبة المشرفة الأعلى أصابه شيء من الخلل مما يدعو إلى إزالته وبناء سقف جديد ، وأن جدران الكعبة المشرفة تحتاج إلى ترميم وإصلاح ، وقدمت لجنة خاصة تقريرًا بذلك، فأمر الملك الجهات المختصة بإنفاذ الإصلاح . وبدئ به في يوم الجمعة (١٨)

---

(١) جريدة أم القرى العدد (١٦٧٣) في (٧) ذي الحجة سنة ١٣٧٦ هـ .

رجب عام ١٣٧٧هـ في احتفال رأسه سمو الأمير فيصل بن عبد العزيز ولي العهد آنذاك ، واستمر العمل حتى تم تجديد سقف الكعبة المشرفة، وترميم جدرانها على خير ما يرجو المسلمون للبيت العتيق .

وبعد عصر يوم السبت(١١) من شعبان عام(١٣٧٧هـ) حضر الملك سعود بن عبد العزيز رحمه الله إلى المسجد الحرام، لتفقد ما تم من الترميم، وتشرف بوضع الحجر الأخير في الكسوة الرخامية بداخل الكعبة.[١]

في عهد الملك خالد بن عبد العزيز رحمه الله :

في ربيع الأول سنة (١٣٩٧هـ) تم تركيب سلم جميل من الألمونيوم القوي، في شكل دائري داخل الكعبة، يوصل إلى سطح الكعبة المشرفة، مشتملًا على (٥٠) درجة بدل سلك الخشب الذي قد تداعى وتآكل بعضه، وتم في عهده صُنْعُ الباب الجديد كما تقدم[٢].

في عهد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز حفظه الله :

في أواخر سنة (١٤٠١هـ) ظهر تسرب ماء غسل الكعبة من أعلى موضع الحجر الأسود، وسبق ذلك ظهور تصدع في الرخام المفروش في داخل الكعبة المشرفة ، ولما رفع الأمر إلى خادم الحرمين الشريفين الملك فهد ابن عبد العزيز أمر بتكوين لجنة للنظر في الموضوع، واقتراح ما يلزم نحوه،

---

(١) جريدة أم القرى العدد (١٧٠٤) في ١٨ رجب ١٣٧٧هـ ، ومجلة الإذاعة السعودية العدد ٣٠ في رمضان ١٣٧٧هـ
(٢) ينظر : ص (٢٢).

فقرر أعضاء اللجنة ضرورة تغيير رخام أرض الكعبة مع وضع مادة عازلة، وكذا تغيير الإطار الحديدي المثبت عليه الإطار الفضي الخاص بالحجر الأسود ، وأن يكون من معدن غير قابل للصدأ ، ثم أمر خادم الحرمين الشريفين بتنفيذ الاقتراح وبدئ بالإصلاح في (١٤/ ٧/ ١٤٠٣هـ) وتم العمل المطلوب في (١٥ شعبان ١٤٠٣هـ) .

وقد حصل في عام ١٤١٧هـ ترميم عظيم للكعبة المشرفة لم يحصل مثله منذ بناء الكعبة الأخير في سنة (١٠٤٠هـ) .

عندما لوحظ أنه بدا التلف في بعض أجزاء الكعبة المشرفة المصنوعة من الخشب ، وكان السقف أكثر تعرضًا للتلف من غيره بسبب تكوينه من عوارض ولوحات خشبية ، وكذلك الأعمدة الخشبية ، إذ قد أصابت الأرضة جزءًا كبيرًا من السقف والأعمدة .

فخيف من إصابة الضعف والتآكل في الأجزاء الأخرى من بناء الكعبة ، فأمر خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز آل سعود حفظه الله بترميم الكعبة المشرفة ترميمًا كاملًا شاملًا من داخلها وخارجها على أحسن وجه فبدئ العمل بترميمها في العاشر من شهر محرم سنة ١٤١٧هـ .

فنزعت لواصق الجدران من لوحات تاريخية وغيرها من الداخل وكذلك ما علق فيها من الداخل ، وحفظت هذه الأشياء بعد تنظيفها بجانب الهدايا والتحف ومقتنيات الكعبة الأخرى ، كما تم إزالة السقف والأعمدة الخشبية .

وكذلك تمت إزالة اللياسة التي كانت تكسو جميع الأوجه الداخلية ، وإخراج بعض الحجارة المكونة للجدار الداخلي ثم إعادتها بعد التنظيف .

وظهر بعد الكشف أيضًا أن الجدار الخارجي للكعبة لا يوجد به أي عيب إنشائي ، كما ظهر أنه لا يوجد أي عيب في الحوائط بصفة عامة .

غير أنه وجد تلف كبير للشدات الخشبية الموجودة في الحوائط بسبب الأرضة والفطريات وتأثير الرطوبة ، فوضعت خطة العمل وتم تنفيذها على أربع مراحل :

المرحلة الأولى :

وهي بداية العمل من الأعلى في المداميك العلوية الأربعة فنُخرت المواد الممسكة من الفواصل والفراغات بين الصخور من داخل الكعبة التي أوجدتها طبيعة شكل الصخور التي تتركب منها المداميك ، وأخرجت حجارة الحشوة والحجارة الباطنية ، ورُقمت ونظفت وغسلت تهيئة لإعادتها إلى مواضعها فيما بعد ، ثم حُشيت هذه الفواصل والفراغات بمواد ممسكة ذات قوة عالية جدًا في الالتصاق بالصخر ، ثم وضعت حجارة الحشوة والواجهة الباطنية في مواضعها ، وحشيت الفراغات بين الأحجار بمواد اسمنتية قوية جدًا في التماسك وعدم التقلص ، وغرست فيها قطع معدنية خاصة بشكل يربط بين أحجار الواجهة الخارجية وأحجار البطانة الداخلية.

وأصبحت المساحة العلوية في حدود المداميك الأربعة أفقيًا مكتملة

الإنشاء والتماسك بحيث لن تتأثر بما يحصل أسفلها من الأعمال إن شاء الله.

المرحلة الثانية :

قسمت الحوائط إلى شرائح عمودية في خطوط متوازية من أعلى إلى أسفل إلا أنها كانت متعرجة بسبب تداخل الأحجار ، وكان عرض الشريحة يتراوح ١.٥ مترًا و ١.٧ مترًا .

وتم العمل في الشريحة الأولى بفك الأحجار الداخلية من أعلى حتى مستوى أرض الكعبة الداخلي الذي يرتفع عن مستوى المطاف بحوالي ٢.٢ مترًا مع الإبقاء على الواجهة الخارجية كما هي ، ورقمت الأحجار المنزوعة ودُعمت جوانب طرفي الشريحة بدعائم خشبية بصورة أفقية وعلى مسافات مناسبة كي لا يحدث أي انزلاق في صخور أطراف الشريحة .

وتقرر أن تتم معالجة الشريحة المكشوفة على أقسام بدءًا من العلو إلى مقدار أربعة مداميك ، ثم التي تليها إلى أسفل مستوى أرض الكعبة الداخلي .

فبناء عليه تم في الجزء الأعلى من الشريحة تنظيف الفواصل للواجهة الخارجية وتنظيف الحجارة بالماء ثم جُففت بآلات النفخ ، ثم حشيت الفواصل بمادة ذات قدرة عالية جدًا في قوة التماسك وسرعته وبأسلوب الحقن الآلي ، وبعد التحقق من تصلب هذه المادة وضعت مادة لاصقة ، ثم حشيت فواصل الواجهة الخارجية بخلط ذات قوة عالية جدًا .

ثم غرست في الخلطة التي حُقنت بين فواصل الواجهة الخارجية

للجدار قضبان معدنية عوملت معاملة مخبرية وكيماوية خاصة تحقق أغراضًا إنشائية خاصة وتثبت بمادة التثبيت المصنوعة لهذا الغرض . ومهمة هذه القضبان تقوية التلاحم والتماسك بين الأجزاء الخارجية والداخلية من الجدار .

أما إعادة بناء الأجزاء الداخلية فقد كانت من الأسفل إلى الأعلى بحيث وضع كل حجر في موضعه ، وحسب ترقيمه بعد التنظيف وملء الفواصل بالمادة عالية القوة ، وتم رش طبقة الأساس بمبيد للحشرات الدقيقة التي لا ترى بمجرد العين ، والحشرات المرئية ، ثم حقنت الفواصل بخلطة خاصة ذات قوة عالية جدًا ، كما ثبتت شبكة من القضبان المعدنية رأسية وأفقية محمية بمواد مقاومة لكل عوامل التآكل تحقق ترابطًا مشتركًا بين مكونات الجدار الخارجية والداخلية .

وهكذا تم العمل في جميع الشرائح الأخرى ، وانتهت أعمال هذه المرحلة بحقن جميع الفراغات المتبقية بين الأحجار بمواد عالية التماسك بحيث لا تعطي أي فرصة لأي عامل نخر أو تفكك بإذن الله تعالى .

المرحلة الثالثة :

وتتمثل هذه المرحلة في حفر أرض الكعبة من مستوى الباب الذي هو عليه عمق مستوى المطاف أي إلى عمق ٢.٢ متر .

وقبل الإقدام على الحفر الكامل لأرض الكعبة المشرفة تم عمل استكشاف لمعرفة الحاجة إلى الحفر إلى أعماق القاعدة وترميم الجزء المدفون

من الجدران ، وذلك بحفر حفرة في جانب الركن الشامي حتى مستوى المطاف باتساع كاف يساعد على الاطلاع الكامل على حالة الجدران وشيء من الأساس .

ثم تم الحفر الكامل لأرض الكعبة المشرفة ، ثم الترميم بالأسلوب نفسه الذي تم به ترميم الحوائط العليا ، إلا أنه من باب الاحتياط امتد عمل الترميم إلى أسفل من مستوى المطاف بما يتراوح بين نصف متر وثلاثة أرباع المتر تقريبًا ، وهي المسافة التي تصل إلى الأحجار المتماسكة وهي مابين أربعة وخمسة مداميك من الأحجار الصلبة التي تماثل أحجار الجدران العلوية ، وهي متراصة الواحد فوق الآخر دون وجود مؤنة بين المداميك .

كما لوحظ بروز هذه الأحجار عن سمك الجدار الذي أقيم عليه وهي أساس البيت المكرم من عهد إبراهيم عليه السلام ، وإليه كان حفرُ عبد الله بن الزبير ﵁ حين بنى الكعبة ، وأشهد خمسين رجلًا من وجوه الناس وأشرافهم عليه سنة ٦٤ من الهجرة [(١)] .

وأجمعت كافة الشهادات التاريخية والمشاهدات الحديثة على عدم حدوث أي أضرار نتيجة حدوث هبوط للتربة أو الأساس خلال ثلاثة عشر قرنًا ونصف قرن من وقت بناء عبد الله بن الزبير ﵁ ، ثم تعديلات الحجاج بن يوسف الثقفي ، ثم بناء السلطان مراد خان سنة ١٠٤٠هـ إلى يومنا هذا ، مما جعل الخبراء يقررون أن الأساس الذي قام عليه بناء الكعبة المشرفة في حالة جيدة وصالحة ؛ لأن يقوم عليه البناء بدون أي معالجة

---

(١) ينظر : أخبار مكة للأزرقي (١/ ٢١٣) .

لاستقبال أحمال المبنى إن شاء الله .

المرحلة الرابعة :

تركيب سقف الكعبة المشرفة : إن العنصر الأساسي في تكوين سطح الكعبة المشرفة هو الخشب وبعد الاستعانة بمراكز الأبحاث الخشبية في أوربا واستراليا ونيوزيلندا واستشـارتها تبين لدي المختصين أن خشب (التيك) هو النوع الأمثل الذي يتعين استخدامه في تسقيف الكعبة لاتصافه بأوصاف لا تتوفر في غيره منها :

١ – مقاومة الأحمال لأطول عمر افتراضي ممكن .

٢ – انخفاض درجة الانكماش لدرجة قريبة من الانعدام .

٣ – مقاومة التغير في الأجواء الحارة الجافة .

٤–مقاومة الأرضة والفطريات والحشرات الدقيقة والرطوبة المتسربة.

٥ – طول الجذوع بما يزيد على عشرة أمتار مع قطر لا يقل عن متر واحد بعد التهذيب والإعداد للاستخدام .

فتم استيراده من بورما الموطن الأصلي لهذا الخشب .

وتم اختيار (١٣٧) شجرة ، وتم قطعها ونقلها إلى المنجرة ثم انتقاء (٤٩) قطعة منها لسقف الكعبة وأعمدتها .

وتم نقل هذه القطع إلى جدة ، ثم تركت لمدة ستة أشهر لتجف في الجو الطبيعي نسبيًا ثم تم إدخالها في أتون التجفيف الذي تم تعديله بشكل

خاص ، وزيادة في الحماية من الأرضة والفطريات تم معالجتها بالمواد الحافظة غير السامة التي ليس لها لون ولا رائحة .

وتمّ وضع رؤوس حديدية غير قابلة للصدأ على أطراف الكمرات والأعمدة لتوزيع الأحمال عليها ، وتم بناء قواعد خرسانية مسلحة للأعمدة بدلًا من القواعد الصخرية القديمة ، وتم حمايتها من تأثير الرطوبة بوضع مواد عازلة حولها ، ثم عملت جدران خرسانية داخلية مع وضع طبقات العزل حولها بحيث تتوزع أعمال الردم إلى مستوى باب الكعبة بدلًا من الضغط على جدران الكعبة .

وتمّ إعادة تركيب الأعمدة في مواقعها الأصلية وكذا تم إعادة جميع أجزاء الرخام التي عليها كتابات في مواقعها السابقة داخل الكعبة .

ووُضع السقف الخشبي ، ثم وضعت طبقة من مواد العزل فوق السقف ، وفوقها طبقة من الخرسانة الخفيفة لحمايتها وتأمين الميول لتصريف المياه عن السطح ، ثم تمت تغطية السطح بالرخام .

كما تم تجديد السلم الداخلي الموصل إلى سطح الكعبة ، وجعل درجة من الزجاج القوي المميز ، وتم تغطية فتحته في السطح بنوع من الزجاج ليساعد على الإضاءة داخل الكعبة ، وجُدد رخام الشاذروان ورخام حجر إسماعيل عليه السلام [١] . وقد تم الانتهاء من أعمال الترميم هذه كلها في يوم الثلاثاء ٣٠/ ٦/ ١٤١٧هـ .

---

(١) هذا الجزء من البحث مأخوذ من تقرير مجموعة بن لادن (ترميم الكعبة المشرفة) ١٤١٧هـ .

الباب السادس

بئر زمزم وما حصل لها
من تنظيف وإصلاح وترميم

الباب السادس

بئر زمزم وما حصل لها من تنظيف وإصلاح وترميم

من أعمال الملك عبد العزيز رحمه الله :

كان ماء زمزم ينزع بالدلاء منذ القدم ، ويخزن في خزان مكشوف ، ومن أراد الشرب يتناوله بمغاريف مربوطة به ، ونظرًا للتطور والرقي في مجال الحياة وخوفًا من حدوث التلوث بُنيت في عهد الملك عبد العزيز مظلة أمام بئر زمزم في سنة (١٣٧٣هـ) ووضع عليها خزانان لحفظ الماء فيهما ، ووصل بكل خزان اثنا عشر صنبورًا كما وضعت مضخة غاطسة في البئر لاستخراج الماء .

وفي عهد الملك سعود بن عبد العزيز رحمه الله :

لما كثر الحجاج ودعت الحاجة إلى توسعة المطاف صدر الأمر السامي من الملك سعود في عام (١٣٨٢هـ) بتوسيع المطاف فجعلت البئر في قبو عمقه (٢،٧) مترًا تحت المطاف وسقف ما فوقها حتى يدخل في صحن المطاف ، وركبت فيه صنابير في مساحة (١٠٠،٧٤) مترًا مربعًا منها (٥٤،٢٧) مترًا للرجال و(٤٦،٤٧) مترًا مربعًا للنساء مجهزًا بـ (٣٩) صنوبرًا ، عشرون منها في قسم الرجال ، وتسعة عشر صنبورًا في قسم النساء ، وجُعلت غرفة البئر داخل شبكة حديد وجعل لخزن الماء خزانان كبيران تحت الأرض على جانبي الدرج النازل لقبو زمزم ، وتم كل هذا في

سنة (١٣٨٣هـ) [١].

وفي عهد الملك خالد بن عبد العزيز رحمه الله :

صدر الأمر السامي بتنظيف بئر زمزم ، فتم ذلك على أحدث طريق وأتم وجه بواسطة غواصين متمرسين .

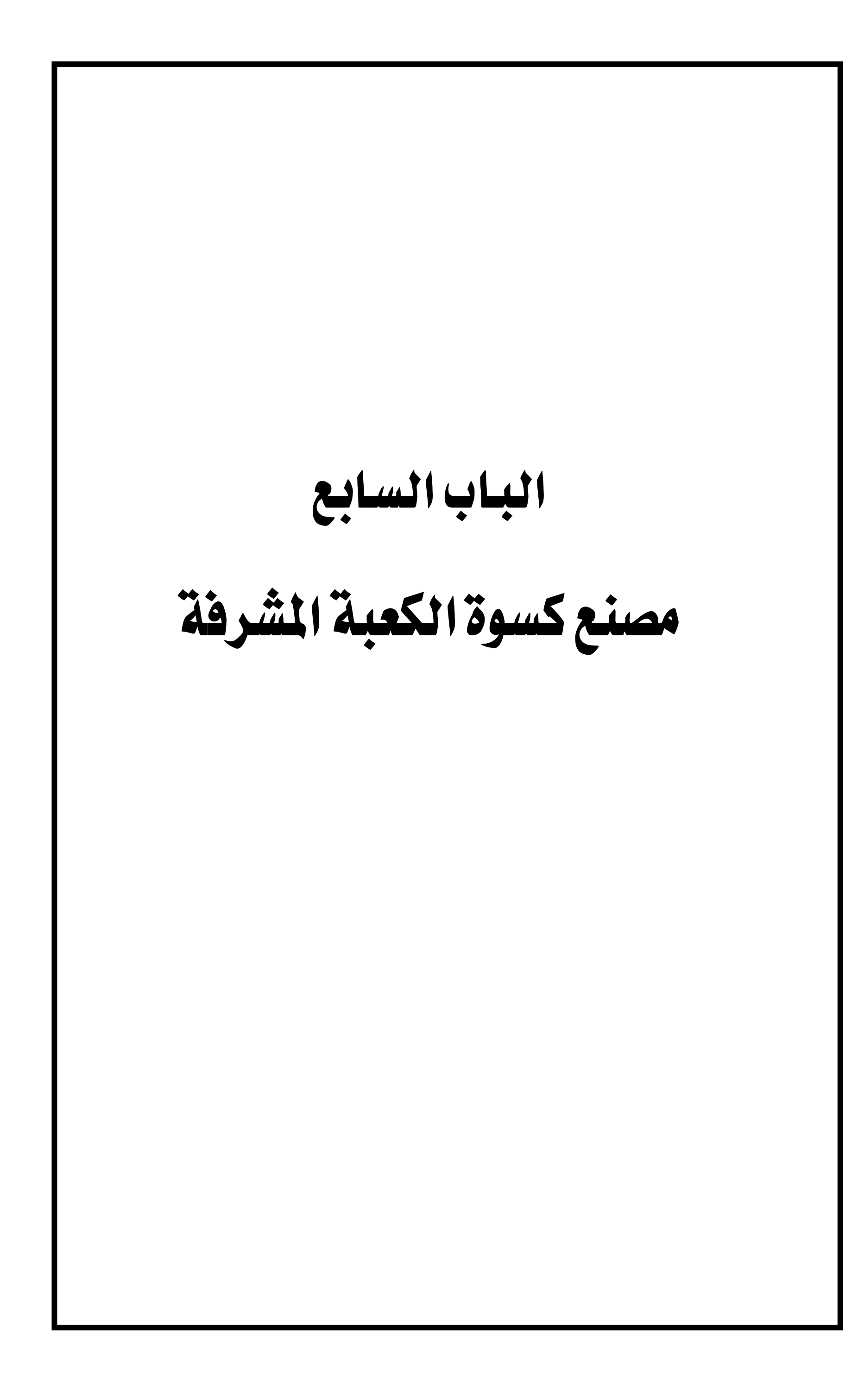
وبدئ بالعمل في ٢٨/ ٥/ ١٣٩٩هـ واستمر إلى ٢٥/ ٧/ ١٣٩٩هـ وفي هذا التنظيف أخرج من داخل البئر كميات كبيرة من الأواني الفخارية المستعملة قديمًا وسطول من الجلد والبلاستيك ومغاريف فخارية ونحاسية ودوارق وجرار وأقماع وشربات وبكرات حديد وخشب وقطع أخشاب ، وأوان قديمة غريبة الشكل من الفخار وغيره ، وأنواع مختلفة من العملات والدراهم لا يعرف تاريخها ، وأكثرها متآكلة وقطع معدنية أخرى وقرون ماعز وسكاكين وقطع أحجار كثيرة وقرب وجرار من النحاس وأختام .
كما أخرج مقدار كبير من الطين والصدفات البحرية وزنابيل من الجلد والمطاط وحفظ المهم منها لدي الرئاسة العامة لشؤون المسجد الحرام والمسجد النبوي .

كما نظفت حوائط البئر وخاصة الجزء المجصص منها باستخدام فرش من السلك وأخرجوا ما كان يترسب في قاع البئر .

وكان هذا العمل من أعظم أعمال التنظيف في تاريخ بئر زمزم ، ونتج عنه أن فاضت البئر بفضل الله بماء أغزر مما كان بكثير [٢] .

---

(١) كتاب زمزم للمهندس يحيى حمزة كوشك ص ٤٤ وتقرير وزارة المالية (٨٠.٢) .
(٢) ينظر : كتاب زمزم للمهندس يحيى حمزة كوشك ص ٦١ ، وما بعدها .



الباب السابع

مصنع كسوة الكعبة المشرفة

الباب السابع

مصنع كسوة الكعبة المشرفة

كانت كسوة الكعبة المشرفة منذ سنة (٧٥٠هـ) تأتي من مصر من مال الوقف الذي وقفه الملك الناصر بن قلاوون على الكسوة ، ثم ضم إليه السلطان سليم خان بعض الوقوف ، ثم صارت الكسوة ترسل من قبل الحكومة المصرية ، وكلما وقع شيء من الخلاف بين الحكومة المصرية وبين الحكومة التي كانت تتولى أمر الحجاز امتنعت الحكومة المصرية من إرسال الكسوة حصل ذلك عدة مرات قبل تولي الملك عبد العزيز رحمه الله الحكم في الحجاز ، ثم إنه بعد توليه الحكم حصل في سنة (١٣٤٤هـ) حادثة المحمل المصري المعروفة ، وامتنعت من أجلها الحكومة المصرية من إرسال الكسوة في سنة (١٣٤٥هـ) ولم تشعر الحكومة السعودية بذلك إلا في غرة شهر ذي الحجة من السنة المذكورة ، فصدرت إرادة الملك عبد العزيز بعمل الكسوة بغاية السرعة .

فقام المعنيون بهذا الأمر وفي مقدمتهم وزير المالية ، وعملوا الكسوة من الجوخ الأسود الفاخر ، وعُمل حزام الكعبة بآلة التطريز وكتبت عليه الآيات بالقصب الفضي المموه بالذهب الوهاج مع ستارة الباب ، ولم يأت الموعد المحدد لكسوة الكعبة إلا والكعبة المعظمة لابسة تلك الكسوة عملت في بضعة أيام .

ونتيجة لذلك صدرت إرادة الملك عبد العزيز في مستهل شهر المحرم (١٣٤٦هـ) إلى وزير المالية بإنشاء دار خاصة لعمل الكسوة ، فقام بإنشاء

تلك الدار بحارة أجياد على مساحة (١٥٠٠) متر مربع .

فبدئ بالعمل وتمت عمارتها في خلال ستة أشهر من طابق واحد ، فكانت هذه الدار أول دار أسست خصيصًا لحياكة وصنع كسوة الكعبة بمكة المكرمة، وخص الله عز وجل بهذه المكرمة الملك عبد العزيز رحمه الله.

ثم صدر الأمر الملكي بإحضار العمال لحياكة الكسوة وعمل التطريز للحزام وستارة الباب وما يقتضي عمله للكسوة من بلاد الهند ، فوصل العمال وأنوال النساجة والحياكة من الهند في بداية شهر رجب سنة (١٣٤٦هـ) إلى مكة المكرمة بواسطة أحد علماء الهند ووجهائها مع الحرير وما يلزم لعمل الكسوة .

فنصبوا الأنوال وصبغوا الحرير وباشروا العمل ، وكانت الأنوال اثني عشر نولًا ، وعدد المعلمين النساجين مع المطرزين أربعون معلمًا وأتباعهم عشرون فكان مجموعهم ستين شخصًا .

وفي نهاية ذي القعدة سنة (١٣٤٦هـ) تم عمل الكسوة في هذا المصنع الجديد [1] . واستمر صنع الكسوة فيه حتى نقل المصنع في عهد الملك سعود رحمه الله عام ١٣٨٢هـ إلى حارة جرول في مصنع جديد ، ولمواكبة عجلة التطور أحدث قسم جديد بالمصنع هو قسم الآلات الميكانيكية للنسيج .

ثم نُقل المصنع في بقعة أرض أوسع بكثير في أم الجود طريق جدة القديم في عهد الملك خالد بن عبد العزيز رحمه الله في سنة (١٣٩٧هـ)

---

(١) تاريخ الكعبة المشرفة لبا سلامة ص (٢٦٥-٢٦٧) .

ودخلت تطورات كثيرة في صناعة النسيج وحياكة الكسوة ، وصار العمل في هذا المصنع أتقن وأجمل مما مضى بكثير .

يصنع ثوب الكعبة المشرفة من الحرير الخالص ، ويستورد من الخارج خامًا ، ويستهلك الثوب الواحد (٦٧٠) ستمائة وسبعين كيلو جرامًا من الحرير ، ويكون مسطح الثوب بعد النسج في المصنع (٦٥٨) مترًا مربعًا ، ويتكون من(٤٧) طاقة قماش طول كل منها(١٤) مترًا وعرضها (٩٥)سم.

وتتألف القطع المذهبة المثبتة على الثوب أعني الحزام من ١٦ قطعة طولها حوالي (٤٧) مترًا وعرض كل قطعة (٩٥) سم . بالإضافة إلى (٤) صمدية و (٦) قطع آيات ما تحت الحزام وقطعة الإهداء التي يكتب عليها ، و(١١) قنديلًا مثبتًا بين أضلاع الكعبة الأربعة .

وأما ستار باب الكعبة فيبلغ طولها (٧,٥) أمتار وعرضها (٤) أمتار مزركشة بآيات قرآنية من السلك الذهبي والفضي .

ويبلغ مجموع نفقات الثوب الواحد حوالي (١٧) مليونًا من الريالات، ويشمل ذلك نفقة الخامات وأجور العاملين والإداريين .

ويمر صنع الكسوة بمراحل وقد وضح ذلك في كتيب خاص بكسوة الكعبة المشرفة ومراحل تصنيعها صدر عن الرئاسة العامة لشؤون المسجد الحرام والمسجد النبوي .

وفي عهد خادم الحرمين الشريفين لقي المصنع عناية خاصة ، فقد حصل فيه توسع كبير وتطوير له في إدخال الأعمال الميكانيكية التي يمكن

الاستغناء بها عن الأعمال اليدوية ومنها :

في عام (١٤١٠هـ) تم استيراد آلتين حديثتين للصباغة الآلية من كبرى شركات الصباغة في العالم بمبلغ قدره مائتان واثنا عشر ألف دولار أمريكي .

كما اشتريت آلة لتجفيف الحرير بطريقة الطرد المركزي ، وآلة مولدة للبخار ، وأصبح يستعمل البخار للتسخين بدلًا من التسخين المباشر للصباغة ، وبذلك أمكن التغلب على أغلب مشكلات الصباغة .

كما تم في العام نفسه تأمين آلة تسدية كاملة من شركة عالمية متخصصة لتسدية خيوط القطن والحرير وجميع الألياف بمبلغ إجمالي قدره ثلاثمائة وخمسة وسبعون ألفًا وثمانمائة وثلاثة وثلاثون فرنكًا سويسريًا .

وتم أيضًا تأمين آلة لف الخيوط باثني عشر رأسًا بمبلغ قدره خمسة وسبعون ألفًا ومائة فرنك سويسري ، وذلك في عام ١٤١٠هـ أيضًا .

وتم أيضًا في سنة ١٤١٠هـ تأمين آلة للف البوبينات المستخدمة في اللحمة آليًا من شركة عالمية بمبلغ قدره اثنان وستون ألفًا وتسعمائة مارك ألماني .

وتم أيضًا في سنة ١٤١٠هـ تأمين آلة لَضْم خيوط السدى ، ويمكن أن تقوم بلضم (٦٠٠) ستمائة فتلة في دقيقة ، وإن عدد الخيوط التي تحتاج إلى اللَضْم (٩٩٠٠) فتلة وكانت تُلْضَم في السابق باليد وكان يستغرق وقتًا طويلًا ، فسهلت هذه الآلة عمل اللضم في وقت قصير .

كما تم في عام ١٤١٨هـ شراء ثلاث مكائن للنسج على أحدث طراز مزدودة بأجهزة الكمبيوتر والتقنية الحديثة، وتم تركيبها في المصنع .

وفي عام (١٤١٤هـ) صدر الأمر السامي الكريم باعتماد ضم مصنع كسوة الكعبة المشرفة إلى الرئاسة العامة لشؤون المسجد الحرام والمسجد النبوي الشريف .

❊ ❊ ❊

الباب الثامن

الرئاسة العامة لشؤون المسجد الحرام والمسجد النبوي وأهم أعمالها وخدماتها

ويشتمل على :

الفصل الأول : تاريخها وتطورها.

الفصل الثاني : اختيار الأئمة في المسجد الحرام والمسجد النبوي .

الفصل الثالث : التدريس في المسجد الحرام والمسجد النبوي .

الفصل الرابع : مكتبة الحرم المكي الشريف .

الفصل الخامس : مكتبة المسجد النبوي الشريف.

الفصل السادس : الخدمات العامة في المسجد الحرام والمسجد النبوي.

الفصل السابع : الخدمات الطبية.

الفصل الثامن : النقل الإعلامي في المسجد الحرام والمسجد النبوي.

الباب الثامن

الرئاسة العامة لشؤون المسجد الحرام والمسجد النبوي وأهم أعمالها وخدماتها

الفصل الأول

تاريخها وتطورها

الرئاسة العامة لشؤون المسجد الحرام والمسجد النبوي جهاز حكومي يرتبط مباشرة بالمقام السامي الكريم يشرف على مرافق مهمة ومواقع مقدسة ، وهي :

١ – المسجد الحرام .

٢ – المسجد النبوي .

ففي عام ١٣٨٤هـ أنشئت الرئاسة العامة للإشراف الديني على المسجد الحرام لتقوم بمهام الإشراف على التوعية والإرشاد والتدريس والتوجيه والإمامة والخطابة بالمسجد الحرام، وفي عام ١٣٩٧هـ صدر الأمر السامي بإنشاء الرئاسة العامة لشؤون الحرمين الشريفين لتتولى جميع الأعمال والخدمات المتعلقة بالحرمين الشريفين .

وفي عام ١٣٩٨هـ صدر التوجيه بالموافقة على قرار اللجنة العليا للإصلاح الإداري حول تنظيم وترتيب ضمّ الإشراف الديني والأجهزة

الحكومية الأخرى العاملة بالحرمين الشريفين إلى هذه الإدارة .

وفي عام ١٤٠٧هـ صدر الأمر السامي الكريم بتعديل المسمى إلى الرئاسة العامة لشؤون المسجد الحرام والمسجد النبوي .

وفي عام ١٤١٤هـ صدر التوجيه الكريم باعتماد ضم مصنع كسوة الكعبة المشرفة إلى الرئاسة العامة لشؤون المسجد الحرام والمسجد النبوي .

ومن الأهداف الرئيسية للرئاسة ما يلي :

-الإشراف المباشر على تهيئة جميع الخدمات في المسجد الحرام والمسجد النبوي لمن يقصدهما من المصلين والحجاج والمعتمرين والزوار وتسهيل أداء نسكهم بكل يسر وطمأنينة من خلال الوعظ والإرشاد والتدريس وتوفير السقيا والفرش والنظافة والصيانة وغير ذلك .

-تعيين الأئمة والخطباء والمدرسين في الحرمين الشريفين .

-تأمين كسوة الكعبة المشرفة في كل عام من خلال تصنيعها بمصنع الكسوة وتوفير مستلزمات المصنع الإدارية والفنية والخامات والأجهزة والمعدات .

-دراسة احتياج مباني الحرمين الشريفين ومرافقهما من الصيانة والتشغيل لتبقى محتفظة بشكلها المعماري المميز .

-الإسهام في نشر وتعليم العلوم الشرعية من خلال الدروس بالحرمين الشريفين .

-الاهتمام بمكتبتي الحرم المكي والمسجد النبوي ، وتزويدهما بالكوادر الإدارية والفنية المؤهلة وتأمين مستلزماتهما العلمية والعملية .

-المشاركة في لجنة الحج العليا بعضوية الرئيس العام .

-المشاركة في لجنة الحج المركزية .

وكالة الرئاسة العامة لشؤون المسجد النبوي الشريف :

نظرًا للبعد الجغرافي بين موقع الحرمين الشريفين ، وكون المقر الرسمي للرئاسة بمكة المكرمة فقد تم في عام ١٣٩٨هـ إنشاء وكالة الرئاسة لشؤون المسجد النبوي بالمدينة المنورة يقوم عليها نائب للرئيس العام ويرتبط إداريًا بالرئيس العام يتولي الإشراف على مهام الوكالة وإداراتها ، فكان لذلك أثر كبير وملموس في مستوى الخدمات وانطباع جيد لدي زوار مسجد رسول الله ﷺ .

* * *

الفصل الثاني

اختيار الأئمة في المسجد الحرام والمسجد النبوي

للإمامة في الصلوات مكانة جليلة في الإسلام ، كما أنها مسئولية كبيرة تقتضي أن يتصف الإمام بأوصاف مخصوصة .

منها أن يكون قارئًا لكتاب الله، مجودًا له ، وأن يكون عنده فقه كاف لأحكام الصلاة .

وإن كان المسجد جامعًا فينبغي أن يكون عنده علم أوسع بأحكام الشرع ، وأن يكون متأدبًا بآداب الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة حتى يستطيع أداء أمانة الخطابة على الوجه المطلوب .

وإن الإمامة في المسجد الحرام والمسجد النبوي مسئوليتها أعظم من مسئولية الإمامة في أي مسجد آخر ، فإن الإمام فيهما يصلي خلفه المسلمون الوافدون من كل أنحاء العالم ، وخاصة في المواسم ، ويسمع خطبه مئات الآلاف من الناس ويسمع صوته في أرجاء الدنيا .

لذا يراعي عند تعين الإمام في المسجد الحرام أو في المسجد النبوي أن يكون حافظًا لكتاب الله ، ومجودًا له ، وأن يكون من أهل العلم المعروفين بالتحصيل الشرعي الواسع ، وحسن السمت، متبعًا لسنة رسول الله ﷺ عقيدة وعملًا ، صاحب خلق حسن وسيرة مرضية ، وله قدرة في أداء وإجادة الخطابة في الجمع والأعياد على وجه حسن .

ويتولى الإمامة والخطابة بالتناوب في المسجد الحرام في الوقت الحاضر (عام ١٤١٩هـ) ستة أئمة ، وفي المسجد النبوي أربعة أئمة .

الفصل الثالث

التدريس في المسجد الحرام والمسجد النبوي

إن التعليم والتدريس والدعوة والتذكير من أهم الأمور التي كان يقوم بها النبي ﷺ ؛ لأنه من أهم وسائل الدعوة إلى الله تعالى ، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [١] .

وكان صحابة رسول الله ﷺ يجلسون في المساجد وغيرها للتذكير والتعليم [٢] .

وكان التدريس والتذكير في المساجد من عمل المسلمين في كل عصر ومصر ، وكان المسجد الحرام والمسجد النبوي مركزين للعلم في القرون الأولى ، ثم أصبح بعدها يَضْعُف نشاط التعليم فيهما أحيانًا ، ويقوي أخرى نتيجة لأحوال المدينتين السياسية والاقتصادية .

ذكر الذهبي في كتابه (الأمصار ذوات الآثار) ازدهار العلم في مكة في القرنين الأول والثاني ثم قال : ثم في أثناء المائة الثالثة تناقص علم الحرمين وكثر بغيرهما [٣] .

ولما تولّى الملك عبد العزيز رحمه الله أمر الحرمين الشريفين أصدر أمره

---

(١) سورة الجمعة : آية ٢ .
(٢) ينظر : صحيح البخاري (٣/ ٤٨٨) كتاب الحج حديث عائشة رضي الله عنها قعدوا إلى المذكر ...الخ .
(٣) الأمصار ذوات الآثار ص (١٥٩) .

الملكي في ربيع الثاني عام (١٣٤٥هـ) بتكوين هيئة علمية تتولى الإشراف على سير الدروس في الحرم المكي ، وأصدر نظامًا عامًا للتدريس في المسجد الحرام [١] .

ثم في عام ١٣٤٥هـ أمر بتأليف هيئة لمراقبة الدروس في المسجد الحرام برئاسة رئيس القضاة في الحجاز ، كما أمر بتعيين عدد من كبار العلماء للتدريس بالمسجد الحرام وخصص لهم مرتبات مشجعة وأمر أن يرتب لكل طالب خمسة ريالات عربية في كل شهر وأن تُمنح جوائز للنابهين من الطلبة في آخر السنة [٢] .

وفي السنة نفسها أمر بتأسيس مدرسة في مكة للمطوفين يتلقى فيها المطوفون بعض الدراسات الشرعية ذات الصلة بطبيعة عملهم [٣] .

وفي عهد الملك فيصل بن عبد العزيز رحمه الله صدر أمره السامي بإنشاء رئاسة عامة للإشراف الديني بالمسجد الحرام في (٤) رمضان المبارك (١٣٨٤هـ) وعُين أول رئيس لها سماحة الشيخ عبد الله بن محمد بن حميد رحمه الله .

وفي عام ١٣٨٥هـ صدرت الموافقة السامية بتأسيس معهد نظامي بالمسجد الحرام سُمّي معهد الحرم المكي ووضع له منهج متكامل في علوم الشريعة والتاريخ الإسلامي واللغة العربية ولوائح للقبول والدراسة

---

(١) الحرم الشريف الجامع والجامعة للدكتور عبد الوهاب أبو سليمان ص ٩٤-٩٦ ، نقله عن إفادة الأنام (٥/ ٢٩٤) مخطوط .

(٢) جريدة أم القرى العدد (١٨٥) ١٨ محرم سنة (١٣٤٧هـ) .

(٣) جريدة أم القرى العدد (١٧٨) ٣ صفر سنة (١٣٤٧هـ) .

والامتحانات والإجازات ، وكان ذلك تحت إشراف سماحة الرئيس العام للإشراف الديني بالمسجد الحرام ، فالتدريس في المسجد الحرام على نوعين :

الأول: في معهد الحرم وموقعه داخل أروقة المسجد الحرام، والغرض من كونه داخل المسجد الحرام زيادة عدد الدروس في المسجد الحرام ، وليكون المسجد عامرًا بالدروس العلمية في الفترة الصباحية ، وليستفيد من هذه الدروس إضافة إلى الطلاب المنتظمين به مرتادو المسجد في هذه الفترة.

ويضم المعهد حاليًا القسم الإعدادي ومدة الدراسة فيه ثلاث سنوات يحصل الطالب بعد النجاح فيها على الشهادة المتوسطة .

والقسم الثانوي ومدة الدراسة فيه ثلاث سنوات يحصل الطالب بعد النجاح فيها على الشهادة الثانوية التي تمت معادلتها بشهادات المعاهد العلمية بالمملكة من قبل وزارة المعارف .

ويصرف للطلبة المنتظمين مكافأة شهرية قدرها (٤٥٠) ريالًا وهناك سكن للطلبة العزاب من غير أهل مكة ، كما أن المعهد يقبل الطلبة المنتسبين وهؤلاء يحضرون فترة الاختبارات فقط .

وقد بلغ عدد طلاب المعهد في العام الدراسي (١٤١٨ — ١٤١٩ هـ) (١٠٦١) طالبًا منتظمًا ومنتسبًا .

وللمعهد جهاز إداري وتعليمي كامل ، ومستوى الدراسة في المعهد عال بفضل الله ، ويؤهل الطالب تأهيلًا شرعيًا جيدًا ، يُدرس فيه القرآن الكريم والتجويد ، والفقه وأصوله ، والتفسير وأصوله ، والحديث وأصوله مع علم الفرائض ، والسيرة ، والتاريخ ، والبلاغة، واللغة العربية، ويؤهل خريجيه للالتحاق بالجامعات في كلياتها النظرية ، وقد نفع الله تعالى

بهذا المعهد نفعًا عظيمًا ، وتخرج فيه منذ إنشائه عدد كبير من جنسيات مختلفة عاد كثير منهم إلى بلادهم مشتغلين بالدعوة إلى الله تعالى .

النوع الثاني من التدريس في المسجد الحرام :

حلقات المشايخ التي تعقد في أنحاء المسجد الحرام بعد أداء الصلوات ، يدرس فيها علوم مختلفة من التوحيد والتفسير والفقه والحديث واللغة العربية والفرائض ويقوم بالتدريس فيها أئمة المسجد الحرام ، وعدد من أعضاء هيئة كبار العلماء وبعض أساتذة جامعة أم القرى وبعض القضاة وغيرهم من العلماء .

وهناك نوع ثالث من التدريس وهو تحفيظ القرآن الكريم في المسجد الحرام ووقت الدراسة ، ووقت الدراسة في جميع حلقات التحفيظ بعد صلاة العصر إلى صلاة العشاء وتشرف عليه جمعية تحفيظ القرآن الكريم .

وأما التدريس في المسجد النبوي الشريف فهو عن طريق حلقات المشايخ ، ويقوم به أصحاب الكفاءة العالية من المشايخ المعروفين بالعلم والصلاح من أئمة المسجد النبوي ، وأساتذة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة وبعض القضاة والعلماء في المدينة بعد أداء الصلوات ، ويدرس في هذه الحلقات العلوم التي تدرس في المسجد الحرام .

كما أن المسجد النبوي الشريف حلقات لتدريس القرآن الكريم يدرس فيها بعد صلاة العصر إلى صلاة العشاء وتشرف عليها جمعية تحفيظ القرآن الكريم .

* * *

الفصل الرابع

مكتبة الحرم المكي الشريف

تعتبر مكتبة الحرم المكي الشريف من أهم المكتبات العامة في العالم الإسلامي ، فهي تقع في أقدس بقعة وأعظم مكان في مهبط الوحي ومهوى أفئدة المؤمنين ، ويعود تاريخ إنشائها وفق ما أوردته المصادر التاريخية إلى القرن الثاني الهجري في عهد الخليفة العباسي (محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور) .

وفي العهد السعودي الزاهر اهتم الملك عبد العزيز رحمه الله بهذه المكتبة ، وكون لجنة من العلماء لدراسة أحوالها وأطلق عليها عام ١٣٥٧هـ مكتبة الحرم المكي الشريف ، وأهدى لها رحمه الله مجموعة من الكتب ، وحظيت بعناية ورعاية الدولة واستمر تزويدها بما يستجد من الكتب وما يتوفر من المخطوطات وغيرها مما تحتاج إليه المكتبة من الأجهزة الحديثة وآلات التصوير وأجهزة الحاسب الآلي وأجهزة الأمان الممغنطة .

وتشتمل على عدة أقسام أهمها قاعات المطالعة وقسم المخطوطات وقسم التجليد وقسم التصوير وقسم الميكروفلم ، وفيها قسم خاص للمكتبات الخاصة وقسم للنساء تشرف عليه موظفات مختصات في مجال المكتبات .

خاصية الاتصال بمركز الملك فيصل للدراسات والبحوث الإسلامية:

في ظل اهتمام الرئاسة العامة لشؤون المسجد الحرام والمسجد النبوي نحو تقديم أفض الخدمات لرواد مكتبة الحرم المكي الشريف من طلاب العلم تم ربط المكتبة بنهاية طرفية مع مركز الملك فيصل للدراسات والبحوث الإسلامية بالرياض حيث يوفر هذا الاتصال الكثير من الجهد والوقت وعناء السفر لطلاب العلم والباحثين في شتى مجالات العلم والمعرفة .

❊ ❊ ❊

الفصل الخامس

مكتبة المسجد النبوي الشريف

تضم المكتبة كتبًا كثيرة في الفنون الشرعية والعربية وغيرها ، ويتم تزويدها بما يستجد من الكتب ، كما تضم المكتبة مخطوطات ومصورات مكبرة وميكروفلمية نادرة تساعد الباحثين والراغبين في تحقيق المخطوطات للنشر أو لإعداد الرسائل من الماجستير والدكتوراة .

وهناك قسم خاص بخدمات النساء المكتبية تشرف عليه موظفات مؤهلات للعمل في مجال المكتبات .

❊ ❊ ❊

الفصل السادس

الخدمات العامة في المسجد الحرام والمسجد النبوي

أولاً : الخدمات في المسجد الحرام :

وتتمثل هذه الخدمات في إدارات شؤون المسجد الحرام المختلفة ومنها :

١ - إدارة الوعظ والإرشاد :

تقوم هذه الإدارة بتهيئة الإشراف على تنظيم الدروس والوعظ والإرشاد إلى ما يحتاج إليه المدرسون من تعيين الأماكن وتشغيل مكبرات الصوت ووضع الكراسي بأمكنة المدرسين ، كما تقوم بتسجيل الدروس وخطب الجمع والعيدين وفي نهاية كل شهر تجمع الأشرطة ، ثم ترسل إلى قسم المكتبة الصوتية بمكتبة الحرم المكي وتحفظ لمن يريد الاستفادة منها .

يقوم العاملون بالإدارة بالجولات في أنحاء المسجد الحرام لمتابعة الدروس ومنع من يقوم بالتدريس بغير إذن من الجهات المختصة ، كما يقومون بتوجيه الحجاج والمعتمرين إلى أماكن الدروس والإجابة على الأسئلة الشرعية .

ويبلغ عدد حلقات الدروس بالمسجد الحرام (٢٢) حلقة في الأيام المعتادة ، ويزيد العدد في أيام رمضان والحج والإجازة الصيفية بمشاركة عدد من كبار العلماء والمشايخ في المملكة الذين يقدمون مكة لهذا الغرض .

والمواد التي تدرس بالمسجد الحرام التوحيد ، والتفسير ، والحديث ،

والفقه ، وأصوله ، والفرائض ، واللغة العربية وهناك عدد من الدروس ببعض اللغات غير العربية .

٢ – إدارة هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في المسجد الحرام :

ومهمتها متابعة أعمالها الآتي ذكرها في جميع أنحاء المسجد الحرام وساحاته ويعمل في هذه الإدارة عدد من النساء مخصصات يباشرن الأعمال التي تخص النساء .

ومن أعمالها :

-النصح والإرشاد ومعالجة الأمور التي تحتاج إلى ذلك بالحكمة والموعظة الحسنة .

-فصل النساء عن الرجال في المطاف وفي الحجر والأروقة ومواضع الازدحام عامة وإخراج النساء من المطاف قبل الصلوات إلى أماكنهن المخصصة لهن ويساعد في هذه المهمة الأغوات في المسجد الحرام .

-منع ما يقوم به بعض الجاهلين من أعمال غير مشروعة .

-توجيه النساء إلى الأماكن المخصصة لهن لأداء الصلوات .

-حث النساء على الحشمة والتستر .

-مراقبة ضعاف النفوس فيما قد يحدث منهم من أذية لقاصدي بيت الله الحرام .

-تفريغ الطرق المؤدية إلى المطاف لتسهيل الدخول إليه والخروج منه،

والحرص على عدم حدوث الاختلاط بين الرجال والنساء .

-مراقبة الأطفال عن العبث واللعب في المسجد الحرام .

-مراقبة دورات المياه في قسم الرجال عن طريق المراقبين من الرجال وفي قسم النساء عن طريق المراقبات من النساء .

٣ – إدارة شؤون المصاحف :

مهمة هذه الإدارة مراقبة المصاحف التي ترد إلى المسجد الحرام وتفقد المصاحف وحجز النسخ التي يوجد فيها خلل من غلط أو نقص ، ثم توزيع وتنظيم وترتيب النسخ ووضعها في دواليب ورفوف من الخشب في أنحاء المسجد الحرام .

ومنذ أن وفق الله خادم الحرمين الشريفين بإنشاء مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف أصبح يتم تزويد المسجد الحرام بما يحتاجه من المصاحف من هذا المجمع .

فأصبحت مهمة إدارة شؤون المصاحف الإشراف على توزيع المصاحف في أنحاء المسجد الحرام ، وتنظيف المصاحف وصيانتها ، وتنظيف الدواليب المخصصة لها وزيادة عدد المصاحف عند الحاجة وفي أيام المواسم .

٤ – إدارة شؤون الكتب :

ومهمتها توزيع المصاحف على الحجاج والمعتمرين ، وتوزيع الكتب النافعة مثل كتب التوحيد والفقه والحديث والمناسك والتوجيهات الإسلامية بلغات متعددة ، ويتراوح عدد زوار إدارة شؤون الكتب في الأيام العامة بين (٢٠٠) و (٥٠٠) زائر يوميًا ، وفي أيام مواسم الحج بين (٣٠٠٠) و (٥٠٠٠) زائر يوميًا ، وفي رمضان بين (٣٠٠) وبين (١٠٠٠) زائر يوميًا .

٥ – إدارة سقيا زمزم بالمسجد الحرام :

أهم أعمالها :

الإشراف على توفير حافظات المياه (الترامس) الكافية لحاجة رواد المسجد الحرام ، والإشراف على نظافة حافظات المياه المنتشرة بالمسجد الحرام ، وملئها بماء زمزم من محطات التبريد عن طريق مجمعات مياه زمزم المنتشرة في المسجد الحرام ووضع مياه من زمزم غير مبردة في بعض الحافظات لمن يفضل ذلك مع متابعة وضع الأكواب البلاستيكية على قدر الحاجة ، ورفع المستعمل منها ، وكان قبل توسعة محطات تبريد مياه زمزم التي تمت في عهد خادم الحرمين الشريفين يستخدم لتبريد المياه قوالب ثلج مصنعة من ماء زمزم عن طريق مصنع متعهد بتوفير الكميات المطلوبة .

الإشراف على نظافة وغسل مشربيات المسجد الحرام ، ونظافة الأكواب المعدنية ، ومتابعة درجة البرودة في الصنابير .

ولأهمية عمل الإدارة أمنت رئاسة شؤون المسجد الحرام والمسجد النبوي مختبرًا لتحليل مياه زمزم ورفع النتائج للرئاسة ، ومن مهمة المختبر الإشراف على جميع مراحل تعقيم مياه زمزم بمبنى المعدات ومحطة كُدي .

ومن مهامها متابعة ملء ناقلات المياه إلى المسجد النبوي الشريف ، حيث يوفر له ماء زمزم على مدى الساعات من محطات التعبئة خارج المسجد الحرام ، وكذا الإشراف على مواقع تعبئة مياه زمزم للمواطنين في ساحات المسجد الحرام وفي كدي .

٦ – إدارة أبواب المسجد الحرام :

من أهم أعمالها :

-المحافظة على موجودات المسجد الحرام وإداراته ، وعدم تمكين خروج أو دخول أي شيء من الأثاث أو المعدات للمسجد الحرام إلا بالتنسيق مع الجهة ذات الصلة به .

-منع دخول جميع الأطعمة والمشروبات بمختلف أشكالها وأنواعها إلا التمر والقهوة مراعاة لأحوال الصائمين بكميات محدودة .

-منع دخول الكتب والمنشورات بجميع أنواعها خشية دخول كتب ضارة ، أو معارضة للعقيدة الصحيحة ، إلا بعد إجازتها من جهة الاختصاص.

-تخصيص الإدارة بعض الأبواب في جهات المسجد الحرام لدخول النساء في غير موسم الحج .

-تقوم الإدارة بمنع دخول أي شيء يتنافى والنواحي الأمنية أو يتنافى مع توفير الهدوء والطمأنينة لمرتادي المسجد الحرام .

٧ – إدارة الساحات بالمسجد الحرام :

من أهم أعمالها :

-منع البيع والشراء في الساحات وكذا الافتراش لها أو وضع الأمتعة فيها .

-منع شرب الدخان في ساحات المسجد الحرام .

-منع التسول بالتنسيق مع الجهات ذات العلاقة بالتسول .

-متابعة نظافة ساحات المسجد الحرام ودورات المياه والمواضي المحيطة بالمسجد الحرام وتقديم التقارير اللازمة عن الصيانة والنظافة وغيرها .

٨ – إدارة العربات : أهم أعمال هذه الإدارة :

- توفير العربات في المسعى والشباري في الطواف لمن يحتاج إليها ، وكذلك توفير عربات للعجزة وكبار السن ممن يريد استخدامها خارج المسجد الحرام ، وتتبع الإدارة ثلاثة أنواع من العربات :

أ – عربات الرئاسة المجانية ويزيد عددها على (٥٠٠) عربة .

ب – عربات الوقف التي وردت إلى الإدارة بالتبرع من أهل الخير ، ويزيد عددها على (١٥٠٠) وتستعمل للسعي والطواف وتسلم للعجزة

وكبار السن لاستخدامها من السكن إلى المسجد الحرام عند الحاجة .

ج – عربات الأجرة ، وعددها (٥٢٠) عربة تقوم بالخدمات مقابل أجرة لأصحابها محددة من قبل الإدارة .

وأما الشباري وهي سرر تستعمل في الطواف فقط فتُحمل بالطائفين على رؤوس العمال ، وهي أيضًا تقوم بالخدمة بالأجرة المحددة تحت إشراف الإدارة .

- إلزام أصحاب عربات الأجرة والشباري بما تحدده لهم الرئاسة من الأجرة ومجازاة من يخالف ذلك .

٩ – إدارة التشغيل :

من أهم أعمالها :

-الإشراف المباشر على جميع الشركات العاملة بالمسجد الحرام ومتابعة تنفيذ الأعمال المطلوبة منها حسب بنود العقود .

-تنظيم أعمال تشغيل الإنارة والتهوية والتكييف والسلالم الكهربائية والمصاعد بالمسجد الحرام .

-الإشراف على صيانة جميع اللوحات الكهربائية .

-الإشراف والمتابعة على تشغيل جميع مجمعات مياه زمزم المبردة وغيرها داخل المسجد وخارجه .

-الإشراف والمتابعة لإيصال المياه لدورات المياه والمواضي .

-الإشراف والمتابعة على جميع الأعمال الإنشائية والمعمارية داخل المسجد الحرام وخارجه مما يتعلق بالرئاسة .

١٠ – وحدة المتابعة :

أهم أعمالها :

-الإشراف على مكاتب وحدة المتابعة وتوزيع الأعمال الإدارية فيها .

-متابعة حضور وأداء الموظفين في الورديات الأربع التي تتناوب في الأربع والعشرون ساعة داخل المسجد الحرام وخارجه والتعقيب عليها .

١١ - أعمال النظافة والفرش في المسجد الحرام :

تتم نظافة المسجد الحرام وساحاته بواسطة مكائن نظافة كهربائية حديثة عالية الجودة هادئة الصوت صُممت خصيصًا لأعمال النظافة في داخل المسجد الحرام وسطحه .

ويتم الآن حمل السجاجيد بواسطة سيارات صغيرة تعمل بالبطاريات ليتم توزيعها في الأماكن المخصصة داخل المسجد أو في الساحات ، ويتم فرشها قبل صلاة العصر وترفع بعد طلوع الشمس .

وفي رمضان خاصة يتم فرش السجاجيد في سطح المسجد والساحات الخارجية . كما يتم تنظيف السجاجيد من الأتربة والغبار بمكائن مخصصة لهذا الغرض ، ويتم استخدام مكائن حديثة لغسل السجاجيد وتجفيفها في أماكنها باستعمال مواد نظافة عالية الجودة لا تؤثر على لون السجاجيد .

بعد طي وجمع السجاجيد يتم رفعها على حوامل مخصصة لهذا الغرض ، ويتم تغطيتها بالأشرعة حتى لا تتعرض للمطر والشمس والأتربة والغبار .

وتتم صيانة السجاجيد عند الحاجة عن طريق فنيين مختصين بواسطة معدات حديثة .

التكييف في المسجد الحرام :

استحدث نظام جديد لتلطيف الهواء بالطابقين الأرضي والأول والقبو لمبنى توسعة خادم الحرمين الشريفين بالمسجد الحرام ، وهو يعتمد على دفع الهواء البارد خلال الأنابيب وتوزيعه على مستوى مرتفع حول الأعمدة المربعة .

وقد أقيمت من أجل ذلك محطة في منطقة أجياد تحتوي على عدد من مكائن التبريد ومضخات المياه المبردة ، ومركز تشغيل وتحكم تلقائي بطاقة (١٣,٥٠٠) طن تبريد .

وقد تم أيضًا تكييف المسعى في عام ١٤١٤هـ .

كما أنشئ نفق للخدمات يربط بين المحطة المركزية الواقعة في أجياد والمسجد الحرام بطول (٣٥٠) مترًا تقريبًا وصولًا عند باب الملك عبد العزيز ثم يرتبط بعدها بعبَّارة الخدمات الدائرية المحيطة بالمسجد الحرام [١] .

---

(١) تقرير مجموعة بن لادن ص (٤) .

ثانيًا الخدمات في المسجد النبوي :

وفي المسجد النبوي الشريف تقدم الإدارات المختصة المرتبطة بوكالة الرئاسة العامة لشؤون المسجد النبوي الخدمات اللازمة ومن هذه الإدارات :

١ – إدارة التوجيه والإرشاد :

تقوم بتنظيم جداول دروس أصحاب الفضيلة المدرسين بالمسجد النبوي وتهيئة أماكن دروسهم ، كما تشرف على مكتبة المسجد النبوي الشريف وتسهم في أعمال التوجيه والإرشاد وتقوم بتسجيل دروس المشايخ وخطب الجمع والعيدين ثم تبعث الأشرطة في نهاية كل شهر إلى المكتبة الصوتية للاستفادة منها .

٢ – إدارة هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

من مهام هذه الإدارة التوجيه والإرشاد لزوار المسجد النبوي الشريف نحو الالتزام بالآداب الشرعية المتعلقة بالمسجد الشريف وبيان آداب السلام على النبي ﷺ وصاحبيه رضي الله عنهما .

ومن مهامها توجيه النساء إلى الأماكن المخصصة لهن ومنع الاختلاط بين الرجال والنساء .

ويوجد مكتب خاص لرئيسة المراقبات داخل قسم النساء يقوم بترتيب أوقات السماح لهن بالصلاة في الروضة الشريفة على فترتين ، وكذلك تيسير دخول النساء إلى المسجد وخروجهن منه .

كما يقوم عدد من المراقبات بإعداد التقارير اليومية عن احتياجات قسم النساء من المياه والفرش ومتابعة نظافة المسجد .

٣ – إدارة المصاحف :

تقوم الإدارة بتهيئة المصاحف بوضعها في الرفوف والدواليب بكميات كافية في جميع أنحاء المسجد النبوي ، ويعمل مراقبون وعمال على ترتيبها والعناية بها بالتنظيف وكلها من المصاحف المطبوعة في مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف .

٤ – إدارة السقيا :

تقوم الرئاسة العامة لشؤون المسجد الحرام والمسجد النبوي بتوفير مياه زمزم ، وذلك بنقل ثمانين طنًا يوميًا إلى المدينة المنورة بواسطة ناقلات خاصة ، ثم يتم تعقيمها وتبريدها آليًا ، ثم تعبأ في حافظات المياه (الترامس) بأعداد كبيرة يصل إلى (٧٠٠) حافظة يوميًا ، وتوزع في داخل المسجد النبوي وساحاته ، ويشرف عليها مشرفون مختصون يطبقون الشروط الصحية اللازمة لذلك .

كما أن إدارة السقيا تقوم بتوفير المياه لدورات المياه والمواضي وما يحتاج إليه للتنظيف والغسل في الساحات من ثلاثة مواقع في أركان التوسعة من شبكة مياه المدينة المنورة .

ويجري الآن حفر عشر آبار بالقرب من المسجد النبوي وإنشاء محطة تنقيه للمياه ، لتغذية المسجد والمرافق الأخرى بالمياه في حالة نقص المياه

الواردة من مصلحة المياه .

٥ – إدارة الأبواب :

مهمة هذه الإدارة اتخاذ الترتيبات اللازمة لإغلاق وفتح أبواب المسجد النبوي الشريف بتنظيم دقيق .

ومن مهامها تهيئة عربات لكبار السن والعجزة ، ونقل المرضى الذين يطرأ عليهم المرض المفاجئ بالتنسيق مع الهلال الأحمر السعودي لإسعافهم إلى المشافي ، ومنع دخول شيء يُخل بالأمن والسلامة ، أو دخول وخروج أي شيء من الأثاث إلا بإذن من الجهات المختصة .

٦ – إدارة الساحات :

تتولى الإدارة متابعة نواحي الأمن والسلامة ومنع العوائق عند المداخل والمخارج مثل الباعة والمتسولين والمدخنين ومراقبة النظافة في داخل المنطقة المحيطة بالمسجد النبوي من جهاته الأربع .

٧ – إدارة خدمات الصيانة :

دخلت الصيانة في المسجد الحرام والمسجد النبوي بعد توسعة خادم الحرمين الشريفين في مرحلة جديدة حديثة ، فجميع الأنظمة ترتبط الكترونيًا بنظام آلي متطور في كافة المجالات : الكهرباء ، والإضاءة ، والتكييف ، والصوتيات ، وهذا النظام يقوم بتشغيل كافة الخدمات ، والكشف عن الأعطال عن طريق غُرفة المراقبة المركزية ، وتقوم بعض الشركات الوطنية بتشغيل هذا النظام .

فمهمة الإدارة الحرص على سلامة سير أعمال الصيانة والأجهزة والمعدات بالشكل المطلوب الذي يحقق إيصال الصوت الواضح والإضاءة المناسبة وتهيئة الجو البارد اللطيف والمحافظة على سلامة المباني والمشاركة في متابعة الإنشاءات المعمارية وملاءمتها لاحتياج الزوار والمصلين .

ومجال خدمات الصيانة في المسجد النبوي الشريف كبير جدًا ، يشمل أقسام المسجد القديم والتوسعة الأولى والتوسعة الثانية والسطح والساحات والمرافق الموجودة فيها والأقبية ونفق الخدمات ومواقف السيارات وغيرها .

٨ – إدارة النظافة والفرش :

تقوم الإدارة بمتابعة أعمال النظافة في المسجد والساحات التي تتم كل يوم بواسطة شركة متعاقدة على أحدث طرق فنية بالماء والصابون والمطهرات الأخرى وقد يغسل المسجد والساحات ثلاث مرات يوميًا حسب الحاجة .

وكذلك المرافق الأخرى من المواقف ودورات المياه والمواضي ، وكذلك نظافة الفرش والسجاجيد الفاخرة المصنوعة خصيصًا للمسجد النبوي الشريف .

٩ – إدارة التنسيق والمتابعة :

تُعتبر إدارة التنسيق والمتابعة هي الإدارة المسئولة الأولى أمام الوكالة عن سير الأعمال ورفع مستوى الأداء العام بالمسجد النبوي الشريف .

الفصل السابع

الخدمات الطبية في المسجد الحرام

قد تم بأمر خادم الحرمين الشريفين اعتماد فتح خمسة مراكز طبية في أنحاء المسجد الحرام خلال أيام المواسم .

ومركز دائم طوال السنة بالتنسيق مع وزارة الصحة بالمملكة ، وتعمل هذه المراكز على مدار أربع وعشرين ساعة ، وذلك للإسعاف الأولى لمن يفاجأ ببعض الأمراض في المسجد الحرام وساحاته ثم نقله إلى المستشفى إذا دعت الحاجة إليه .

* * *

الفصل الثامن

النقل الإعلامي من المسجد الحرام والمسجد النبوي

للإعلام أهمية كبرى في التأثير في القلوب وترسيخ الأفكار ، وفي العصر الحاضر تقدم الإعلام كثيرًا واخترعت له أجهزة وآلات يمكن عن طريقها إيصال المعلومات والأفكار في لمح البصر في أقصى أنحاء العالم مثل المذياع والتلفاز وغيرهما ، فهي من الوسائل المؤثرة في بناء الفرد والمجتمع ثقافيًا وعلميًا ودينيًا وعقديًا وحضاريًا .

ومن أهم ميزات المملكة الاستفادة من كل جديد لخدمة الدين الحنيف؛ لذا حرص المسئولون في البلاد على الاستفادة من وسائل الإعلام واستعملوها لنشر تعاليم القرآن والسنة وبث الوعي الإسلامي فأنشئت في مكة إذاعة خاصة باسم نداء الإسلام تذاع فيها برامج دينية وفتاوى إسلامية .

وحيث إن المسلم يهفو قلبه لسماع أذان المسجد الحرام والمسجد النبوي وصلواتهما وخطبهما ، والاستفادة منها ؛ لذا جهز قسم خاص في المسجد الحرام ومثله في المسجد النبوي الشريف بالتعاون مع وزارة الإعلام لنقل الأذان والصلوات وخطب الجمع والأعياد وصلوات التراويح ، يذاع كل هذا عن طريق المذياع والتلفاز مسموعًا ومرئيًا ، فأصبح المسلمون في العالم يسمعون ما يبث من الحرمين الشريفين عبر المرئي منه والمسموع ، من صلوات وخطب ودروس ، وكان لذلك الأثر البالغ في نفوس المسلمين في أنحاء العالم ، وحصل به نفع كبير لعموم المسلمين ولله الحمد والمنة .

وفي الختام ندعو الله عز وجل أن يبارك في جهود خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز ، وولي عهده الأمين لما يبذلونه في خدمة الحرمين الشريفين ، والنهوض بأعباء الدولة المباركة ، فجزاهم الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء .

وصلى الله على خير خلقه نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

* * *

ملحق

بعض الأرقام والمعلومات عن

المسجد الحرام والمسجد النبوي

- وضع حجر الأساس للتوسعة السعودية الأولى للمسجد الحرام الملك سعود بن عبد العزيز رحمه الله في ٢٣ شعبان ١٣٧٥هـ ورفعت الأيدي منها بعد إكمالها في رجب ١٣٩٦هـ.

- التكاليف الإجمالية للتوسعة الأولى إلى رجب ١٣٩٦هـ (٦٢١,٦٤٢,٠٠٠) مليون ريال بما فيه تعويضات العقارات وتكاليف الأعمال والبناء.

- وضع حجر الأساس للتوسعة الكبرى للمسجد النبوي الشريف خادم الحرمين الشريفين في ٥ صفر ١٤٠٥هـ.

- ووضع اللبنة الأخيرة فيها في ١١ ذي القعدة ١٤١٤هـ.

- التكاليف الإجمالية المصروفة في توسعة خادم الحرمين الشريفين الملك فهد للمسجد الحرام والمسجد النبوي حتى عام ١٤١٣هـ حوالي (٥٥) بليون ريال سعودي.

- بداية عمل ترميم الكعبة المشرفة الأولى في العهد السعودي في ١٨ رجب عام ١٣٧٧هـ وتم في ١٣ شعبان ١٣٧٧هـ

- كما تمت بعض الترميمات في عام ١٤٠٢هـ وفي رجب ١٤٠٣هـ

باستبدال البلاطات القديمة ببلاطات جديدة والإطار الحديدي المحيط بالحجر الأسود، وتم في ١٥ شعبان ١٤٠٣هـ.

- بدئ بالترميم الثاني الكبير للكعبة المشرفة في عهد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد في ١٠ محرم ١٤١٧هـ وتم في ٣٠/ ٦/ ١٤١٧هـ.

- في عام ١٣٩٧هـ ركب سلم داخلي في الكعبة المشرفة مصنوع من الألمونيوم مكون من خمسين درجة.

- ثم عمل الباب الجديد في عهد الملك خالد بن عبد العزيز بتكلفة إجمالية قدرها (١٣,٤٢٠,٠٠٠) ريال سوى الذهب المستعمل مقداره ٢٨٠ كيلو جرام عيار ٩٩٩,٩، بدئ العمل فيه في ١ ذي الحجة ١٣٩٨هـ وتم تركيبه في ٢٢ ذي الحجة سنة ١٣٩٩هـ.

- عدد المآذن في المسجد الحرام ٩ مآذن.
- ارتفاع المئذنة ٨٩ مترًا.
- عدد المآذن في المسجد النبوي ١٠ مآذن.
- ارتفاع مآذن التوسعة الأولى ٨١ م.
- ارتفاع مآذن التوسعة الكبرى ١٠٤ م.
- السلالم الكهربائية في المسجد الحرام ٩ سلالم.
- السلالم الكهربائية في المسجد النبوي ٦ سلالم.
- عدد القباب المتحركة في المسجد النبوي ٢٧ قبة وزن الواحدة منها (٨٠) طنًا.

- مجموع أبواب المسجد الحرام (١١٢) بابًا بما فيها أبواب الجسور

والسلالم الكهربائية والأبواب الرئيسية تحتوي على عدة فتحات .

- مجموع أبواب المسجد النبوي (٤١) بابًا منها أبواب تشتمل على عدة فتحات .

- افتتح معهد الحرم المكي عام ١٣٨٥هـ .

- وصل عدد طلاب المعهد منتظمين ومنتسبين عام ١٤١٨هـ حوالي ألف طالب .

- أنشئت الرئاسة للإشراف الديني على المسجد الحرام عام١٣٨٤هـ.

- في عام ١٣٩٧هـ تم استبدال المسمى بالرئاسة العامة لشؤون الحرمين الشريفين ، وفي عام ١٤٠٧هـ عدل المسمى إلى الرئاسة العامة لشؤون المسجد الحرام والمسجد النبوي .

- أول مصنع للكسوة أنشئ في مكة في أجياد عام ١٣٤٦هـ في شهر رجب وعملت فيه أول كسوة ، ثم نقل المصنع إلى حارة جرول عام ١٣٨٢هـ ثم إلى أم الجود عام ١٣٩٧هـ .

- وفي عام ١٤١٤هـ ضم مصنع الكسوة إلى الرئاسة العامة لشؤون المسجد الحرام والمسجد النبوي ، ثم بدئ بترميمه ترميمًا شاملًا في هذا العام واستمر العمل في الترميم قرابة سنة ، وانتهى منه في أواخر عام ١٤١٥هـ .

تم الكتاب

مصادر البحث

- القرآن الكريم :
- إبراهيم رفعت باشا :
مرآة الحرمين أو الرحلات الحجازية المصور عن الطبعة السابقة بدون تاريخ .
- أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني :
سنن أبي داود ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، نشر دار إحياء السنة النبوية مصور عن الطبعة السابقة بدون تاريخ .
- أبو سليمان عبد الوهاب :
الحرم الشريف الجامع والجامعة، طبعة نادي مكة الثقافي ١٤١٧هـ.
- اتحاد المهندسين الاستشاريين :
تقرير وزارة المالية جمادي الأولى ١٣٩٧هـ
- أحمد بن حنبل الإمام :
فضائل الصحابة ، مركز البحث العلمي بجامعة أم القرى الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ
- الأزرقي أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد :
أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار ، دار الثقافة بمكة ١٣٩٧هـ
- با سلامة حسين بن عبد الله :
تاريخ عمارة المسجد الحرام ، الطبعة الثالثة ١٤٠٠هـ نشر تهامة جدة .

- تاريخ الكعبة المعظمة :
دار مصر للطباعة ١٣٨٤هـ
- البخاري محمد بن إسماعيل :
صحيح البخاري ، ترقيم فؤاد عبد الباقي وإشراف محب الدين الخطيب الدار السلفية بمصر .
- ابن لادن ، مجموعة ابن لادن :
تقرير عن ترميم الكعبة المشرفة ١٤١٩هـ .
- حافظ علي :
فصول من تاريخ المدينة الشركة السعودية للتوزيع الطبعة الثالثة ١٤١٧هـ .
- حامد عباس :
قصة التوسعة الكبرى ، نشر مجموعة ابن لادن ١٤١٦هـ
- الذهبي محمد بن أحمد بن عثمان .
* الأمصار ذوات الآثار ، دار البشائر بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ
* سير أعلام النبلاء ، تحقيق شعيب الأرنؤوط وغيره ، مؤسسة الرسالة بيروت ١٤٠١هـ وما بعدها .
- الزركشي محمد بن بهادر بن عبد الله :
إعلام الساجد بأحكام المساجد،تحقيق أبو الوفاء مصطفى المراغي، وزارة الأوقاف المصرية الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ
- السمهودي علي بن أحمد :
وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى ، تحقيق محيي الدين عبد الحميد ، دار

إحياء التراث العربي بيروت الطبعة الثالثة ١٤٠١هـ .

- الطبري محمد بن جرير :

تاريخ الأمراء والملوك ، دار العلم بيروت بدون تاريخ مصور عن الطبعة السابقة .

- الفاسي تقي الدين محمد بن أحمد المكي :

شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ، دار الكتب العلمية بيروت لبنان بدون تاريخ مصور عن الطبعة السابقة .

- القطبي قطب الدين الحنفي محمد بن أحمد :

الإعلام بأعلام بيت الله الحرام .

- الكردي محمد طاهر :

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم ، مكتبة النهضة الحديثة بمكة، الطبعة الأولى ١٣٨٥و١٤١٢هـ .

- كوشك يحيى بن حمزة :

زمزم طعام طعم وشفاء سقم ، دار العلم للطباعة والنشر – جدة ١٤٠٣هـ

- مسلم بن الحجاج القشيري :

صحيح مسلم ترقيم فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء التراث العربي بيروت لبنان – مصور عن الطبعة السابقة .

- ناجي حسن الأنصاري :

عمارة وتوسعة المسجد النبوي عبر التاريخ ،نادي المدينة المنورة الأدبي الطبعة الأولى ١٤١٦هـ .

- وزارة الإعلام :
دولة في قائمة الشرف العالمية خدمة الإسلام والمسلمين ، نشر إدارة العلاقات العامة بوزارة الإعلام بدون تاريخ .
- مكة المكرمة دليل الشوارع والخدمات بالعاصمة المقدسة والمشاعر شركة المدينة المنورة للطباعة والنشر بدون تاريخ .
- وزارة الحج والأوقاف :
الباب الجديد للكعبة ، افتتاح مصنع كسوة الكعبة المشرفة ١٣٩٧هـ .
- الوكيل محمد السيد :
المسجد النبوي عبر التاريخ ، دار المجتمع للنشر والتوزيع الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ .
- **الجرائد والمجلات :**
-جريدة أم القرى الصادرة من مكة .
-جريدة المدينة المنورة .
-مجلة الإذاعة السعودية .
-مجلة الحج الصادرة من مكة .

فهرس الموضوعات

* * *



الرئاسة العامة لشؤون المسجد الحرام والمسجد النبوي
المملكة العربية السعودية
الرئاسة العامة لشؤون المسجد الحرام والمسجد النبوي
إدارة المطبوعات والنشر